الطبعة 2

ربيع الأندلس

د. محمود ماهر

مكتبة نوميديا 169
Telegram: @Numidia_Library

عصير الكتب

ربيع الأندلس

عصير
الكتب

الكتاب : ربيع الأندلس
المؤلف : محمود ماهر
تدقيق لغوي: كمال اليماني
تنسيق داخلي : سمر محمد
الطبعة الأولى: أغسطس ٢٠١٩
رقم الإيداع : ١٦١١٨ / ٢٠١٩
I.S.B.N : ٩٧٨-٩٧٧-٩٩٢-٠٦٦-٥

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

[redacted]

ربيع الأندلس

«عبد الرحمن الثالث»

الناصر لدين الله

د/ محمود ماهر علي

(راوي الأندلس)

عصير الكتب

إهداء

إلى زوجتي وأولادي

وإلى حفيدة الموريسكيين بطلة روايتي

وإلى صديقي العزيز د/ كريم درّاج

وإلى الجَد عبد الرحمن بن معاوية ((صقر قريش))، الرجل الذي تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف، عبر القفر، وركب البحر، حتى دخل بلدًا أعجميًا منفردًا بنفسه، مؤيدًا برأيه مستصحبًا لعزمه فمَصّرَ الأمصارَ، وجند الأجناد، ودوّن الدواوين، وأقام مُلْكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة شكيمته

تنويه

وقعت أحداث هذه الرواية في القرن العاشر الميلادي، وجميع ما ورد فيها من أحداث ومعلومات هي حقائق وليست من نسج الخيال!

راوي الأندلس

الفصل الأول

«تنطفئ أرواحنا بِفَقْدِ مَنْ نُحِبُّ»

كانت السماء ملبّدة بالغيوم والريح تصفر من وراء الأبواب المغلقة والثلوج تغطي معظم شوارع وأزقّة البيازين المطلة على قصور الحمراء، ويعمُّ الجو سكون ووحشة، فقد كان الشتاء قاسيًا هذا العام؛ لذا خلت الشوارع مبكرًا من المارة، فالناس قد لاذوا ببيوتهم والتفوا حول مواقدهم ليستدفئوا بها من شدّة هذا البرد القارس.

وفي أحد بيوت البيازين العتيقة التي تتميّز بطابعها القديم، كان السكون يخيم على الدار، إلّا في غرفة واحدة فقط، حيث كانت تجلس (فاتيما) ذات الثمانية عشر عامًا، وقد استرخت على سريرها متدثرة بالغطاء وراحت تداعب خصلات شعرها برفق، بينما ذهب خيالها إلى يوم الاحتفال المنتظر في اليوم التالي، ومن ثَمَّ نهضت وتوجّهت إلى حيث خزانة الثياب، ففتحت بابَيْها ونظرت فيها لتختار لنفسها ثيابًا مميّزة، وبعد أن أمضت وقتًا في التفكير وتأمّل الخيارات المتاحة قررّت ما سترتديه في صباح اليوم التالي، ووضعت ما اختارته من ملابسها على الأريكة الصغيرة بجانب سريرها، ثم وضعت رأسها على وسادتها وراحت تفكّر والبسمة تملأ وجهها، وقالت في نفسها: أرجو أن يكون يوم الغد مشمسًا حتّى نستمتع به، وفي النهاية استسلمت .. وأسلمت نفسها للنوم؛ لتغطّ في سُبات عميق لم يقطعه سوى صوت المنبه الذي رنّ ليعلن الثامنة صباحًا... استيقظت فاتيما من نومها وفركت عينيها محاولة نفض الكسل عنهما، ثمّ نهضت وتحرّكت صوب الحمام لتعود بعد وقت وتمسك تلك الثياب التي انتقتها لترتديها في هذا اليوم من العام...

قميص أبيض حريري ذو ياقة عالية وتنورة سوداء من الجوخ، ولم تنسَ أن تلبس الأقراط اللؤلؤية الصغيرة التي أهداها لها صديقها (بيدرو) في عيد ميلادها الأخير قبل بضعة أسابيع.

لم تكن فاتيما بحاجة لاستخدام مساحيق التجميل؛ لأنّها كانت جميلة للغاية، عينان عسليتان واسعتان، وأهداب طويلة، وبشرة بيضاء مُشْرَبَة بالحُمْرة، وشعر طويل بني اللون مائل إلى الأشقر منسدل على أكتافها، أمّا أجمل ما كان يميّزها فهي ضحكتها التي تبرز جمال الغمازتين في وجنتيها.

قليل من الكحل في عينيها والقليل من أحمر الشفاه هو كلّ ما تحتاجه فاتيما لتزداد جمالاً وجاذبية.

تجهّزت الفتاة في دقائق قليلة وتعطّرت بعطرها المفضل وخرجت من غرفتها، لتجد جدّها المسّن جالسًا في بَهْوِ المنزل يقلّب في صفحات الصحف يطالع ما ورد فيها من أخبار كعادته كل صباح.

بابتسامة ملأت وجهها قالت له: صباح الخير يا جدي.

نظر لها الجدّ وبابتسامة كبيرة قال: صباح الخير يا فاتيما، وبنبرة استفهام سألها: إلى أين أنت ذاهبة؟

فاتيما: اليوم هو الثاني من يناير يا جدّي!

تنهّد الجدّ وذهبت من وجهه تلك الابتسامة وقال: هه، أما زلتِ عازمة على حضور الحفل؟

فاتيما: بلى، وعسى أن تصحبني فيه، فهذا يومٌ حقّ على كلّ الإسبان أن يحتفلوا به.

هزّ الجدّ رأسه وقال: لقد كبرتُ يا بنيتي، وما عدتُ أستطيعُ حضور تلك المهرجانات.

قَبَّلَتْ فاتيما رأس جدها وقالت: سأحضره عنك وأقصّ عليك الأحداث حال عودتي حتّى كأنّك ترى كل شيء بعينيك.

الجدّ: حسنًا تفعلين يا عزيزتي، والآن قد أعددْتُ لك الفطور، فهيّا فقد بلغ الجوع منّي مبلغه.

جلست فاتيما إلى مائدة صغيرة وجلس جدها في الجهة المقابلة، ثم قالت ضاحكة: لا ذنب لي فأنت تصرّ على الاستيقاظ باكرًا، ثمّ لا تصبر على الجوع.

الجدّ: البركة في البكور يا حبيبتي.

تناول الاثنان طعام الفطور، وما إن انتهت فاتيما حتى نهضت بسرعة وحيّت جدّها وغادرت المنزل بعد أن ارتدت معطفها الأحمر الطويل ووضعت وشاحًا أسودَ حول رقبتها؛ اتقاء للبرد وحملت بيدها راية صغيرة تشبه تلك الراية الكبيرة التي يحملها الإسبان في مثل هذا اليوم من كل عام.

ما إن فتحت فاتيما باب منزلها حتى وجدت صديقها (بيدرو) في انتظارها على مقربة من الباب، نظر إليها بيدرو نظرة إعجاب وحبّ وابتسم لها، تصافح الاثنان ثم وضع بيدرو يده في يد فاتيما وبدآ يتجاذبان الأحاديث وهما يتجهان صوب ساحة المدينة.

كان الجو صاخبًا والسعادة تغمر معظم الحضور، والأعلام الإسبانية تملأ المكان، ورجال الشرطة منتشرون هنا وهناك...

وبعد وقت قصير ظهرت كوكبة من الفرسان يرتدون الزي العسكري القشتالي، وهم يواجهون كوكبة أخرى ترتدي ملابس تدلّ على أنّهم من العرب المسلمين..

بدأت الحرب التمثيلية! وكان السلاح فيها هو السيف والرمح والنبال والبنادق القديمة، انهزم المسلمون واستسلموا، ليظهر بعد هذا النصر التمثيلي رجلٌ آخر يرتدي زِيًّا عربيًا وعلى رأسه تاج الملك، وهو يمسك بيديه مفاتيح كبيرة تشير إلى مفاتيح غرناطة وقصور الحمراء، ليتقدم بتلك المفاتيح -وهو منكس الرأس حزين الوجه مغتم النفس- صوب رجل وامرأة يمثلان المَلَكَين الكاثوليكيَّيْن (فرناندو الخامس وإيزابيلا الأولى)؛ ليعطيهم تلك المفاتيح وسط بهجة عظيمة وسعادة غامرة وتصفيق حاد وهتافات عالية من الجموع المحتشدة في المكان.

وفاتيما وبيدرو يتابعان تلك المشاهد وهذه الاحتفالات بحماسة بالغة، يصفقون ويهتفون والموسيقى العسكرية الإسبانية تعزف، والتلفاز الإسباني ينقل تلك الأحداث، وبعد ذلك تحرك الاثنان وجمعٌ من الحضور صوب مقبرة الملكين الكاثوليكيين ووضعوا أكاليل الزهور على القبر... نظر بيدرو إلى فاتيما وقال: لَكَمْ أشعر بالفخر وأنا في هذا المكان الذي يحوي قبر أعظم ملوك التاريخ، وكيف لا وقد استطاعا أن يخلصانا ويحررا إسبانيا من نير المحتل العربي الهمجي.

بادلته فاتيما نظرات مليئة بالفخر والاعتزاز، ثم أكمل قائلاً:

ولولاهما لكنّا اليوم نتكلم العربية ولكنتِ اليوم تقبعين في المنزل كالجواري محرّم عليك العلم والثقافة متزوجة منذ سنوات، ولكانت بلادنا شبيهة ببلادهم، حرب وخراب ودمار وأنهار من الدماء.

فاتيما بسخط بالغ: سحقًا لهم فلكَمْ أكرههم.

بيدرو مبتسمًا: والآن ما رأيك في نزهة في قصور الحمراء.

فاتيما «بفرح كبير»: حقًا؟

وضع بيدرو يده في جيبه وأخرج تذكرتين لزيارة القصر، ثمّ قال: طبعًا.

ابتهجت فاتيما وفرحت أيّما فرح ووضعت يدها في يد بيدرو وتحرّك الاثنان صوب قصر الحمراء وراحا يتجولان في أرجائه وهما يشاهدان روعة فنونه، ويترحمان على الإمبراطور شارلكان!

كانت فاتيما تختال بجمالها الفتّان في أروقة الحمراء كأميرة أندلسية، حتى إذا دخلوا بَهْوَ الأسود راحتْ تداعب مياه النافورة بغنج ودلال، ولم يكدّر صفو سعادتها إلا رؤيتها لشاب عربي يقرأ أبيات الشعر المحفورة على جدران القصر ويطالع النقوش بانبهار وإعجاب..... اقتربت منه فاتيما ونظرت إليه بازدراء وقالت بلغتها الإسبانية التي لم يفهمها ذلك العربي: عربي حقير، لقد تخلصنا منكم في عام ١٤٩٢، فلماذا تصرون على العودة إلى هنا؟ ما أنتم إلا أجلاف صحراويون لا تعرفون معنى الرقي والمدنيّة، لقد أنقذنا الملوك الكاثوليك عندما تخلّصوا منكم وطردوكم خارج بلادنا ولولا ذلك لكانت إسبانيا الآن كما هي بلادكم الآن...

أمّا الشاب العربي فقد وقف مذهولاً مندهشًا مستهجنًا إزاء ما يشعر به من ازدراء، إذ حاول أن يتحدث إليها باللغة الإنجليزية التي يتقنها عندما أحسّ من نظراتها وأسلوبها أنّها تهاجمه ولكنّها رفضت الإنصات، وتدخل بيدرو وشتم العربي الذي وقف بصمت مندهشًا ممّا يحدث، ثم بالغت فاتيما في إهانته وسبّه، حتى إذا وصل بعض رجال الأمن أشارت فاتيما إلى ذلك العربي وقالت لهم: لا يجب أن يكون هذا العربي هنا وخصوصًا في مثل هذا اليوم!

مالت الشمس للمغيب فبدت للعين في مرأى عجيب، وعادت فاتيما إلى منزلها بعد يوم سعيدٍ قضته في مشاركة حبيبها هذا الاحتفال العظيم، وما إن فتحتِ البابَ حتى راحت تبحث عن جدّها ولكن دون جدوى، ثم استدركت وقالت لنفسها: لا بدّ أنّه دخل تلك الغرفة المغلقة التي لا يسمح لغيره بدخولها!

دخلت فاتيما غرفتها لتبدل ثيابها وما إن خرجت حتى استقبلها جدّها بنظرات حانية ووجه بشوش وقال لها: كيف كان يومك يا حبيبتي؟

فاتيما: كان يومًا عظيمًا يا جدي ولكَمْ تمنيت أن تكون معي وتشاهد كما شاهدتُ هذا الاحتفالَ الرائعَ وكيف أنقذ الملكان الكاثوليكيان بلادَنا من همجية العرب وتخلفهم.

بدى الامتعاض يظهر على وجه الجدّ بينما تابعت فاتيما قائلة: لولا الملكان الكاثوليكيان لكنّا اليوم مثل الدول العربية المتخلفة، أجلاف الصحراء الذين لا يعرفون معنى الحضارة والمدنية، لكَمْ

أرجو أن يُصْدِرَ فرانشيسكو فرانكو قانونًا يُحرّم على هؤلاء العرب دخول إسبانيا.

لم يتمالك الجدّ نفسه، فقطع حديث حفيدته وقال مستفسرًا: لماذا؟!

فاتيما: يجب أن نحافظ على تراثنا يا جدي، وإلا فسيطمعون ببلادنا مرة أخرى كما طمع أجدادهم.

وضع الجدّ يده على وجهه وصمت، بينما تابعت فاتيما قائلة: لقد كنت أشعر بالفخر وأنا أشاهد ما حدث، وكم تمنيت يا جدي أن أكون ممّن عاصر هذا اليوم التاريخي وأن تكون حياتي تحت ظل الملوك الكاثوليك العظماء.

رفع الجدّ يده عن وجهه وقال لها محاولًا أن يعرف إن كان كل الشباب الإسباني يرى ما تراه حفيدته: وماذا عن أصحابك؟

فاتيما: إنّهم أكثر حماسة وفخرًا منّي، حتى إنّ بيدرو طلب مني أن يكون زفافنا في مثل هذا اليوم من العام القادم، إذ قال لي: « كما بدأت عظمة إسبانيا في مثل هذا اليوم؛ سنبدأ حياتنا سويًا في مثل ذلك اليوم العظيم من العام القادم!

الجدّ مستهجنًا: ماذا؟

احمرّ وجه فاتيما خجلًا وقالت: عمّا قريب سيزورك يا جدّي ليخطبني منك.

تردّد الجدّ وتملكته الحيرة، ولم يدر ماذا يقول، فالتزم الصمت في ظلّ سعادة غامرة من فاتيما التي لم تشك لحظة واحدة أن جدّها

لن يرحّب بتلك الزيجة، وخاصة أن بيدرو ينحدر من عائلة ثرية ويشغل وظيفة مرموقة ويملك من الوسامة ما يميّزه عن أقرانه، فهو حلم كل فتاة غرناطية تحلم بالزواج والحياة المستقرة والسعيدة.

قَبّلَتْ فاتيما رأس جدها ثم تحرّكت صوب شرفة المنزل؛ لتقوم بإلقاء نظرة اطمئنان على أحواض الزرع هناك بعد موجة الصقيع التي ضربت المدينة في الأيام السابقة، فقد كانت الشرفة تمتلئ بأحواض الورد والزهور والرياحين التي تنتظر الربيع حتى تزهر من جديد، ثمّ عادت إلى بَهْوِ المنزل لتجد جدّها لم يتحرك من مكانه، فجلست بجواره، وقالت: هل أصنع لك شيئًا لتشربه أو طعامًا لتأكله؟

الجدّ: لا يا عزيزتي.

طبعت فاتيما قبلة على رأس جدها، ثمّ همّت بالانصراف إلى غرفتها غير أنّ الجدّ استوقفها وقال لها بنبرة هادئة وحنونة: فاتيما.

فاتيما: هل غيّرت رأيك وتريد طعامًا أو شرابًا؟

الجد: لا.

فاتيما: فماذا إذًن؟

بعد صمت بسيط وتردُّدٍ واضح وبنبرة مؤثرة قال لها: هنالك ما يجب أن تعرفيه قبل شروعك بالزواج من بيدرو يا عزيزتي.

تبدّلت ملامح فاتيما وملأت الحيرة وجهها وقالت: ما الذي يجب أن أعرفه؟

الجدّ: ربّما ليس هو الشخص المناسب لك.

فاتيما (باستهجان واستغراب): كيف تقول هذا على شاب ناجح في عمله من أسرة غنية مرموقة يا جدي؟

تنهّد الجدّ وقال: لقد كبرت يا فاتيما وحان الوقت لتعلمي الحقيقة وتُقَرِّري مصيرك ومستقبلك.

تسارعت أنفاس الفتاة وهي تقول مستنكرة: حقيقة! أيّ حقيقة تلك التي تمنعني من الزواج بشاب أحبه؟!

الجدّ: أرهفي سمعك جيدًا، فإنّي لا أقدر أن أرفع صوتي؛ «فالجدران لها آذان»، وأخشى أن تشي بي وبك ويلحق بنا ما أخشاه يا عزيزتي، فرجال فرانكو لا يرحمون من يشُكُّون بولائه للدين والوطن.

اقتربت فاتيما من جدّها، بينما كاد قلبها يتوقف من الخوف والحيرة وقالت: ما الأمر يا جدي؟ لقد بدأَتْ كلماتُك تخيفني، إنّي مصغية إليك.

الجدّ (بصوت خافت وحذر): سأخبركِ بسرّ عظيم تكتمينه ما حييتِ، ولا تبوحي به لأحد مهما كانت الظروف، فهل تعدينني بذلك؟

أومأت فاتيما بالموافقة، وبحَيرة كبيرة قالت: أعدك.

صمت الجد لحظةً بَلَعَ فيها ريقَه ثم قال: أنا مسلم يا فاتيما وكذا كان أبوك وأمك رحمهما الله، فأنت تنحدرين من سلالة مسلمة؛ لذا لا يجوز لك الزواج من بيدرو الكاثوليكي المتعصب.

نهضت فاتيما كالمجنونة وقد تبدّلت ملامحها وبدت غير مصدقة لما تسمع من كلام، وقالت مستهجنة: مستحيل ما تقوله، أنت بكلّ تأكيد تمزح يا جدي، ثم ضحكت بسخرية وعدم تصديق وقالت

باستعلاء واستنكار: أنا من أصول إسلامية، أنا حفيدة لأولئك الأجلاف الغزاة؟!

الجد (مضطربًا): أخفضي صوتك. إنّها الحقيقة يا عزيزتي.

فاتيما: أيّ حقيقة وأيّ هراء هذا، بل أيّ هذيان ذلك!

الجدّ: هدّئي من روعك يا فاتيما

صرخت فاتيما في وجه جدّها، وقالت: لن أهدأ وأنت تقول لي ما تقول.. وبلهجة استهجان: أيعقل أن أكون أنا حفيدة لهؤلاء الهمج الذين لا أنفكّ أسخر منهم وأقلّلُ من شأنهم؟

وبنبرة قاسية: لقد كبرتَ يا جدي وأظنّ قد أصابك الخرف.

نزلت كلمات فاتيما كالصاعقة على مسامع الجدّ فأصابه الذهول.. والتزم الصمت.

أشارت فاتيما إلى صور يسوع والصلبان المعلقة على الجدران وسألت جدها: وماذا عن هذه؟ أيعقل أن يكون هذا سراب وخداع؟! مستحيل...

حاول الجدّ تهدئتها ولكنّها رفضت وصرخت في وجهه: لقد كبرت وخرفت، من الغد سأترك هذا المنزل اللعين، فلا حياة لي فيه بعد الذي قلت. بل لم تعد جدّي بعد اليوم... ثم تحركت صوب غرفتها لتدخل وتغلق الباب خلفها بقوة وترتمي على سريرها وهي تبكي بحرقة كبيرة غير مصدقة لما سمعت.

مضى وقتٌ وفاتيما متسمّرة في مكانها والدموع تنهمر من عينيها لا تستطيع أن توقفها، بل كادت أن تجنّ وهي تحدث نفسها « أنا حفيدة

لهؤلاء الحمقى؟ يا ليتني مت قبل أن أسمع هذا الهراء.. ماذا سأقول لبيدرو؟ كيف سأواجه الناس بعد الآن؟ هل أخبر بيدرو أنّني حفيدة لمن كنت اليوم أستهزئ بهم؟ قطعًا سيرفض مجرد الحديث معي، لن يرضى أن يتزوجني وهو الكاثوليكيِ المتعصب لملته والحريص على حضور القدّاس في الكنيسة كل يومِ أحد، بل ربّما يتهمني بأنني مخادعة...

بدت فاتيما مشتّتة الذهن والأفكار مضطربة العواطف، ثم مسحت دموعها وجَثَتْ على ركبتيها أمام صورة العذراء المعلقة على جدار غرفتها وصلّت إلى الرب ثم قالت: يا عذراء، ساعديني أيّتها البتول، لم أعد أعرف أين الحقيقة، ساعديني فقد ضللت الطريق، خذي بيدي إلى النور...

ثمّ عاودت البكاء بصمت حتى غلبها النوم، ولكنّه لم يكن هذا النوم الهانئ، فقد رأت نفسها تسير على الشاطئ سعيدة مع بيدرو ثم اتجهت صوب البحر وهي تلهو بالماء وفجأة بدأت الأمواج بسحبها إلى داخل البحر، ولم تعد فاتيما تقوى على السيطرة على نفسها من شدة قوة الأمواج، وكأنّ حركتها قد شُلّت تمامًا مع أنّها تتقن السباحة..... أشاحت فاتيما بوجهها يمنة ويسرة تبحث عن بيدرو فلم تجده، فبدأت بالصراخ وطلب النجدة، وفجأة ظهر الجدّ ومدّ يده نحوها وأمسك بها وسحبها بسهولة إلى برّ الأمان.

استفاقت فاتيما من نومها على صوت أنينها وهي تفكر في هذا الحلم الغريب، وبدأت تستعيد شريط ذكرياتها مع جدّها، لقد توفي والداها في حادث سير أليم ومنذ ذلك اليوم وهي تعيش في كنف

جدها «خليل»، الذي أحسن تنشئتها واعتنى بها كما لو كانت في كنف والديها بل ربما أفضل، لقد أحاطها بكلّ الحب والحنان والرعاية والأمان حتّى أنّها في كثير من اللحظات لم تعد تذكر أنّها يتيمة، وما كانت تشتهي شيئًا إلّا وأحضره الجدّ لها، ولطالما كانت صديقاتها يغبطنها على أناقة هندامها وتسريحة شعرها التي كانت تذهب بها إلى المدرسة كل يوم... استذكرت فاتيما كلّ تلك اللحظات الجميلة التي جمعتها بجدّها «الأعياد والنزهات والرحلات وحفلات التكريم في المدرسة، الوجبات اللذيذة التي طالما أعدّها الجدّ لها، ساعات المذاكرة اليومية التي كان يقضيها معها، قصص ما قبل النوم التي اعتاد أن يرويها لها الجدّ في الصغر»

أحسّت فاتيما بالذنب تجاه جدّها وأشفقت عليه، كيف صرخت في وجهه وهو المحبّ لها؟ حتى أنّها قد أهانته واتهمته بالخرف!

نظرت الفتاة إلى الساعة فوجدتها تشير إلى الخامسة صباحًا، فتحركت وهي تتمنّى أن تجد جدّها مستيقظًا حتى تطلب منه الغفران، وبعدها تفعل ما تشاء...

خرجت فاتيما من غرفتها وتحركت صوب غرفة جدّها فلم تجده نائمًا، فعرفت أنّه داخل تلك الغرفة المغلقة التي لا يدخلها سواه، فقرَّرَتْ أن تنتظره عند بابها حتى يخرج، لكنّها فوجئت أنّ باب الغرفة كان مفتوحًا على غير العادة!

ارتبكت فاتيما في هذه اللحظة وتسارعت أنفاسها قبل أن تتحرّك صوب الباب لتنظر، فإذا بجدّها يجلس على الأرض... طرقت الباب طرقة خفيفة، تنبَّه الجد لوجودها لكنّه لم يلتفت إليها، واكتفى بأن قال لها: ادخلي يا فاتيما، تعالي يا بنيتي.

تسمّرت قدما الفتاة وكأنّها لم تصدق نفسها، وراحت تتساءل: «هل حقًا سأدخل تلك الغرفة التي كثيرًا ما حاولتُ دخولها وقوبلتَ محاولاتي بالرفض من قِبَل جدي»؟

الجدّ: ما بك لا تتحركين؟ تعالي واجلسي بجواري.

تحرّكت الفتاة وبخطوات حائرة وجدت نفسها في الغرفة، فراحت عيناها تنظر هنا وهناك فكثيرًا ما كانت تتخيّل ما في الغرفة من أثاث ومجوهرات ونقود كثيرة أخفاها الجد فيها، لكنّها لم تجد أيًّا من ذلك، بل لم تجد سوى سراج زيتي يضيء المكان، وغرفة شبه خاوية، ليس فيها شيء ممّا كانت تتوقع رؤيته من العجائب، وما فيها إلا بساط ممدود على الأرض باتجاه زاوية من زوايا الغرفة وكتاب موضوع على رفّ، وسيف معلق على الجدار، وصورة لكاتدرائية قرطبة وعلى الجدار المقابل صورة لقصر الحمراء وبعض الصحف القديمة التي قد عفا عليها الزمن.

أمسك الجدّ يد حفيدته وأجلسها إلى جانبه على البساط، عندها شعرت فاتيما كأنّها انفصلت عن الدنيا التي تركتها خلف هذا الباب، وانتقلت إلى دنيا أخرى، وقرون أخرى، فلم تستطع فهم أو وصف ما أحسّت به...

ارتمت فاتيما في حضن جدّها، وبدأت بالبكاء مجددًا. ربَّت الجدّ على رأسها، ثم أمسك بوجهها ومسح دموعها وأشار إلى الكتاب الذي كان على الرف، وقال: أتعرفين ما هذا الكتاب؟

فاتيما: لا.

الجد: هذا كتاب الله.

فاتيما: الكتاب المقدس الذي جاء به يسوع ابن الله؟

الجدّ: لا بل القرآن الذي أنزله الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

فتحت فاتيما عينيها من الدهشة، وشعرت كأنّها لم تعِ شيئًا ممّا سمعت، بينما تابع الجدّ قائلاً: « هذا كتابَ الإسلام الذيَ أنزله الله على نبينا محمد- صلى الله عليه وسلم-؛ ليُخْرِجَ الناسَ من عبادة الأصنام والعباد إلى عبادة الله وحده ربّ العباد، ويقيم العدل وينشر الرحمة ويرفع الظلم...

هناك في بلاد الحجاز يا بنيتي وُلِدَ الإسلامُ وانتشر بين ربوع مكة والمدينة، ثمّ في كلّ بلاد الحجاز والعراق والشام ومصر حتى وصل هنا إلى بلاد الأندلس أو (إسبانيا) كما يطلق عليها اليوم.

مرتجفة قالت فاتيما: جدّي ماذا تقول؟

الجدّ: نعم يا فاتيما، نحن مسلمون ولكن نخفي ديننا خشية الملاحقات والتعذيب، إذ ينصّ قانون إسبانيا على كون الكاثوليكية هي دين الدولة الوحيد، فإنْ هُمْ عَلِمُوا حقيقة ديننا لن يتركونا بل ربّما يقتلوننا كما قتلوا أهلنا وإخواننا من قَبْلُ!

انهمرت الدموع من عيني فاتيما مرة أخرى، ولكنّها لم تنبس ببنت شفة، ففهم الجد ما يدور في خلد الفتاة فقال لها:

أترين هذه الصحف؟

فاتيما: أيّ صحف تقصد؟

الجدّ: امسحي دموعك وانهضي وأحضري لي هذه (وأشار إلى صحيفة قديمة).

مسحت فاتيما دموعها ونهضت لتمسك بصحيفة قديمة وناولتها لجدها الذي قال لها: بل اقرأي عليّ ما فيها.

فتحت فاتيما الصحيفة وقالت: إنّها أخبار قديمة يا جدي، ولا أَجِدُ فيها ما يستحق الاهتمام!

الجدّ: تابعي القراءة.

تابعت فاتيما التقليب في الصفحات، وفجأة قالت: لا أكاد أصدق هذا؟!

الجدّ: إنّها جزء من الحقيقة يا بنيتي وليست كلّها، وهذا بالضبط ما قصدته، فقد احتفلت الحكومة الإسبانية في عام ١٩٦١ بمرور ألف عام على وفاة عبد الرحمن الثالث كواحد من أعظم حكام هذه الديار على مرّ التاريخ...

هزّ الجدّ رأسه، وتابع كلامه: أجل يا بنيتي فلولا أنّه استحقّ، ما احتفل به أعداؤه، ثم تنهّد الجدّ، وتابع: أجل، فعبد الرحمن وأحفاده هم من احتفلتم بطردهم اليوم من الأندلس، وهم هؤلاء الذين تصفينهم بأنّهم همج الصحراء، وهم أيضًا من احتفلت بهم الحكومة كونهم أعظم مَنْ حَكَمَ هذه الجزيرة...

هم بناة الحمراء التي تشاهدينها كلّ يوم من شرفة غرفتك، وهم بناة الزهراء التي كانت يومًا أعظم من باريس وواشنطن ولندن وبرلين الآن.

أَلْجَمَتْ كلمات الجدّ فاتيما وتملكتها الحيرة أكثر فأكثر، وراحت الأسئلة الغريبة تراودها، ولم تعد تعرف ماذا تقول؟ فقد اختلطت مشاعرها بين هذا وذاك..... بين واقع تعيشه وتراه بعينها وبين ماض يقضي بأمر آخر على لسان جدّها، والجدّ ينظر إليها وينتظر ما ستبوح به حفيدته... مرّت لحظات، ثمّ قالت له بعدها:

الزهراء كانت أعظم من باريس؟ هل هذا معقول؟ وإن كان عبد الرحمن الثالث بهذه العظمة، فكيف لهم أن يخبرونا عكس ذلك؟ أين الحقيقة أين الحقيقة؟ ثم وضعت يدها على وجهها ودخلت في نوبة بكاء جديدة.

الجدّ: الحقيقة واضحة يا بنيتي.

فاتيما: أين وكيف؟

الجدّ: في قصور الحمراء والزهراء وسرقسطة، في قنطرة قرطبة ومسجدها، في أسوار إشبيلية ومنارتها وبرجها الذهبي وقصرها، في المرية وبلد الوليد وطليطلة، في لشبونة وشنترين وشلب، في قرمونة وبطليوس وجبال البشرات والسيرانيفادا، في الكتب المحروقة في ميدان باب الرملة، في تلك النقوش العربية التي تزيّن الجدران هنا وهناك، بل في كل بقعة من بقاع الأندلس.

مسحت فاتيما عينيها المليئتين بالدموع وسط شفقة جدّها وحنوه عليها، وقالت: حتى لو كانت هذه نقوشهم وتلك آثارهم، فكيف أكون حفيدتهم وهم من لا يعرفون للمدنية عنوانًا وللرقي طريقًا وللعلم بابًا؟... كيف ذلك؟!

اكفهرّ وجه الجدّ وتبدَّلَتْ ملامحه، وقال: من قال لك أنهم لا يعرفون للمدنية عنوانًا وللعلم طريقًا؟ لقد كان أجدادك هم من حملوا شعلة النور التي أضاءت أوروبا كلها في العصور الوسطى، حتى جاء ملوكها إلى قرطبة يرجون صداقة عبد الرحمن الثالث ويلحون عليها ويطلبون ودّه.

فاتيما: تراك تخفف عنّي بذلك؟

الجدّ: أنا لا أقول ذلك لأخفف عنك، بل لأنّها الحقيقة وأنت تعلمين أنّي لا أكذب أبدًا...

كفكفت فاتيما دموعها وبدأت أنفاسها تتباطأ، بينما وضع جدّها يده على يدها وقال بلهجة حازمة: يجب عليك أن تفخري بأجدادك العرب، (وبإلحاح وتكرار) يجب عليك أن تفعلي.

فاتيما: لو كنت اليوم معهم لربّما كنت جارية لأحدهم، ولمنع عنّي العلم وحرمني من الحياة.

ضحك الجدّ وقال: لو كانوا كما تقولين لما سادوا الدنيا، ولو كانوا يهينون المرأة لما بنى خليفتهم مدينة وأطلق عليها اسم جاريته تخليدًا لذكراها وحبًا فيها؟

فاتيما (غير مصدقة): هل هذا حدث حقًا؟

بفخر قال الجدّ: أجل حدث ومدينة الزهراء شاهدة على ذلك.

فتحت فاتيما فاهها من هول ما سمعت، وقالت: كيف ذلك؟

هل حقًا ما تقول؟.. هل بنى خليفتهم مدينة وأطلق عليها اسم جاريته؟ ألم يكونوا يحجبون النساء عن الحياة؟

بفخر قال الجدّ: أجل حدث ومدينة الزهراء شاهدة على ذلك، والنساء اللاتي نزلن إلى دركة الخدم في بلاد أوروبا عملًا بما روته التوراة في قصة حواء، ولكراهية القسيسين السابقين للزواج وإيثارهم العزوبية، كنّ على خلاف ذلك عند العرب مكرمات مالكات حريتهنّ. وللكرم إن لم نقل البذخ والسرف اللذين انتقلا إلى الأندلس، فكانا كافيين لحفظ مركز المرأة، والنساء في القصر الملكي في قرطبة، كنّ يساعدن الخلفاء في تدبير الأمور، حتى اتّخذ منهن الناصر كاتبة له، ولم يكن من الصعب عليهن الاتصال بالأدباء والشعراء وأصحاب الفنون الصناعية. وكان طلب العلم مباحًا لهن بكل حرية، وكثير منهن كان لهنّ ولع بالعلوم الرائجة في ذلك الزمان من فلك وفلسفة وطب وغيرها... وكانت النساء يتبرقعن خارج بيوتهن، ولكنهنّ كنّ مكرمات، وفي منازلهن كنّ مشرَّفات ومحترمات.

ولا حاجة بي إلى أن أتكلّم عن ظُرف العرب وشهامتهم؛ لأنّهم هم الذين طبّعوا الشعب الإسباني بطبائعهم -التي لا تُمحى أبدًا- على الاحترام الشخصي واللطف الذي لا يزال من خواصه المستميلة حتّى في الصنَّاع والفلاحين.. وهناك مزيّة أخرى امتاز بها العرب، وهي التسامح الديني، فقد كان أهل الأديان جميعهم يعَاملون بالحسنى، وكان على اليهود والنصارى فريضة مالية قليلة تخصهم، وكانوا يتمتّعون بحماية حقوقهم، فكثر عددهم، ورخّصوا لنصارى طليطلة بالمحافظة على كنيستهم الكبرى. وأخيرًا اشتُريت منهم بثمن غالٍ جدًا، ورخّصوا لهم بأن يبنوا عددًا من الكنائس، وكانت لهم في طليطلة ستة كنائس، أمّا فيما يخصّ اليهود فقد كانوا يتمتعون

بعصرهم الذهبي حينئذٍ، وارتقوا إلى أعلى درجة في العلوم، ونالوا أعلى المناصب في دولة الإسلام.

فتحت فاتيما فاهها من روعة ما سمعت، وقالت بلهفة:

أخبرني عن الزهراء أكثر فأكثر، فمدينتها حاضرة على الأرض شاهدة عليهم أو لهم.

بابتسامة كبيرة وبأعين متألّقة نظر الجدّ إلى صورة معلقة على الجدار- كانت لمسجد قرطبة الجامع- ثم ارتدّ بصره إلى فاتيما، واستطرد قائلًا:

استيقظ أهل الأندلس على خبر وفاة الخليفة العظيم، فساد البياض ربوع الأندلس ومدنها، وعمّ الحزن وخيّم على أرجائها، وشعر الناس أنّهم فقدوا الأب والحارس والرجل العظيم... بكت النساء ووجم الرجال وألجمت الصدمة الكثيرين فهام بعضهم على وجهه، وانهمرت الدموع من عيونهم عزيزة غزيرة، وخرج الرجال إلى الشوارع وبعضهم يتمنّى لو أنّ الموت أصابه دون الخليفة، ومنهم من لم يصدق أنّ الناصر قد مات أو لا يريد التصديق، وراح يتساءل، ويقول: «كيف له أن يموت؟! أبَعْدَ حياة حافلة يأتي الموت ليأخذ رجلًا عظيمًا؟! أبَعْدَ حياة مستقرة في دولة عظيمة شيّدها بعبقريته، يأتي الموت وينهي كل هذا في لمحة عين؟! أمّا قرطبة عاصمة الناصر وجوهرة العالم، فقد كان حزنها أكبر، ومصابها أعظم وكيف لا وفيها منزل الخليفة، ومنها خرجت جيوشه وحشوده تضرب هنا وهناك ... لهذا كان وقعُ المصيبة أعظم؛ فخرج الشعب القرطبي عن بكرة أبيه (رجالًا ونساءً) وتوجهوا إلى حيث جبل العروس مرتدين البياض،

حتى إذا وصلوا أسفل أسوار القصر الخليفي جلست جموعهم تبكي الخليفة وتنعاه، فكبير السن منهم كان ينعي في الخليفة أخاه، وصغيرهم كان ينعي فيه أباه، ويتيمهم كان ينعي فيه الكافل والأمين.

كانت صدمة عظيمة، ووحشة كبيرة، فقد طُوِيَتْ بوفاة عبد الرحمن الناصر ألمعُ صفحة في تاريخ الأندلس بعد أن استقرت الخلافة الأندلسية في عهده على أسس ثابتة، وسُحِقت ثورات المولدين والعرب والبربر، وأصبحت الكلمة العليا للدولة، بعد أن كادت الفتن تقضي على مُلك بني أمية، وعلى صرح الدولة الأندلسية كلّها، ورُدَّ النصارى القشتاليون إلى عقر دارهم، فسكنوا وجلين منتظرين، وأصبح مصيرهم معلّقًا بكلمة من فمّ الناصر وحركة من سيفه وإشارة من بنانه، وتمتّعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء لم تعرفه من قبل... ووصلت رقعة بلاد الأندلس إلى أعظم ما وصلت إليه إذا استثنينا مرحلة الفتح... وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس، ذروة عصورها قوة وعظمة ومجدًا.

أمّا في داخل القصر الخليفي في الزهراء، وتحديدًا في البهو الأوسط من القصر، فقد جلس على عرش الخلافة رجل قد تجاوز الأربعين من عمره، أبيض، مشرب بحمرة، أقنى، جهير الصوت، قصير الساقين، ضخم الجسم، غليظ العنق، عظيم السواعد، أفقم، وقد ارتدى لونًا أبيض مثل سائر أهل قرطبة في الحداد، وما إن جلس على كرسي عرشه حتى تقدم لبيعته إخوته، وسائر الوزراء ورجال الدولة، وأكابر الفتيان الصقالبة، ومَنْ دونَهم مِنْ رجال

الخاص، وأهل الخدمة، وأكابر الجند، وقد انتظموا جميعًا وفق مراتبهم في المجلسين الشرقي والغربي، وفي مختلف الأروقة، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الجند، فيما وراء باب السُّدة، صفوفًا متصلة حتى باب المدينة، والجميع يرتدي لون الحداد، وهم لا يتساءلون فقط عن مصير الأندلس بعد الناصر، بل عن مصير العالم بأكمله!

ولمّا تمّت البيعة، أذن للناس بالانصراف، إلّا الإخوة والوزراء ورجال الخاصة، فقد لبثوا في القصر، حتى احتمل جسد الخليفة الذاهب (الناصر) إلى قصر قرطبة ودُفن هنالك في مقبرة القصر بجوار أجداده الأمراء.

لم يكد ينتهي الحَكَمُ المستنصر من مراسم الدفن وأخذ البيعة حتّى غادر الجميع القصر، والحزن بادٍ على وجوههم والتعب على محياهم والكدر جاثم على قلوبهم، بعد يوم عصيب مليء بالألم على فقدان الناصر العظيم.

ولج الخليفة الحَكَمُ المستنصر إلى قصره، وكان لأوّل مرة يخلو من الناصر، وما إن دخله حتى تقدمت منه محظيته (صبح البشكنسية)، وخاطبته قائلة:

«إِنَّ لِلّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى يا سيدي».

هزّ الخليفة رأسه بحزن وأسى والدموع تترقرق في عينيه ولم يتحدث ولو بكلمة، بل انطلق إلى حيث مكتبة الخليفة السابق، حتّى إذا دخلها أغلق عليه بابها، وراحت دموعه الحارة المحبوسة تنهمر من

مقلتيه وكأنّه لم يُرِدْ لأحد أن يراه هكذا، فاحتفظ بدموعه ليسكبها على أبيه دون أن يراه أحد، وهو وإن كان الخليفة أمام الناس فهو ولد الفقيد وليس الخليفة بعصي للدمع، وهو يقول: رحمك الله أيّها الناصر العظيم فقد أرسيت الدولة وحفظت الإسلام في هذه الديار، وأتعبت كل من أتى بعدك من الخلفاء.

مرّت لحظات والخليفة يبكي بصمت، ودموعه تتساقط على وجهه وتتخلّل لحيته، وهو يمسك أوراق أبيه وأدواته يقبّلها ويحتضنها، حتى إذا وقعت عيناه على رسالة في أحد أركان مكتبة والده مسح دموعه بكمه، والتقط الرسالة المكتوبة، ثمّ جلس مكانه وفضّها، فوجد بها رسالة مكتوبة بيد الخليفة الراحل يقول فيها: أيّام السرور التي صَفَتْ لي دون تكدير في مدة سلطاني يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا.

برقت عينا الحَكَم وهو يقرأ الرسالة ويحصي الأيّام التي عدّها والده، ثمّ تمتم وقالَ في ذهول: « أربعة عشر يومًا فقط يا أبي.... فقط!» ويحسب الناس أنّ الخلافة جاهٌ عظِيم وقصور منيفة ومال وافر وجوار حِسان وخيول مسومة ومجالسُ أُنْسٍ وموائد فخمة شهية عليها ما لذّ وطاب؟! ولم يعلموا أنّ الخلافة همٌّ وغمٌّ وتكاليفُ عظيمةٌ، من حرب إلى حرب، ومن خصومة إلى خصومة، ومن نزاع إلى نزاع، وأداء حقوق العباد والنظر في مظالمهم، وإنصاف الرعية والعمل على توفير الحياة الكريمة لهم؟

ثم عاود النظر في الرسالة يتفحّص حروفها ويطالع سطورها، ودموعه تترقرق في جفونها، فإذا بذاكرته تأخذه لذلك اليوم البعيد عندما كان الأمير (المطرف بن عبد الله بن محمد) ذو الطول الفارع

والحواجب الكثيفة والصوت الجهوري، يجلس في مجلسه ويقف على خدمته الفتى الصقلبي (ريّان) وهو يقول -والكدر بادٍ على وجهه والغضب على محياه-:

المطرف: لم يكتف الأمير بتوليته ولاية العهد وأنا الأحقّ منه بذلك، حتى ولاه كورة إشبيلية.

ريان: هدّئ من غضبك يا سيدي، فلا شيء يدوم على حال.

وقف المطرف فجأة وتحرّك صوب النافذة وقال بغضب -كأنه بركان يغلي-:

لا... لن أهدأ حتى يملك محمد كل شيء ... ولاية العهد وكورة إشبيلية... لن أهدأ لأجد نفسي خامل الذكر في دولة أخي الذي سيورّثها لأبنائه دون إخوته.

ريان: فماذا ستفعل يا سيدي، وقد قضي الأمر؟

أطرق الأمير المطرف برأسه وفتح عينيه، وراح يتدبّر الأمر ويفكر فيه وعيناه تبثان شررًا، وقد تسارعت أنفاسه... وبعد مضي وقت من التفكير، قال: «لا لم أعد أستطيع المكوث هكذا طويلًا في المجلس هنا».

ريان: إلى أين يا سيدي في هذا الوقت من الليل؟

المطرف: أتسألني؟ ...لا أبا لك.

تملّك الخوف ريّان واضطربت ملامحه قبل أن يقول: العفو يا سيدي، إنّما أردت صحبتك فلعلّك تحتاجني.

المطرف: بل أريد الخروج وحدي... ثمّ تحرك متجهًا صوب دار أخيه، وكان الليل قد تأخّر وخلت شوارع قرطبة من المارة، والمطرف يطالع البيت ويحوم حوله...

وفجأة سمع أصوات حوافر فرس يتقدم... فنظر إلى مصدر الصوت، فإذا بأحد موالي الأمير محمد يمتطي فرسه ويتقدم باتجاه القصر.

تقدم المطرف صوب الفارس ورفع يده مشيرًا له أن يتوقف، فسحب الفارس رسن حصانه الذي ارتفع صهيله ووقف من فوره وترجّل الفارس عن فرسه واقترب من المطرف مطأطئ الرأس، وهو يقول: سيدي الأمير.

المطرف: من أنت؟

الفارس: أنا بدر أحد موالي أخيك الأمير محمد يا سيدي.

تمتم المطرف لحظة، ثم عاود النظر إلى الفارس، وقال بحدة: وما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل؟

الفارس: أرسلني مولاي الأمير لأحمل له أهله، وأعود بهم إلى إشبيلية يا سيدي.

المطرف وقد أشار بإصبعه: وما هذا الذي في يدك؟

الفارس: إنّها رسالة مولاي إلى الأمير عبد الله والدكم يا سيدي.

مدّ المطرف يده إلى بدر، وقال: أعطني الكتاب.

فزع بدر وبصوت خاشع خائف قال: اعذرني يا سيدي، فقد أمرني الأمير محمد ألّا يفتح أحد الكتاب ولا أسلّمه إلّا للأمير بصفته وذاته.

زمجر المطرف وغضب وبصوت عال صرخ وقال: كيف تجرؤ؟ .. ثكلتك أمك.

ارتاع بدر وظهرت عليه علامات الخوف والتردّد، وبينما هو كذلك إذ استلّ المطرف سيفه وبسرعة البرق وبدون تردّد غرزه في صدره، فسقط أرضًا وسط دمائه، فما كان من المطرف إلّا أن مدّ يده، وأمسك الكتاب، ثم انطلق عائدًا إلى داره، فما إن دخله حتى جلس على سريره وفتح الكتاب وقرأ ما فيه، وهو يقول: اللعنة عليك يا محمد.. اللعنة عليك أيّها الخادم اللعين.

وفي الصباح استفاق المطرف ليجد الرسالة ما زالت في يده، فعاد يطالع ما فيها، فإذا بها أخبار إشبيلية ونواحيها... تمتم المطرف وقال: اللعنة عليك يا محمد، وبينما هو كذلك إذ بخادمه ريّان يدخل عليه، ويقول: بالباب رسول من الأمير وهو يلح في طلبك يا سيدي.

نهض المطرف من سريره وقد تبدّل وجهه، وراح يقول في نفسه: ماذا سأقول للأمير لو نما إليه خبر مقتل رسول أخي محمد؟!

(٢)

في قصر قرطبة الكبير بجوار مسجدها العظيم، وفي بهو السفراء الجميل كان يجلس رجل أبيض أصهب مشربٌ بحمرة أزرق أقنى مخضب بالسواد، ربعة إلى الطول، عظيم الكراديس والغضب بادٍ على وجهه وهو غارق في تفكير عظيم...، وفجأة قطع صمته وقال بصوت مرتفع أين المطرف؟

بسرعة دخل الحاجب (عبد الرحمن بن شهيد)، وقال للأمير:

لقد أرسلت إليه من يلِحُّ في طلبه يا سيدي؟

الأمير: أرسِلْ إليه مرة أُخرى ولا يرجع رسولك إلّا به.

أومأ ابن شهيد برأسه وخرج من إيوان الحكم ليرى الأمير المطرف قادمًا من بعيد فهبّ إليه وقال: لماذا تأخرّت يا سيدي؟

المطرف (محاولاً اصطناع الهدوء): ما بك يا ابن شهيد؟

ابن شهيد: الأمير يلِحُّ عليك يا سيدي وأخشى إن تأخرت أن يبطش بي.

المطرف: ألهذا الحد؟

ابن شهيد: وربّما أكثر يا سيدي.

امتقع وجه المطرف وتلعثمت خطواته وتوجس خيفة من أبيه؛ فتباطأت خطواته قبل أن يستحثها مرة أخرى خشية أن يزيد تأخره من غضب الأمير، حتى إذا دخل مجلس الأمير نظر إليه الأمير وقد عقد حاجبيه وبنظرات حادة غاضبة، وقال:

ما الخبر الذي وصلنا بقتلك لأحد موالي أخيك محمدٍ؟

المطرف: لقد أساء الأدب يا مولاي؛ فحنقت عليه وقتلته بعدما رفض أن يعطيني كتابًا كان يحمله.

الأمير: كتاب...! وهل هذا سببٌ كافٍ لقتله؟

المطرف: أجل يا سيدي، عندما يكون الكتاب من أمير إشبيلية (محمد بن عبد الله) يدعو فيه أهله وحرمه إلى اللحاق به في إشبيلية.

ظهر الغضب على وجه الأمير، فهبّ من مكانه، وتحرّك صوب المطرف، وقال: وما الضير في ذلك؟ هل تريده أن يظل وحيدًا في إشبيلية؟

المطرف: هدّئ من غضبك يا سيدي.

الأمير: أتقتل رسول أخيك لأنّه لم يعطك كتابًا لم يُرسَلْ إليك؟ وتقول لي: هدّئ من روعك! (وبلهجة تهديد قاسية): الويل لك يا مطرف.

المطرف: لكنّي لم أفعل إلا حرصًا على مُلك الأمير.

نظر الأمير إلى المطرف نظرات مستفهمة مستنكرة، وعاد إلى كرسيه، فاقترب المطرف من أبيه وقال:

أجل يا سيدي، فقد بلغني من بعض عيوني ما يدور هناك في إشبيلية من تواصل بين أخي محمد وبين الشقي «عمر بن حفصون»، واتفاقهم على الخروج على الأمير، فرحت أترقَّبُ قصر أخي، فلمّا جاء هذا الرسول ظننت به الظنون يا مولاي وطلبت منه الكتاب الذي يحمل، فلمّا رفض لم أجد بدًا من قتله لأخذ الكتاب، خصوصًا وقد بالغ الرسول في الرفض، فلمّا فتحت الكتاب ووجدت أمر أخي (محمد) بحمل أهله وحرمه إلى إشبيلية في هذا الوقت المتأخر من الليل، تأكّد ظنّي، فمحمد إنّما يريد أهله ليكونوا عونًا له، ولكيلا ينكّل بهم الأمير حال افتضاح الأمر.

بُهِتَ الأمير، واتّكأ على جانب كرسيه الأيمن، ثم نظر إلى المطرف، وقال -بشيء من الحيرة-: أوَقَدْ فعل ذلك حقًا؟

حاول المطرف اصطناع الحزن قبل أن يقول: أجل يا سيدي، قد فعل ذلك مستغلًا مكانته في ولاية العهد ومكانته من ولاية إشبيلية مستعجلًا ولاية الأندلس -أطال الله بقاءك يا أبي- ثمّ اقترب من الأمير أكثر واستطرد قائلًا بصوت خافت موسوسًا في أذن أبيه: إنه يدبّر عليك يا سيدي.. ومن يدري فلعلّ محمدًا هو سبب نكث الشقي ابن حفصون عهوده بعد أن سالم الأمير...

فعلت وشاية المطرف فعلها في نفس الأمير؛ فازدادت نظراته حدّة وأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يأمر المطرف أن يتركه وحده، فخرج المطرف وقلبه يكاد أن يطير فرحًا، فقد نجا بفعلته ونجح في زرع الشك في قلب أبيه، وهو يقول في نفسه: ما هي إلّا أيام ويتم عزلك يا محمد عن إشبيلية وعن ولاية العهد، وحينها لن يكون لولاية العهد سوى المطرف.

أمّا الأمير فقد جلس في قصره وحيدًا يفكّر في الأمر، وأخذ البَهْوَ جيئة وذهابًا، مرة يجلس ومرة يقف، ثم قال: يجب أن أتيقّن من حديث المطرف، فإن كان قد صدق فقد حلْتُ بين محمد وبين ما يريد، وإن كان غير ذلك تبيّنت الأمر ورددتُه إلى إشبيلية غير منقوص... ثم صاح على حاجبه، فدخل ابن شهيد، فأمره الأمير، وقال:

اكتب إلى ولي عهدنا الأمير محمد، قل له أن يوافيني فور وصوله كتابي دون تأخر.

ابن شهيد: أمرك سيدي.

أما الأمير محمد فما إن وصلته رسالة الأمير، حتّى ترك إشبيلية على عَجَلٍ وسارع للمثول بين يدي والده، وهو لا يعلم السر الذي دعا

الأمير لطلبه بهذه السرعة، وهو الذي كان يرتّب لحياة طويلة في إشبيلية تحت كنف ورعاية والده.

ما إن وصل الأمير محمد إلى الحاضرة ودخل قصر قرطبة حتّى أحاط به جند الأمير، وهو لا يكاد يصدق ما يجري، فالتزم الصمت، ولم يقاوم الحرس أو يتفوّه ولو بكلمة، فسار به الجند وألقوه في السجن، ولسان حال محمد يقول: ما الذي حدث وماذا جَنَتْ يدي؟!!

(٣)

في أحد جوانب قصر الأمير محمد المظلمة، جلست (مزنة) حزينة باكية، تضع يدها تارة على بطنها الكبيرة أمامها بصمت، وتارة تناجي طفلها الذي لمّا يولد بعد، وهي لا تصدق ما حدث، ثم وضعت يدها على خديها وراحت تسترجع بذاكرتها آخر لقاء جمعها بسيدها (محمد) وهو يتجهّز للخروج من قرطبة باتجاه إشبيلية، وكان وقتها الأمير محمد سعيدًا فرحًا.

محمد: هلمّي يا مزنة، لا أريد أن أتأخّر على الأمير.

تتقدّم مزنة، وبيدها عمامة تعطيها لمحمد الذي أخذها ووقف أمام المرآة وراح يهندم نفسه، وما إن ارتداها حتّى التفت إلى الخلف ونظر لمزنة فوجدها حزينة، فقال لها:

هل هذا وقت حزن وبكاء؟

مزنة: قلبي غير مطمئن لخروجك إلى إشبيلية يا سيِّدي.

ابتسم محمد، وقال: ولكني أدخلها أميرًا، وأنا بعد ولي العهد يا حبيبتي وأمّ ولدي القادم.

مزنة: لكن لماذا أنت دون أخيك يا سيدي؟

محمد: ذلك لأنه يُعِدُّني للإمارة من بعده، أم تراك لا تعلمين أنّ سيِّدَك قد صار وليًا للعهد.

أغمضت مزنة عينيها ونكست رأسها، وقالت: ولهذا يا سيدي أرجوك ألّا تخرج.

بنظرة مليئة بالتعجب والاستهجان، قال محمد: ما بك يا مزنة؟

مزنة: يا سيدي أخشى إن خرجت أن يحيك لك الأمير المطرف، وأنت تعلم أنّه يحسدك لمكانتك عند أبيك، فإن خرجت سيخلو له وجه الأمير ويغيره عليك.

محمد: لا لا لا، لقد خانك تفكيرك يا مزنة، فأنا والمطرف إخوة ولن يضرني أبدًا..، بل أنا على يقين أنّه سيشتاق إليّ فور غيابي عنه.

مزنة: حدسي لم يخطئ يومًا يا سيدي، لهذا أرجوك ابق هنا، ثم لم تتمالك أن انهمرت دموعها، فاقترب منها محمد وضمها لصدره، ثمّ قبّل جبينها ومسح بيده دموعها، وقال لها مطمئنًا:

اطمئني سأكون بخير -إن شاء الله- ثمّ أطلقها، وقال: يجب أن أودّع الأمير، وخرج.

وبينما تغرق مزنة في دموع عينيها وذكريات آخر لقاء جمع بينها

وبين سيدها، إذ بوصيفتها (جواهر) تدخل عليها حزينة مكسورة، وهي تقول:

أجل يا مولاتي فقد تأكّد الخبر.

مزنة: أواه يا محمد، لم تكد تفرح بحملي حتّى ولّاك الأمير إشبيلية، حتّى إذا ضبطت أمورها، وأرسلت من يحملنا إليك، صار ما صار، ثم بكت وانتحبت.

جواهر: هوني عليك يا سيِّدَتي، فعسى أن يجعل الله بعد عسر يسرًا.

مزنة: أخشى يا جواهر أن يولد ابني فيجد أباه سجينًا أو مقتولًا.

جواهر: لا تقولي هذا يا سيدتي.

مزنة منتحبة: ليته ما حاز ولاية العهد ولا تولى إشبيلية... آه آه يا محمد ...

(٤)

في قصر الإمارة جلس الأمير (عبد الله) يتشاور مع وزيريه (عبد الله بن محمد بن أبي عبده، والوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية) ومعه حاجبه (عبد الرحمن بن شهيد) وكاتبه (موسى بن زياد)، وهم يناقشون أحوال البلاد وما حلّ بها، والأمير عبد الله يستمع

لهم، فتحدث الوزير عبد الملك وقال: مولاي الأمير لقد عمّت الفتنة أرجاء البلاد؛ فالدجنة متكاثفة، والقلوب مختلفة، وعصي الجماعة متصدعة، والباطل قد أُعلن، والشر قد اشتُهر، وقد تمالأ على أهل الإيمان حزب الشيطان، وصار الناس من ذلك في ظلماء ليلٍ داج، لا إشراق لصباحه، ولا أفول لنجومه، وتألّب على أهل الإسلام أهلُ الشرك ومَن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جرَّدُوا سيوفهم على أهل الإسلام؛ فصار أهل الإسلام بين قتيل ومحروب ومحصور، يعيش مجهودًا، ويموت هزلًا، وقد انقطع الحرث، فلا تقطع النسل يا مولاي، فالأمير (محمد) لك مُخلص ولطاعتك مقدِّم، ثم التفت إلى الوزير عبد الله بن محمد وكأنّه يستحثّه على الحديث، فبادر الأخير وقال:

أجل يا سيدي الأمير، فوالله ما علمنا منه شرًّا أبدًا، وإنَّ باطنه كظاهره فلا ينزغن الشيطان بينكم، فهو ابنك وولي عهدك.

عبد الملك: سيدي الأمير لقد كان الأمير محمد في (إشبيلية) ولمّا طلبتموه لم يتردد أو يتأخر، فهل هذا فِعْلُ مَن ينتوي العصيان ويرتب له؟، ثم كيف يا سيدي يتآمر ضدك ولماذا وقد أوليته ولاية العهد؟ فلماذا يستعجل بالشر ما سيحوزه بالخير؟ أطال الله بقاءك يا سيدي ...

شعر الأمير عبد الله بصدق أقوال الوزيرين، وكان قد شعر ببعض التسرع في سجن ابنه ولمّا يتبين بعدُ الحقيقة، إذ أخذه بالظنون، فأمسك لحيته وصمت قليلًا... شعر فيها الوزيران بنجاح مسعاهما فتبسما ونظر بعضهما إلى الآخر ومِنْ ثَمّ إلى الأمير الذي ذهبت به ذاكرته ليومٍ مرِض فيه، وتذكّر كيف كان حال محمد وخشيته عليه

وسهره الليل بجواره، يجفّف عرقه ويعطيه الدواء بيده، بينما لم يهتم المطرف حينها لمرضه ...

جال هذا الموقف في رأس الأمير، فهزّ رأسه وقال للوزيرين: سنتروى في الأمر، ومن يدري فلعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا.. والآن دعونا من أمر محمد، وأخبروني عن حال الخارجين والعصاة.

عبد الرحمن بن شهيد: لقد استطاع الشقي (ابن حفصون)، أن يأسر محمد بن أضحى صاحب ألبيرة، وأودعه سجنه وطلب فيه المال الكثير نظير تركه.

الأمير بغضب: الشقي اللعين، والله لئن أمكنني الله منه لأبطشنّ به بطشة جبار عنيد، ولكن لا بأس «إن غدًا لناظره قريب»، أرسلوا إليه وافتدوه، فليس مثل ابن أضحى من يُترك هكذا أسيرًا.

عبد الرحمن بن شهيد: سنفعل يا مولاي.

وبينما يتحدّث الأمير مع وزيريه وحاجبه، إذ بأحد الحراس يدخل وينحني أمام الأمير، ويقول:

فارس من إشبيلية يستأذن للدخول عليك يا سيدي ويلح في ذلك.

الأمير (بإشارة من يده): أدخله.

خرج الحارس ليدخل بعد دقائق وخلفه أحد الفرسان، وقد ظهرت عليه علامات التعب والإرهاق وما إن سلّم على الأمير حتى ناوله رسالة ثم ابتعد إلى الخلف.

فضّ الأمير الرسالة، فإذا بها «لقد تغلب إبراهيم بن حجاج على إشبيلية تغلبًا، ونصب لأحواز قرطبة منها حربًا وحربًا؛ وارتبط مع

ابن حفصون على العبث التام، واحتلال قرطبة».

ظهرت علامات الغضب على وجه الأمير فهبّ من مكانه، بعد أن أُسقط في يده وشعر بخيبة تدبيره، فقد كانت إشبيلية بيده عندما كان ابنه محمد عليها، أما وقد تركها محمد فقد تغلّب عليها الثوار وأخذوها، ثم نظر إلى وزيريه وقد قبض على يديه، وقال: لن يدوم ملك بني أمية وفي البلاد ثائر خارج اسمه عمر بن حفصون.

(٥)

ببشتر

أرخى الليل سدوله على ببشتر، وخلت معظم أزقّة المدينة الثائرة من المارة، وأطفئت الأنوار، وخفّ الضجيج، إلا في قصر المدينة حيث كانت الشموع والمصابيح متقدة والحياة مضطربة، والجواري هنا وهناك، منهنّ التي ترقص وبعضهنّ تنقر بالدف أو تضرب بالعود، وكؤوس الخمر تدندن، وضحكات مرتفعة تعانق المكان، والمكان يعجّ بالحضور، وفي أحد الأركان كان يجلس رجلٌ عار الرأس مسدول الشعر أزرق العينين، وحوله ثلّة من أصحابه، يقرعون كؤوس الخمر، وبينما هم كذلك ..إذ دخل أحد الحرّاس وفي يده صندوق خشبي، حتّى إذا كان بين يدي ذاك الرجل وضع الصندوق، فتوقف ابن حفصون عن الضحك ونظر إلى حامل الصندوق وقال له: ما هذا؟

الفارس: (بصوت جهوري) إنّه رأس (خير بن شاكر) يا سيدي، فقد أرسلني قائدكم بالبشارة بعدما أحكم قبضته على (إستجة) و(جيان) وضمّهم لمُلكِك.

برقت عينا عمر بن حفصون وأخذ نفسًا عميقًا، وبدت عليه علامات الفرح، ثم نهض من مكانه وبيده كأس الخمر فتجرّعها دفعة واحدة قبل أن يمسك برأس ابن شاكر ويحملق فيه، ويقول: لا أحد في هذه الجزيرة يملك خداع ابن حفصون أو حتّى هزيمته، أو يشاركه ملكه، لا مكان في هذه الجزيرة للأغبياء والحمقى، فأين أنت الآن أيها اللعين؟!

ثم قهقه طويلًا.. وقذف بالرأس بعيدًا، وأشار للفارس، فحمل الرأس، ثم قال: اجعلها على باب المدينة، ليعلم الجميع أنّ عمر بن حفصون هو سيد هذه الجزيرة بلا منازع.

انصرف الفارس، وساد الصمت المكان قبل أن يقول سليمان بن عمر بن حفصون: لكن يا أبي لماذا قتلته وقد خرج جيشنا ليعينه على قِتال جيش بني أمية؟

نظر عمر بن حفصون إلى ابنه، وقال: لم أطمئن له يومًا، فقد كان يضمر الغدر، ويظهر خلافه.

هزّ سليمان رأسه وعاد عمر بن حفصون للجلوس مرة أخرى، لتصب له إحدى الجواري كأس خمر، ليعاود الشراب وتعاود الجواري الرقص والغناء...حتّى إذا أثقلته الخمر قذف الكأس بعيدًا، وترك لنفسه العنان في الضحك، ورقص حتى أضناه التعب وصرعته الخمرة فنام في مكانه.

وفي الصباح ما كاد ابن حفصون أن يفتح عينيه حتّى وجد جعفر بن عمر يقول: سيدي الأمير لقد وصل إلى ببشتر الأمير محمد بن عبد الله الأموي.

فزع عمر بن حفصون وقام من فوره وكأنّ قارعة أصابته، وهو يقول: ماذا؟ ماذا تقول؟ وكيف وصل إلى هنا؟ وكم عدد جيشه؟ وكيف لم تلاحظه عيوننا؟!

جعفر: ليس معه جيش يا سيدي.

أظهر عمر التعجب وفتح عينيه ورفع حاجبه، وقال (باستنكار):

ماذا تعني بذلك؟ ..هل جاء يحاربنا وحده؟!

وقبل أن يجيب جعفر عن أسئلة أبيه، كان سليمان بن عمر قد دخل على أبيه أيضًا، وقال: يقول إنّه قدم إليك هاربًا يا مولاي، بعد أن فرّ من سجن أبيه.

تمتم ابن حفصون وأخذته المفاجأة، فالتزم الصمت للحظات ... قبل أن يأمر وبسرعة برفع صحائف الطعام وكؤوس الخمر التي تركها الخدم؛ خشية أن يوقظوه إن هم فعلوا، ثمّ تحرّك ودخل جناحه في القصر قبل أن يعود مرتديًا كامل زيّه، ويقول لسليمان: جهّز المكان لاستقبال الأمير الأموي، أما أنت يا جعفر فلتتبعني، وخرج من فوره للقاء الأمير محمد.

وكان الأمير لمّا يترك صهوة جواده بعد، لكن ما إن رأى ابن حفصون حتّى نزل من على ظهر الفرس، فتقدّم منه ابن حفصون

وقبّل يده، وبابتسامة كبيرة رحّب به قائلًا: أهلًا بالأمير ابن الأمراء، ومرحبًا بولي عهد المملكة ثم صافحه بشدة...

(بابتسامة متكلّفة) قال الأمير: أهلًا بك يا ابن حفصون.

ابن حفصون: هذا ولدي جعفر يا سيدي.

مدّ الأمير يده وصافح جعفر الذي بادر بتقبيل يد الأمير أسوة بأبيه.

ابن حفصون: يجب أن يكون قد بلغ بك التعب مبلغه.

الأمير محمد: أجل يا ابن حفصون فما نزلت من على صهوة جوادي مُذ تركت قرطبة.

أشار ابن حفصون للأمير بيده مُرَحِّبًا، وقال: تفضل يا سيدي، ثم أردف وقال متصنعًا التأثّر: لقد علمتُ بما كان، وإنّي لفي أسف من ذلك، إذ كيف ينجح الوشاة في الوقيعة بينك وبين الأمير عبد الله؟

الأمير: ما كان قد كان يا ابن حفصون، ولكن سيجعل الله بعد عسر يسرًا.

هز ابن حفصون رأسه ثم دخل الرجلان إلى القصر، والأمير محمد ينظر هنا وهناك، وما إن جلس حتّى قال: لقد شيّدت لنفسك مملكة هنا يا ابن حفصون.

ابن حفصون: في رعايتكم أيّها الأمير.

الأمير محمد: دعك من هذا يا ابن حفصون، فالجميع يعرف أنّك خارج علينا محارب لنا كاره لدولتنا.

ابن حفصون: بل أنا خارج على الاستبداد والظلم يا سيدي، وإلّا فما هو الذنب الذي جعل عاملكم في ريّة يضربني بالسياط حتى أوجعني؟ قال ذلك ثم صمت لحظة، قال بعدها: ولولا فعْلَته تلك ما خرجت عليكم، ولكنت اليوم أحد رجالكم... بَيْدَ أنه لاَ مجال لهذا الحديث الآن، فدعني أرحّب بالأمير ابن الأمراء فقد حللت أهلاً ووطئت سهلًا سيدي الأمير.

هزّ الأمير رأسه وقال: ربّما تعلم يا ابن حفصون سبب وجودي هنا اليوم.

ابن حفصون: ليس مثلي من يسألكم يا مولاي، فهي بلادكم وإنّما أنا تابع لكم.

الأمير: جئت إليك لأكون بعيدًا عن قرطبة، بعد أن سجنني والدي الأمير عبد الله، فهل تقبلني عندك؟

ابتسم ابن حفصون، وقال: بل اقبلنا عندك أنت يا سيدي، فإنّما نحن خدمك وخدم أبيك، والآن هيّا إلى الطعام، فلا بد أنّ الجوع قد بلغ منك مبلغه، وبعد الطعام يستريح الأمير في جناحه الخاص الذي أُعِدَّ له.

ابتسم الأمير وتحرّك ومعه ابن حفصون وتناولا الطعام، ومن ثَمّ ذهب الأمير ليستريح، بينما جلس ابن حفصون منتشيًا مغرورًا لا يكاد يصدّق نفسه، وهو يقول: لقد جاء الوقت الذي يلوذ بي بعض بني أمية...

سليمان: سيّدي كيف تقبل أن تظله وتحميه وقد كان منذ شهر فقط يستعد للهجوم عليك من إشبيلية بعد أن تولاها؟ والله كدت أن آمر الحرس فيقتلونه ويرسلون برأسه إلى أبيه.

اعتدل ابن حفصون في جلسته، وقال:

ليس في السياسة ثارات يا بني، ولكنّها المصالح التي تُحرّكنا والأهداف التي نتسارع عليها، ولو قتلتُ الأمير لأيقظتُ أسدًا عجوزًا كاد أن يهلك، وحينها لن يتركنا عبد الله بن محمد وقد قتلنا ابنه وولي عهده، بل سيترك الدنيا ليثأر منّا.

سليمان: إن كان الأمر كذلك، فأيّ مصلحة ترتجي في إيواء أمير مطرود من رحمة والده... ألا تخشى يا مولاي أن يستثير ذلك الفعل قلب والده في قرطبة فيرسل لنا الجيش تلو الجيش؟ أقصد إن لم نقتله، فلماذا نؤويه؟

ابن حفصون: هذا أمير أمويّ وولي عهد أبيه، وقد اشتعلت الأرض من تحت أقدام الأمير عبد الله، غير أنه لا أحد من بيته خرج عليه، فلو آويت أنا محمدًا ابنه وولي عهده، سيكون بذلك أول أمويّ يشقّ عصا الأمويين في الأندلس، ممّا يعني تفرّق كلمتهم وتقطّع أرحامهم والتعجيل بذهابهم، وحينها ستذهب ريحهم وينفرط عقدهم، ويصبحوا طعمة لنا، بل ولو طلب مني محمد أن أُمدّه بالجند لقتال أبيه لفعلت، فإن كان له النصر فالسبب جنودنا، وسهل علينا بعد ذلك السيطرة عليه، وإن كانت الهزيمة فيكفي أن يكون البيت الأموي قد وقع صريع خلافاته التي سأحسن الاستفادة منها..، أمّا عوراتنا التي سيدلّ عليها فليفعل، فلن يكون بأفضل من غيره، وهل تريد أن تقنعني أنّ الأمويين لم يرسلوا لنا الجواسيس تترا؟

سليمان: الأمير أدرى بالأمر.

عمر: أجل الأمير أخبر بالأمر، والآن اذهب ودعني وحدي، أريد أن أختلي بنفسي.

خرج سليمان وترك والده وحيدًا في إيوانه، وما إن خلا عمر بن حفصون بنفسه حتى ذهبت به ذاكرته إلى ذلك اليوم البعيد، عندما كان يتسكّع في أزقة (ريّة) وقد ظهرت عليه علامات عدم الاتزان، ومن ثمّ بدأ يضايق الفتيات، فيغمز لهذه ويحدّث تلك، ويكلّم هذه كلامًا لا يليق، حتّى ضجرت منه الكثيرات...

ولاحظ ذلك أحد رجال الشرطة، فاقترب منه ونهره، لكن ابن حفصون لم يرتدع فقد سلبته الخمر عقله، فلم يدر ماذا يفعل أو يحلّ به؟ فما كان من رجل الشرطة إلا أن اقتاده إلى والي المدينة الذي نهره وأمر بوضعه في السجن حتّى يفيق من سكرته.

مرّت ساعات استفاق بعدها ابن حفصون، ليجد نفسه في غيابات السجن، ومن ثَمّ راح يصرخ ويصرخ حتى أحدث جَلبة كبيرة، فما كان من أحد الحراس إلّا أن اقترب منه، وقال:

لماذا تصيح هكذا؟، ثكلتك أمك..

ابن حفصون (مستفسرًا): لماذا أنا هنا؟

بنظرة ساخرة قال الحارس: عمّا قريب تعلم، فلا ترفعنّ صوتك وإلّا عجّلت عقابك، ثم ارتدّ عن السجن، فعاد ابن حفصون للصراخ، فما كان من الحارس إلّا أن قال له: ألا تصمت؟ قطع الله لسانك...

ابن حفصون: لن أصمت حتّى أعلم سبب ما أنا فيه.

الحارس: تلك مصيبة أخرى، لقد أخذت الخمر عقلك، فما عدت تدري ماذا فعلت وماذا تفعل؟ أنت هنا بأمر الوالي ولا أظن إلّا أنّه سيقيم عليك حدّ الشرب.

ارتاع ابن حفصون وتلمّس جسده، وكأنّه يسمع أصوات السياط تقطعه فخاف وراح يرجو حارس السجن ويسترحمه.

الحارس: لا فائدة من هذا يا ابن حفصون.. فلا تتذلّل .. فالأمر ليس بيدي.

بُهِتَ ابن حفصون وانتابه الرعب فجلس في أحد أركان السجن ينتظر ما سيؤول إليه مصيره، وبعد ساعات دخل عليه عدّة حراس، وأمسكوه، ثم خرجوا به إلى الساحة وأوثقوه إلى جذع شجرة، ثم أقاموا عليه حدّ الشرب، وتركوه في حالة يرثى لها.

لملم ابن حفصون نفسه بعد أن شعر بالمهانة بعد الذي حدث، وقال في نفسه: لقد ألحقت العار بأبيك ذي الوجاهة والأموال، فماذا سيكون منه إن هو علم بما حدث؟ وأقسم ألّا يمكث في تلك الديار التي تعرّض فيها لمثل هذا الذل والهوان، فأخذ بعض المال وابتاع فرسًا، وسار صوب الجنوب، ثمّ عبر البحر إلى (تاهرت)، وكان بها الكثير من أهل (ريّة)، فعمل عند رجل من الخياطين كان أصله من (ريّة) وكان يخيط عنده، محاولاً نسيان ما حدث له، وبينما هو جالس في حانوته ذات يوم، إذ أتاه شيخ عجوز كبير السن منحني الظهر أبيض شعر اللحية يرتدي عمامة، ومعه ثوب يخيطه، فقال الشيخ: السلام عليكم.

الخياط: وعليكم السلام يا سيدي.

الشيخ: لقد أتيتك بقطعة القماش هذه لتصنع منها ثوبًا يليق بي، على أن تنتهي منه اليوم.

في تعجب قال الخياط: لكن هذا سيكفلك الكثير من المال يا سيدي، إذ سيتوجّب عليّ ترك كل أعمالي من أجلك، وتأخير ثياب أخرى وتحمّل الكثير من توبيخ أصحابها لي.

الشيخ: لا عليك سأعطيك كلّ ما تطلب على ألّا أخرج من هنا إلّا مرتديًا جديد الثياب.

الخياط: على الرحب والسعة.

ثم قام الخياط وأحضر كرسيًا جلس عليه الشيخ، ومن ثَمّ تابع الخياط عمله وابن حفصون ملتزم الصمت.

نظر الشيخ إلى ابن حفصون وقال للخياط: أرى عندك اليوم فتى جديدًا، فبكم اشتريته؟

الخياط: لا يا سيدي إنّه أجير وليس عبد.

تأوّه الشيخ ونظر إلى ابن حفصون مليًّا، وقال: ملامحك أيّها الفتى لا تدلّ على أنّك من أهل المغرب.

ابن حفصون: أجل يا سيدي فأنا لست منهم.

حدّق الشيخ في وجه ابن حفصون وجال ببصره وكأنه يرى شيئًا لا يراه غيره، ثمّ قال: حدّثني أيّها الفتى من أين أنت، ولمَ تركت بلادك والتحقت بنا؟

تنهّد ابن حفصون وبدأ يقصّ على الشيخ قصته، حتّى إذا انتهى منها التفت إليه الشيخ وقال: متى عهدك بريّة؟

ابن حفصون: منذ أربعين يومًا.

هزّ الشيخ رأسه وقال: هل تعرف جبل ببشتر؟

ابن حفصون: بلى يا سيدي فدارنا عند أصله.

الشيخ: هل فيه حركة؟

ابن حفصون: لا.

الشيخ: هل تعرف فيما يجاوره رجل يقال له (عمر بن حفصون)؟

توجّس ابن حفصون خيفة، وبصوت متردّد قال: إنّه أنا.

برقت عينا الشيخ وقال: يا منحوس! تحارب الفقر بالإبرة، ارجع إلى بلدك فأنت صاحب بني أميّة، وسَيَلْقَوْنَ منك غيًا وستملك ملكًا عظيمًا، ولن ينزلك من جبلك هذا غير الموت.

اختلطت مشاعر ابن حفصون وتداركته الحيرة، فلم يدرِ ماذا سيفعل وبعد لحظات تهلّلتْ أساريره وانفرجت ثناياه عن ابتسامة كبيرة متعجبة، فنهره الشيخ، وقال: تحرّك الآن قبل أن ينتشر خبرك، فيحيط بك (بنو اليقظان) فيلقون القبض عليك ويسلمونك لبني أمية فهم أتباع لهم.

هبّ ابن حفصون واقفًا متحيرًا، فنهض له الخياط وربّت على كتفه، ثمّ أعطاه بضع دراهم نظير عمله معه، وقال له: اذكر ما بيننا يا ابن حفصون إن صِرْتَ إلى ما كُتب لك.

ابن حفصون: لن أنسى فضلك.

ثمّ احتضن الخياط، وأخذ تلك الدراهم وخرج لا يلوي على أحد، ثمّ ابتاع خبزتين من الخباز وألقاهما في كمّه، وخرج صوب الأندلس- وهو متوجس خيفة- حتى إذا وصل (ريّة) لم يقدر على أن يُظهر لأبيه ما بداخله، إذ كان الأب شديدًا عليه، فأتى عمّه وأعلمه بما قاله الشيخ له فردّ العم وقال له: عسى أن تكون كذلك، فانهض من فورك وتعجّل، ولا تبيتنّ اليوم إلّا على سفح جبل ببشتر.

(٦)

شعر الأمير المطرّف أنّ سعده قد اقترب، وحظّه قد ناداه، فقال في نفسه: يجب أن أحسن استغلال الوضع الجديد، وها هو محمد قد منحك الفرصة التي لن تعوض...، ثمّ قرّر التوجه إلى (قصر قرطبة)، واستأذن للمثول بين يدي الأمير، وما إن دخل عليه حتّى قال: لقد صدق حدسي وصحّت معلوماتي التي أخبرتك بها يا سيدي، وها هو محمد يقدّم لك الدليل على خيانته... إنّه يستعجل أمره بعدما أوليته يا سيدي ولاية العهد، حتّى إذا شعر بافتضاح أمره جاهر بذلك وفرّ إلى صاحبه في جبال ببشتر -غير ملويٍّ على شيء- معلنًا العصيان، واضعًا يده في يد ابن حفصون، وما كان يُحاك في الخفاء أصبح معلومًا في كلّ الأندلس.

زفر الأمير عبد الله بقوة وأشار بيده للمطرف أن يتوقّف، وقال: لا تنفث في النار يا مطرف. ألن تكف عن إيغار صدري على أخيك؟

المطرف: أنا لا أوغر صدرك يا سيدي... ولكن أخشى أن يأتي اليوم الذي يتحارب فيه الأمير مع ولي عهده... ثمّ تقدّم المطرف صوب كرسي الأمير (باهتمام مصطنع) وقال:

إنّما أقدّم أبي على من دونه، بل أقدّمك يا سيدي على نفسي وولدي، وها هو الدليل على صدق قولي، فلولا سابق عهده مع الشقي ابن حفصون ما فرّ من سجنك إليه.

الأمير عبد الله: وربّما فرّ إليه؛ لأنّه الوحيد الذي يستطيع الآن حمايته.

المطرف: لقد كان الأولى به يا سيدي أن يفرّ إلى عدوة المغرب، بدلًا من أن يقدّم لابن حفصون ما قدّم، ووالله يكفي ابن حفصون من الآن أن يقول لدي ولي العهد وأمير أموي هو محمد بن عبد الله.

رفع الأمير كفّه وقال: كفى يا مطرف لا أريد سماع المزيد.

المطرف: أمرك سيدي.

انصرف المطرف من حضرة الأمير مغتبطًا، وهو لا يشكّ لحظة في نجاح مسعاه، وراح يقول: حتّى وإن طلب الأمير منّي الصمت إلّا أنّه -قطعًا- سيتدبّر الأمر ويفكّر فيه، وعمّا قريب أكون أنا ولي العهد.

أمّا الأمير عبد الله فقد أصابه الهم والحزن، فتحرّك صوب النافذة وأمسك بالستارة وتنهّد تنهيدة طويلة... وراح يحدّث نفسه: لقد تقطّعت أوصال المملكة، فالشقي ابن حفصون في ببشتر وعبد الملك الجيليقي في بطليوس وبنو قسي في الثغر الشمالي، وبنو ذي النون في طليطلة، وسوّار بن حمدون في حصن منت شاقر، وإبراهيم

بن حجاج على إشبيلية ودبسم بن إسحق على مدينتي لورقة ومرسية وعبيد الله بن أمية على كورة جيان، وعبد الملك بن أبي الجواد اقتعد مدينة باجة وملكها، وتحصّن بحصن مارتلة محمد بن عبد الكريم بن إلياس، وامتنع بقلعة ورد من كورة شذونة سعيد بن هذيل. وسعيد بن مستنة في كورة باغة، وإسحق بن إبراهيم بن عطاف العقيلي في حصن منتيشة، وبكر بن يحيى بن بكر في مدينة شنت مرية، وثار سليمان بن محمد بن عبد الملك الشذوني في شريش شذونة، وثار أبو يحيى التجيبيُّ المعروف بالأنقر في مدينة سرقسطة وأعمالها... (بإحباط شديد وتنهيدة طويلة) آاااه يا عبد الله لقد ثقلت التركة، وكادت أن تقصم ظهرك ... (وبحزن شديد) تابع قائلًا: حتّى أولادك خرجوا على طاعتك وذهبوا إلى عدوك...

وبينما هو كذلك -واجم حزين- إذ بالوزير (عبد الملك بن عبد الله بن أمية) يستأذن بالدخول عليه، وما إن دخل حتّى تحرّك الأمير صوب كرسيه وأشار للوزير، فجلس بالقرب منه.

عبد الملك: مالي أراك واجمًا يا سيدي؟

الأمير: لقد فرّ محمد من سجنه وذهب إلى ببشتر، فكيف لا أحزن؟!

عبد الملك: علمت ذلك وحزنت عليه يا سيدي ولكن... تلجلج عبد الملك ولم يكمل حديثه فنظر إليه الأمير، وقال: لكن ماذا يا عبد الملك؟

عبد الملك: والله يا سيدي لم نعرف عن الأمير محمد إلّا كل إخلاص ووفاء لك، وظنّي أنّه ما فرّ إلّا خوفًا من بطشك، فلو راسلته

وطمأنته فحتمًا سيعود، ويتمّ بذلك رأب هذا الصدع في البيت الأموي، قبل أن يتدخّل الخصوم ويوغرون صدر الأمير على أبيه وتكون فتنة كبيرة، وقد علم مولاي بخروج العصاة هنا وهناك، والبلاد لا تحتمل المزيد ولا تحتمل أن يصل الصدع إلى بيت الحكم.

تنهّد الأمير، ثمّ قال: صدقت يا عبد الملك، يجب رأب الصدع قبل أن يستفحل خطره، فنعم الرأي ما قدّمت.

عبد الملك (مستفسرًا): هل ستراسله يا سيدي؟

الأمير: أجل فاكتب إليه.

أمسك الوزير بورقة ودواة ونظر إلى الأمير الذي قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

من الإمام عبد الله أمير الأندلس إلى ابنه محمد، أمّا بعد...

«بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان» كيف تفرّ من حوزة أبيك وتلحق بمن خرج عليه وناوأه؟ ارجع ولك الأمان، ولا تجعل للشيطان عليك سبيلًا.

(٧)

وصلت الرسالة إلى الأمي محمد في ببشتر، فوافقت هواه، فحمد ربّه بعد أيّام قضاها في ببشتر نزيلًا عند ابن حفصون...

تنفّس محمد الصعداء وتبدّلت أحواله، وبعد يومين راح يعدّ العدّة للرحيل، وبينما هو كذلك إذ نما الخبر إلى ابن حفصون، فأراد أن يستوثق من الأمر، إذ لم يخبره محمد بما كان، فذهب إلى جناح الأمير محمد في القصر، وقال: كيف حال الأمير؟

الأمير محمد: في أفضل حال والحمد لله.

ابن حفصون: ما رأيك يا سيدي في رحلة قنص وصيد؟ فقد تاقت نفسي لذلك.

(بابتسامة هادئة) قال محمد: كنت أودّ ذلك غير أنّي لن أستطيع يا ابن حفصون.

ابن حفصون: لمَ يا سيدي؟

الأمير مبتسمًا: كنت أنوي إخبارك، ولولا قدومك لأتيتك بعد قليل، فقد وصلتني رسالة من الأمير عبد الله يطلب منّي العودة إلى قرطبة.

ابن حفصون (مستهجنًا): قرطبة!

الأمير: أجل قرطبة.

ابن حفصون: لكن ألا تخشى على نفسك يا سيدي؟

الأمير: لقد وعدني أبي بالأمان، وما أظنّه يحنث بكلمة قالها، وقد اشتقت إلى أهلي في قرطبة، صمت الأمير لحظة، قال بعدها: لقد انقطعت الأخبار عنّي هنا في ببشتر، ولم أعد أدري ما حدث هناك، حتى جاريتي لا أعلم إن كانت قد وضعت حملها أم لا، فدعني أخرج يا ابن حفصون فقد كفّيت ووفّيت...

ابن حفصون: لا أستطيع منعك من ذلك يا مولاي، وإن كنت قد أَلِفْتُ وجودك بيننا.

ابتسم الأمير محمد ووضع يديْه على كتفي ابن حفصون، وقال: وأنا أيضًا أحببت ببشتر، ولكن لا أستطيع الإبطاء على الأمير، فلا أريد أن تزداد الوحشة بيني وبينه إن تأخّرت في تلبية ندائه.

ابن حفصون: ولا نحن نريد غضبه يا سيدي، فامض راشدًا، وعسى يا مولاي أن تكون رسول سلام بيني وبين الأمير في قادم الأيام.

الأمير محمد: قطعًا يا ابن حفصون، وثِق أنّي لن أنسى جميل صنعك معي.

وبأحضان حارة ودّع الأمير (محمد) ابنَ حفصون، ومن ثم انطلق إلى قرطبة يحدوه الشوق لبيته وأهله وتسبقه اللهفة في رؤية جاريته (مزنة) التي أثقلها حملها.

كانت كل خطوة يخطوها الفرس، تقرّب محمدًا من قرطبة وتبعده عن ببشتر، ويزداد معها تدفّق الدماء إلى قلبه الولهان؛ فيزداد نبضه، ويزداد محمد فرحًا، وهو يفكّر في اللقاء المنتظر، ولا يشكّ لحظة في صدق نوايا والده، لذا فقد قرَّرَ نسيان ما كان من أخيه وأبيه، فعفا الله عمّا سلف.. فمهما يكن، فعبد الله أبوه والمطرف أخوه، ثمّ راح يرتّب لدخول قرطبة، وقررّ أن يلتقي أباه أولًا، ويقبّل يده ويطلب عفوه ورضاه، ثمّ يذهب إلى قصره وجاريته مزنة، فيكفكف دموعها، ويعوضّها أيّام غيابه وخوفها، ثمّ قال في نفسه: ترى يا مزنة هل وضَعْتِ حَمْلَكِ أم سيكتب الله لي أن أكون أول من يحمله على كفه؟ وإن كنتِ قد وضعت حملك فهل هو صبي أم جارية؟

تحرّك الحصان في سهول ووديان الأندلس في المسافة بين قرطبة وببشتر، ومرّ الوقت جميلًا على محمد، حتّى إذا جنّ الليل وانتصف لم يدرِ الأمير حتّى توقّف الفرس أمام القصر، وكأنّه اشتاق- أيضًا- إليه، وإذ بالأمير محمد يحدّث نفسه: لا بدّ أنّ الأمير عبد الله يغطّ في سبات عميق، فلا داعي لأن تزعجه الآن يا محمد، ولتدعه لنومه وتذهب أنت إلى مزنة، فقد بلغ الشوق منك مبلغه، فتطمئنّ عليها وترتّب أفكارك، وفي الصباح تمثل بين يدي والدك، تقبّل يده وتسترضيه...

(٨)

لم يصدّق الأمير محمد نفسه وهو والج في دهليز قصره، ولسان حاله يقول: هل حقًا أنا هنا مرة أخرى؟ كان يفتقد لكلّ ما هو في القصر، ولكن افتقاده لمزنة كان أعظم، لذا حثّ السير وتسارعت خطواته، بل لولا الخدم والموالي لهرول إلى جناحها، لكنّ رسوم الإمارة منعته من ذلك، فتحرّك ببطء مع تسارع نبضات قلبه، وتقدّم الموالي صوبه فرحين بعودته ورؤيته مجددًا يتسابقون لإلقاء التحية عليه، وهو يبادلهم مشاعرهم الجميلة.

أمّا مزنة فما إن عرفَتْ بخبر وصوله، حتّى غادرت غرفتها وتحرّكت رغم ثقل حملها علّها تستعجل اللقاء وتخالطه الأنفاس، فالتقته في بهو القصر القريب من غرفتها، وما إن التقت عيناها بعينيه حتّى

انهارت وانهمرت دموعها فرحًا بقدومه، وبادلها محمد هذا الحب واللهفة الكبيرة والشوق العظيم، فتقدّم إليها واحتضنها بقوة وشوق عميق، فانتشت روحها وسكنت الطمأنينة قلبها ثم أخذ بيدها ودخل بها إلى غرفتها بعيدًا عن أنظار الخدم والحشم والجواري، فهوت على يديه تقبلهما، ثم نظرت في عينيه وأخذت تتلمس وجهه براحتيها وأناملها، وهي لا تكاد تصدّق عينيْها، ثم قالت : لا أكاد أصدق عينيّ؟ .. أأنت هنا؟

وضع محمد يده على شعر مزنة الأشقر الجميل وقال (بلهجة حانية): بل صدقيهما....... ألهذه الدرجة أتعبك الشوق يا حبيبتي؟

مزنة وهي تبكي: ليس شوقًا يا سيدي، فالشوق يسكن باللقاء، وإنّما هو الاشتياق الذي لا يسكن باللقاء، بل يزيد ويتضاعف.

محمد: لا يجب لهذه الدموع الغالية أن تظلّ هكذا، فبالله عليك أمسكي عليك دموعك.

مسحت مزنة دموعها قبل أن تنظر إلى محمد، وتقول: إنّما تذكرت أيامًا خَلَتْ، فخشيت أن تتكرَّرَ، وأنا لا أحتمل الفراق مرّة أخرى يا سيدي.

محمد: لن يكتب الله الفراق على قلبي وقلبك مرة أخرى، فهوّني عليك يا حبيبتي، واعلمي أنّه لولاك ما عدت إلى قرطبة، إذ ما زلت لا آمن مكر أخي المطرف.

مزنة: وماذا نفعل وقد حال والدك الأمير بيننا وبينك؟ فمنع خروجنا من قرطبة إليك في إشبيلية أولًا، ثم في ببشتر ثانيًا.

نظر محمد يمينه وأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول: عسى الله أن يجعل لي عند والدي مخرجًا.

مزنة: ألن تلتقيه اليوم يا سيدي؟ فإنّي أخشى إن علم بوجودك وسيعلم، أن يظنّ بك الظنون.

محمد: لقد تأخّر الوقت كثيرًا، ولا أظنّ الأمير إلّا نائمًا، فدعيني أبثّك أشواقي وحبّي، على أن ألتقي به بُعيد صلاة الفجر، فهو كما تعلمين لا يتركها أبدًا...

وكعادته استيقظ الأمير (عبد الله) فجرًا، ثمّ توضّأ وخرج من قصره، ليمرّ في السباط الرابط بين المسجد والقصر، وقد كان المسجد دائمًا ما يكتظّ بالمصلين، وقد كانت دروس العلم فيه تبدأ بعد صلاة الفجر، لذا فقد اعتاد الطلاب أن يؤدّوا صلاتهم فيه، وما إن انتهى من صلاته حتّى خرج من المسجد عائدًا إلى قصره، وإذ بحاجبه (عبد الرحمن بن شهيد) الذي كان يرافقه دومًا، يتقدّم نحوه ويسلّم عليه، ويقول: لقد وصل الأمير محمد يا سيدي.

(باستنكار وبعض الغضب قال الأمير عبد الله: وصل مممم؟ فأين هو؟

ابن شهيد: في قصره يا سيدي.

عبد الله : ما كنت أظنّ أن يذهب إلى قصره قبل أن يعودني!

ابن شهيد: ربّما لأنّه وصل قرطبة بعد منتصف الليل يا مولاي.

عبد الله: وإن يكن فما كان يجب عليه أن يفعل، ولكن لا بأس، إذ يجب علينا أن نعلم حقيقة ما دار بينه وبين عمر بن حفصون

خلال تلك الأيام، وما الذي دفعه للجوء إلى ابن حفصون وهو يعلم أن ببشتر قاعدة أهل الضلال والعناد؟!

ابن شهيد: هل نرسل إليه من يستعجله يا سيدي؟

عبد الله: لا حتّى ننظر نواياه ... صمت الأمير قليلًا، ثمّ استطرد، وقال: فور وصوله إلى هنا، خذه إلى (دار البنيقة) وضعه فيها، وراقب قصره جيدًا، فإن بدت منه حركة غير مألوفة سارع إلى إبلاغي.

رفع ابن شهيد حاجبه وقال في تعجّب كبير: هل ستسجنه يا سيدي؟

عبد الله: إلى حين يا ابن شهيد، على ألّا يتعرّض له أحد بسوء، فهو ابني وما زال وليّ عهدي، وقد أمَّنْتُه، ولكن نفعل ذلك الآن حتّى نتحقَّقَ، ونمتحن عين الحقيقة ونحقِّقَ فيما حدث خلال الأيام الفائتة...

ابن شهيد: أمرك سيدي.

انصرف ابن شهيد ليفعل ما أراده الأمير، وتابع عبد الله سيره حتّى دخل إلى ديوان حكمه، وهو ممتعض الوجه حزين لما يجري وإن كان بيده...

أمّا الأمير محمد فما إن وصل إلى قصر الرصافة حتى بادره الحرس وأخذوه إلى (دار البنيقة) حيث سجنوه هناك، وسط ذهول الأمير الذي ما شكّ أن يفُعل به هكذا، وكيف يحدث وقد أمَّنَهُ الأمير؟ ولماذا يحدث وقد عاد من ببشتر وقدّم الدليل على إخلاصه لأبيه؟ وقد كان قادرًا على أن يشقّ عصا الطاعة من هناك، وبمساعدة الشقي ابن حفصون ويفرّق الجماعة.

أمّا المطرف فقد طرب لما حدث لمحمد وانتعشت روحه مرة أخرى بعد يأسها، فلم يستطع أن يكتم فرحته بذلك، بل بادر إلى أبيه يهنِّئه بما صنع ويحرّض على أخيه، وكأنّ كلّ ما حدث لمحمد لم يكن كافيًا لإطفاء نار الغيرة في صدر المطرف، فذهب إلى القصر محاولًا أن يحمل أباه على صرف ولاية العهد عنه، ولكنّ الأمير عبد الله لم يُصغِ لابنه إلّا بقدر يسير.

أبرقت السماء وتناثرت قطرات المطر بهدوء ورقّة، تداعب أوراق الشجر لتغسلها وتظهر جمال لونها الأخضر، وتقاطرت المياه على الزجاج الملوّن لنافذة حجرة (مزنة) المضاءة بالمصابيح الزيتية، فنهضت مزنة من فراشها، وقد اشتعل الحنين في أوصالها أكثر فأكثر لمحمد وإلى أيّامها الأولى معه.. وراحت تحدّث نفسها وتقول: « أشعر أنّ الشتاء هذا العام سيكون قاسيًا، وباردًا كئيبًا، ثمّ لفّت يديها حول ساعديها وأكملت حديث نفسها: لكَمْ أفتقد قربك يا محمد، أفتقد حنان قلبك، أفتقد عناقك ليشعل نار الدفء في روحي المنهكة... ثم تنهّدت وأغمضت عينيها، وبدأت تدعو الله أن يفرّج همّه ويفكّ كربه».

مرّ الوقت ولم تتوقّف الأمطار ومزنة على حالها، لا هي فتحت عينيها ولا أنزلت يديها التي رفعتها للدعاء، فالدعاء مستجاب عند هطول المطر، حتّى إذا دخلت عليها وصيفتها (جواهر) ورأتها على حالتها تلك قالت لها:

هوِّني عليك يا سيدتي، إن جسدك المنهك بحاجة إلى الراحة والهدوء، فحملك قد ثقل، فاحفظي الأمير في نفسك وولده.

أَرْخَتْ مزنة يديها، وكفكفت دموعها ونظرت إلى وصيفتها وقالت: ومن يحفظ لي الأمير يا جواهر؟

جواهر: الذي أطلقه من سجنه أولّ مرة، قادر على فكّ أسره هذه المرة، فلن يدوم الحال ولن تدوم تلك الوحشة بين الأمير وابنه، ولن يخلف الأمير عبد الله وعده لولده، وعمّا قريب سيطلقه.

مزنة: لن يطلقه يا جواهر، فقد وقعت الوحشة، وقديمًا قالت العرب «المُلك عقيم».

جواهر: لا تيأسي من رحمة الله يا سيدتي.

مزنة: معاذ الله، ثمّ وضعت يدها على بطنها وقالت: لم تكد تفرح يا محمد بولاية العهد حتّى حقد عليك أخوك، ولم تكد تفرح بحملي حتى حملك الأمير على ولاية إشبيلية، فلمّا ثقل حملي واقترب وضعي، سجنك الأمير، وكأنّهم يبحثون لك عن أسباب التعاسة والحرمان، فليتك ما قبلت ولاية العهد، وليتك لم تخرج من دارك، وأنت يا ولدي، تُرى هل ستولد يتيمًا أم يكتب الله لك أمرًا آخر؟!

(٩)

شدّ الأمير عبد الله قوسه ورفعه عاليًا وأطلق السهم الذي أصاب قلب الطائر، فسقط على الأرض ليهرول خلفه أحدُ الجند ويمسك بالطائر وينتزع السهم منه ثمّ يرفعه عاليًا ليراه الأمير، فقال الوزير عبد الملك: رمية موفقة يا سيِّدي.

الأمير: وقد حان دورك يا ابن عبد اللّه، فأرنا رميتك.

عبد الملك (مجاملًا): لا أحد يحسن ما يفعله الأمير.

(قهقه الأمير) وقال: تحسن السياسة يا عبد الملك.

عبد الملك: إنّما أنا خادمكم يا سيدي.

(قهقه الأمير) وتحرّك ومعه الوزير وخلفهما ثلّة من الجند ليتنقلوا بين الأشجار بحثًا عن طائر أو غزال يقنصونه.

نظر الوزير عبد الملك، فلاحظ الراحة بادية على محيّا الأمير عبد اللّه، فأراد أن ينتهز تلك الفرصة التي قلّما أن تتكرّر، وخاصة أنّ خروج الأمير إلى الصيد لم يك من الأمور المعتادة لكثرة الفتن في البلاد، فقال له:

سيِّدي الأمير ألن تنظر في أمر ولدك وولي عهدك محمد؟

الأمير: بلى يا عبد الملك هو ولي عهدي، ولو أردت به شرًا لنزعته عن ولاية العهد.

عبد الملك: فلمَ يا سيدي يستمرّ سجنه؟

الأمير: حتى نتيقَّن ممّا حدث في ببشتر يا عبد الملك، وقريبًا يأتينا الخبر اليقين.

عبد الملك: لكن يا سيِّدي، لو سألته لأجابك عمّا كان بينه وبين ابن حفصون.

الأمير: أريد أن أعرف من عيوني قبل أن أسأله، فلا تستعجل الأمر.

عبد الملك: سيدي لقد زرتُ الأمير محمد في سجنه، وعلمت منه أنّ جاريته (مزنة) قد ثقل حملها والأمير محمد يقول لك: هذا المولود سيكون أولّ أحفادك، فهل سيخرج للدنيا ليجد أنّ السجن قد حال بينه وبين أبيه؟ وقد ثبتت براءة الأمير محمد، وقد أقسم يا مولاي أنّه يحبّك ويرجو رضاك لا شيء غير ذلك...

الأمير: لن يطول الأمر يا عبد الملك، فليصبر.

في داخل سوق قرطبة المزدحم بالمارة والبائعين، وعلى أحد جنبات السوق، وقف الفتى (ريّان) ينظر هنا وهناك.. كأنّه يترقّب شيئًا ما... حتّى إذا شاهد أحد الفرسان يدخل السوق تعلّقت أبصاره به، فبادله الفارس النظرات والاهتمام، حتّى إذا نزل الفارس من على صهوة جواده، أخرج ورقة من كمّه وأعطاها لريان الذي أعطى الفارس صرة من الدنانير الذهبية....... أخذ ريان الورقة وانطلق بعد أن أوصى الفارس بالانتباه... وما إن عاد ريّان إلى قصر الأمير المطرف، حتّى دخل عليه وقال (بنبرة تحريض) :

يوشك الوزير عبد الملك أن يفسد عليك أمرك يا سيدي.

المطرف: ماذا؟

ريّان: لقد تحصَّلْتُ اليوم من أحد رجالنا في القصر على ورقة فيها كل ما دار بين الأمير وبين وزيره عبد الملك.

المطرف: أرني إيّاها.

أخرج الفتى ريان ورقة من كمّه، وأعطاها للمطرف الذي ما كاد أن يفتحها حتّى انتابه غضب شديد، وتبدَّلَت ملامح وجهه، وبدأ القلق يساوره، والحنق على عبد الملك قد وصل به مبلغه، حتّى كاد أن يميز غضبًا، ثمّ صرخ بصوت عالٍ، وقال:

اللعنة عليك يا عبد الملك، اللعنة عليك يا محمد ... كنتُ أظنّ أنَّنِي قد تخلّصت منك إلى الأبد ولكن أبى هذا الـ... العبد الملك إلّا أن يرقِّقَ قلب أبي عليك... (عضّ على أسنانه) لا يا محمد لن أترك لك هذه الفرصة ولن تكون ولي عهد أبي وأنا حي وأحقّ بها منك.

(١٠)

كان الضجر والترقّب باديين على وجه ابن حفصون -وهو يجلس في قلعته الشهيرة في ببشتر- إذ لا يكاد يستقرّ له قرار، فتارة يجلس على كرسيه، وتارة يدور في مجلسه، وتارة أخرى ينظر من نافذة المجلس يترقّب القادم إليه، حتّى إذا أرهقه تفكيره حملته قدماه ليجلس واضعًا يده على خده ... مرّ وقت طويل عمَّ فيه الصمت أرجاء المكان، وفجأة سُمعت أصوات أقدام تقترب.

رفع ابن حفصون وجهه ونظر إلى باب المجلس، فإذا بولده سليمان يتقدّم نحوه، ويقول:

لقد تأكّد لنا الخبر يا سيدي.

نهض ابن حفصون من مكانه قبل أن يقول (بعزيمة وتصميم): لن نفوّت الفرصة هذه المرة وسنضربهم في عمق قوتهم ومكمن دولتهم.

سليمان (مستفسرًا): ماذا تعني يا سيِّدي؟

تحرّك ابن حفصون حول سليمان الثابت مكانه، وقال: لقد أبى الأمير عبد الله أن يرأب صدع بني أمية بسجنه لولي عهده، ما يعني تشتّت شمل بيت الحكم ووَهَنه، ناهيك عن تشتُّت أهل قرطبة بين ولائهم للأمير عبد الله وتعاطفهم مع ولي العهد! فلو تحرّكنا الآن وتقدمنا صوب قرطبة فستسقط في أيدينا، وحتّى لو لم تسقط فيكفي أن نُدخل الرعب في قلوب أهلها؛ فينفضّوا من حول بني أمية التعساء العاجزين عن حمايتهم، إذ لا يأمنون جوارهم، وقد اختلّ أمرهم واختلفت قلوبهم.

سليمان: صدقت يا أبي، فإن كان قد سجن ابنه، فمن الذي يأمن على نفسه في دولة بني أمية؟

ابن حفصون (بحماسة شديدة): يجب أن نضرب ضربتنا فورًا، ويجب أن تكون ضربتنا موجعة...

بدأ القلق يساور الأمير عبد الله، والهواجس تتملكه والحيرة تخنقه وتحاصره في مجلسه، فنهض من كرسيه وتحرّك صوب باب البهو، ليخفّ إليه أحد الحرّاس فيسأله الأمير قائلًا: هل من خبر حول ابن شهيد؟

الجندي: لا يا سيدي.

أشار الأمير إلى الحارس، فانصرف بينما راح الأمير ينظر إلى الفضاء المحيط بالقصر ويقول -بصوت لا يسمعه غيره-: لولا أمْرٌ دُبّرَ بليلٍ بين محمد وبين ابن حفصون ما تجرّأ الشقي علينا. قال ذلك، ثمّ عاد إلى بهوه ليجلس وحيدًا في انتظار جديد الأخبار، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه ابن شهيد مكفهرّ الوجه، وقال:

لقد استولى اللعين على حصن (بلاي)، ولم يكتف بذلك حتى روّع أهله، فهاموا على وجوههم، ثمّ سار إلى جيّان فعاث فيها وانتهب أموالها، وأذلّ أهلها، ونشر الذعر والفوضى في تلك الأنحاء.

الأمير: تالله لقد أصبح ابن حفصون كابوسًا يجب القضاء عليه، ولا أظنّه ينتهي حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

خفض ابن شهيد رأسه وقال: لم يبق يا سيدي إلّا أن يدخل علينا اللعين قرطبة.

اعتدل الأمير وقال: لا مناص من خروجي للقائه مهما كلّف الأمر.

ابن شهيد (مستنكرًا): وتخاطر بنفسك يا سيدي؟

الأمير: لا مناص من ذلك يا ابن شهيد، أم تريدني أن أنتظر هنا حتى يدخلها اللعين وجنده وينهار مُلك بني أمية في الأندلس... لا والله لن يخرج له غيري ولو كان في خروجي مماتي، فلا يقال جبن عبد الله عن اللقاء.

ابن شهيد: إذًا سأخرج معك يا سيدي.

الأمير: أَعْلِن النفير في الجند والناس، وليستعدّ الجميع للتحرك الفوري.

خرج ابن شهيد على عَجَلٍ ليعدّ الجيش، ويدعو المتطوعة للانضمام إليه، أمّا الأمير فقد قبض على سيفه والتزم الصمت، وجلس في بهو القصر، حتّى إذا حضر الأمير المطرف مرتديًا زيّه العسكري، قال له عبد الله: إلى أين يا مطرف؟

المطرف: لن تخرج وحدك يا سيدي فجميعنا فداء لك.

الأمير: لن يقود هذه الحرب أحد سواي، أمّا أنت فمكانك هنا في قرطبة لا تبرحها حتى أعود أو يحكم الله بيني وبين ابن حفصون، فاحرص على قرطبة وناسها واستوصِ بأخيك خيرًا.

هوى المطرف يقبل يد أبيه ويقول أمرك سيِّدي الأمير.

جمع ابن شهيد عشرين ألف مقاتل، خرج بهم الأمير عبد الله من قرطبة، وقد تعلّقت آمال أهلها به، بعد أن روعهم اقتراب ابن حفصون منها، واتّجه بهم صوب الجنوب إلى ناحية قبرة (Cabra) حيث حشد الثائر قوّاته في معقل (بلاي الحصين).

أمّا في داخل حصن بلاي من جهة قبرة، فقد وقف ابن حفصون بين جنوده وأهل قبرة، وهو يقول - مستحثًا همم الناس -: لطالما عنّفكم السلطان وانتزع منكم أموالكم وحمّلكم فوق طاقتكم، وأذلّكم العرب واستعبدوكم وأنا إنّما أريد أن أثأر لكم وأخرجكم من عبوديتكم، فهبّوا معي تفيض أموالكم وتشبعون بعد جوع وتأمنون بعد خوف ... لقد فسد الحال بهؤلاء الأمويين فلم يعودوا يصلحون لنا ولم نعد تابعين لهم، إنّما نحن تبّع لمن يرفع الظلم ويحمي الديار ويقوم بأمر الدين، أمّا هؤلاء فقد أنزلوا الظلم وحكموا بغير ما أنزل الله.

صمت أهل (قبرة) بينما سارع بعض الجند بالهتاف لابن حفصون، فما ملك باقي الجند إلّا أن هتفوا كأصحابهم، فانتعشت نفس ابن حفصون وشعر بقوته، فشهر سيفه ثمّ أردف بصوت مرتفع وقال مستنهضًا الهمم: استعدوا فقريبًا ندخل قرطبة نبدد عرشها ونرفع الظلم عن كل بلاد الأندلس، ثمّ أغمد سيفه ودخل إلى قصبة الحصن، فتبعه كبار رجاله ومعهم ابنه سليمان، وما إن جلس حتّى بدا التوتر واضحًا عليه، فبادره ابنه سائلًا: ما الأمر يا سيِّدي؟

ابن حفصون: إنّها نهاية دولة وبداية أخرى يا ولدي، فلا محيص من القلق والترقب، فالمهزوم اليوم مقتول والمنتصر اليوم هو سيّد الأندلس... إنّها الحرب الفارقة واليوم الموعود.

وبينما يتحدّث ابن حفصون وابنه، إذ دخل عليه رجلٌ طويل القامة أبيض الوجه، أشعث الشعر يحمل كِنَانَةَ النُّشَّابِ على ظهره فابتدره ابن حفصون، وقال: « هل عرفت شيئًا؟

الرامي أبو نصر: لقد جاءت الأخبار يا سيدي بخروج الأموي من قرطبة للقائنا.

ابن حفصون: كم عدد جيشه؟

الرامي أبو نصر: عشرون ألفًا أو يزيدون يا سيدي.

ارتسم البِشْر والترحاب على وجه ابن حفصون، ولمعت عيناه سرورًا وفرحًا، وقال: لقد انتهت دولة بني أميّة في الأندلس، وما هي إلّا أيّام حتّى أدخل قرطبة وعلى سنّ رمحي رأس عبد الله بن محمد.

سليمان: هل نستعدّ للهجوم يا سيدي؟

ابن حفصون: بل سنتحصّن هنا، بينما تخرج أنت بقطعة من الجيش ومعك أبو نصر، فتشنّ غارة على باب قرطبة، تروّع أهلها وتقتل جماعة منهم، فيخشون على أنفسهم وأموالهم، فيتقاعسون عن نصرة الأموي، إذ سيشعرون أنّ في خروجهم هلاكًا لأهلهم.

(11)

جلس المطرف مكان أبيه في قصر قرطبة، فاستشعر القوة، وراح يتحسَّسُ بيده كرسي العرش في سعادة غامرة، حتّى شعر أنّه الأمير، وأنّ الأندلس أصبحت بيده، فانتعشت روحه ولم تنقطع ابتسامته إلّا عندما دخل عليه خادمه (ريّان)، وقال في خبث: مكان يليق بالأمير لولا السجين.

أحسّ المطرف بالحسرة للحظات، وعضّ على أسنانه وراح يقبض بقوة على الكرسي بيده، ثمّ قال: لا فائدة ممّا أصنع، ولن يكون هذا العرش لي، فعمّا قريب يعود الأمير ليُطلق سراح محمد مرة أخرى، فيعود بعدها إلى الصدارة، ويتولى أمور الدولة ويتمّ تهميشي.

ريان(في دهاء): سيدي أنت الآن قائم مقام الأمير، فلو أمرت ستُطاع.

زادت خفقات قلب المطرف وزاغ بصره وجفّ ريقه وتسارعت أنفاسه والتزم الصمت بضع دقائق.. بعدما استشعر ما يرمي إليه خادمه، ثمّ قال:

أجل أنا الآن الأمير، أنا الآن أمير الأندلس.

بخبث ودهاء قال ريان: الآن فقط يا سيدي، لكن لو حدث مكروه للأمير -لا قدر الله- سيؤول الأمر إلى ولي عهده الأمير السجين محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط، أليس كذلك يا سيدي؟

ثم صبّ للمطرف كوبًا من ماء الورد وناوله لسيده الذي ارتشف منه قبل أن يقول: لكنّ الأمير سيعود وسيعزل محمدًا عن ولاية العهد فقد فسد ما بينهما.

اقترب ريان من مولاه وبصوت خفيض قال: لقد جاءت الأخبار يا سيدي بأنّ الثائر جمع أضعاف قوات الأمير، حتى بلغ جمعه أربعين ألف مقاتل، بينما لم يخرج مع الأمير سوى عشرين ألفًا أو يزيدون قليلًا، ما يعني يا سيدي أنّ الحرب محسومة مقدمًا.

(بصوت متهدج وصدر مضطرب) ردّ المطرف فقال: اذهب عنّي أيّها الشيطان، أريد أن أختلي بنفسي.

ريان (بابتسامة خبيثة): أمرك سيدي، ثمّ انحنى وخرج تاركًا خلفه ثورة تضطرم في صدر المطرف، ونارًا مشتعلة زادها هو بخبثه اشتعالًا، وقد كان ريان يحقد على الأمير محمد لشدته عليه وضربه له بالسياط أكثر من مرة من قبل.

تسمّر المطرف في مكانه لم يكد يفارقه، ومرّ وقت طويل وجنّ الليل والمطرف يردّد كلمات الصقلبي ريان في رأسه، وفجأة هبّ من مكانه وقال - وعيناه تبثان شرارًا-:

لا يا محمد لن أتركك تحوز ملك الأندلس وأنا على وجه الدنيا، ثمّ نهض من فوره وذهب على عجل إلى (دار البنيقة) وهو متقلّد سيفه، حتى إذا دخل السجن فتح له السجّان الباب، فاقترب من محمد الذي كان يجلس في أحد الأركان...... رفع محمد وجهه وقال: هل استرحت الآن يا مطرف؟

المطرف: لم يحدث بعد يا محمد، لم يحدث بعد يا ولي العهد.

محمد: أعلم سرّ حنقك علي، ولكن لتعلم أنّي لم أسعَ لهذا الأمر ولم أطلبه يومًا...

المطرف: ولكنّك الآن ولي العهد.

محمد: بأمر أبيك لا بإرادتي، ولا تنس يا مطرف فأنا الابن الأكبر، وولاية العهد إنّما تكون في أكبر الأبناء، ثمّ ما الذي يضيمك في هذا؟

المطرف: يضيمني أنَّني أحقّ منك بهذا المنصب.

محمد: هه، إذًا حدِّث الأميرَ بهذا الشأن، فإن رآك أهلًا لها، فربّما عزلني ووضعك مكاني.

المطرف: لقد خرج الأمير للقاء صديقك ابن حفصون... صديقك الذي تآمرت معه ضدّ بني أبيك.

تفجّر الغضب في صدر محمد، وبصوت غليظ -كأنّه نجيخ النهر الهائج- قال: لستُ أنا من يحيك المؤامرات يا مطرف ولستُ أنا من يعين على بني أميّة في الأندلس، فلا يغرنّك الشيطان فتنسى.

قهقه المطرف وقال: وماذا لو نسيت؟ هل ستعاقبني لأنّك ولي العهد؟

اقترب محمد من أخيه وقال: بل لأنّي أخوك الأكبر.

صمت المطرف بعض الوقت، خشي خلالها أن يضعف أمام محمد وتأخذه به رأفة، فأخرج خنجرًا من جيبه، وقال: لم تعد كذلك، لم تعد أخي الأكبر فقد انتهى أمرك، ثم بقر بخنجره بطن أخيه الذي تعلّق به، ولكن المطرف تركه فخارت قوى محمد وسقط على الأرض مضمخًا بدمائه قتيلًا بيد أخيه...

(١٣)

عند ضاحية (شقندة) عسكر الأمير عبد الله، وراح يضع الخطط لإنزال الهزيمة بالخارج عليه، وبينما هو كذلك بين قادته، إذ دخل عليه الفتى (بدر الصقلبي) وقد ظهرت عليه علامات التعب والإعياء، فتعجّب الأمير لمقدمه ونظر إليه، فخفض بدر رأسه واضعًا عينيه في الأرض، فما كان من الأمير إلّا أن قال: ما الذي جاء بك وقد تركتك في القصر؟

بدر: لقد قُتِل الأمير محمد في سجنه يا سيدي.

صعق الجميع ووقفوا مذهولين من هول الفاجعة، بينما تماسك الأمير وقال في ذهول (قُتل؟)

بدر: قتله الأمير المطرف يا سيدي.

الأمير محمد: ماذا؟ لقد بلغ السيل الزبى، بلغ السيل الزبى يا مطرف...

دارت الأرض بعبد الله، وشعر بعظم الفادحة، ففكّر في العودة إلى قرطبة، فمنعه وزراؤه، إذ قال له الحاجب ابن شهيد:

لو رجعنا يا سيدي ستحلّ بنا الكارثة، وسيحسن ابن حفصون استغلال ذلك، فترتفع روح جنده المعنويّة، فيزيد طغيانه، ويتجرأ أكثر علينا، وربّما يذيع بين جنده أنّك عدت إلى قرطبة خشية الهزيمة، ومن يدري لعلّه يهاجمنا قبل أن نصل قرطبة.

هزّ الأمير رأسه بعد أن اقتنع بحديث ابن شهيد، لكنّه -في نفس الوقت- أسرَّ الغدر بالمطرف وأقسم ألّا يغفر له.

وصدق حدس ابن شهيد، إذ لم يمر الكثير من الوقت حتى هاجمت قوة من جيش ابن حفصون أطراف معسكر الأمير، فاختلّ توازن المعسكر كلّه، ثمّ لم يكتفِ ابن حفصون بذلك، حتّى عمل بعض جنده على إحراق مخيم الأمير نفسه، ممّا أثار الرعب والفزع في قلوب الجند، لكنّ الأمير لم يهتز، وأظهر رباطة جأش، وزاد حنقه على ابن حفصون، وقرَّرَ ألّا يتركه ينام في حصنه مهما كلّف الأمر، بل وحمّله جزءًا من أسباب مقتل ابنه، فلو لم يهاجم قرطبة ما كان الأمير ليخرج ويترك ابنه سجينًا أسيرًا عند المطرف.

هاجم ابن حفصون معسكر الأمير بقوة، ثمّ ارتدّ، ودخل حصنه وأغلق عليه أبوابه، فعوّل الأمير على الحصار، وأمر بتطويق الحصن في الحال، فقام القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة بإحكام الحصار

على الحصن، وأعطى الأمير أوامره باقتحام الحصن في الصباح مهما كلّف الأمر.

ورغم عدده وعدّته وقواته فقد أُلقِيَ الرعب في قلب ابن حفصون، خصوصًا بعدما علم بمصرع الأمير محمد، فقال في نفسه: هذا رجل قاسي القلب، لم يحزن لمقتل ابنه أو يفك الحصار ليدفنه بنفسه.

ثمّ قرَّرَ - وبدون تفكير وبشكل عجيب - أن يفرّ من الحصن، وبالفعل تمكّن ابن حفصون من الهرب مع بعض أصحابه ليلًا، وفي الصباح دخل أصحاب الأمير الحصن فوجدوه خاليًا، إلّا من الأسلحة والذخائر، فحاز ذلك جند الأمير.

وما إن ابتعد ابن حفصون بجيشه، حتّى شعر بخيبة تدبيره، وشعر بنار تأكل صدره، وأن قرار الفرار كان خطأً جسيمًا، فقرَّرَ العودة ولقاء الأمير، خاصة بعدما استطاع تأليب أهل الحصون القريبة على الأمير، وهو لا يشكّ أبدًا في إنهاء الإمارة الأموية، بل وقتل الأمير عبد الله.

وهناك عند أطراف الحصن وقع اللقاء بين الفريقين على ضفاف نهير (الفوشكة) أحد فروع نهر (الوادي الكبير) على قيد مسافة قصيرة من حصن بلاي، وقاد جند الأندلس القائد عبيد الله بن محمد ابن أبي عبدة، وتولى ابن حفصون قيادة جنده بنفسه، ونجح فرسان الأندلس في هزيمة الجناح الأيمن للثوار وتمزيقه، فدبّ الذعر في باقي القوات الثائرة، وركنت إلى الفرار، وهرعت الخيل في آثارهم فقتلت كثيرًا منهم، وفرّ ابن حفصون في بعض قواته، بعد أن رأى عبث المقاومة، فارتدّ هو وصحبه إلى شعب الجبال الجنوبية، بعد

أن فقد معظم قواته، وقُتل من الثوار أثناء الموقعة وخلال المطاردة ألوف عدّة.

وقد كانت موقعة بلاي موقعة فاصلة في معنىً من المعاني، وفيها أصيب ابن حفصون بضربة أليمة لم يصب بمثلها من قبل، ولم ير الأمير مطاردة الثائر جنوبًا، ولكنّه آثر أن يزحف غربًا إلى إستجة التي كانت تدين بطاعته، فحاصرها أيامًا حتّى سلّمت، والتمس أهلها العفو والأمان.

وسار الأمير بعد ذلك في أثر ابن حفصون إلى ببشتر قاعدته الرئيسية، وكان الثائر قد التجأ إليها عقب الهزيمة، واجتمع إليه كثير من أنصاره من أهل الجزيرة، فعاث الأمير في تلك المنطقة، وجَبُنَ ابن حفصون ولم يخرج للقائه، ولكن حينما ارتدّ جيش الأندلس أدراجه، حاول مطاردته، واشتبك مع مؤخرته في معركة هُزم فيها، ورُدَّ على أعقابه، وعلى أثر هذه الغزوة الموفقة، اختار الأمير عبد الله قائده البطل (عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة) للوزارة، إثابة له وتكريمًا وعرفانًا لما أسداه إلى العرش وإلى الدولة ببراعته وبطولته...

(١٣)

ما إن عاد الأمير عبد الله من غزوته المظفرة، حتّى هاجمته الأحزان بقوة، وراح يتذكّر ابنه القتيل وكيف غُدر به، وكيف تركه أمانة عند أخيه فقتله، وبنصيحة من الوزراء تجاوز الأمير عن ابنه

المطرف حتّى تنام الفتنة، ولا ينتهزها الثوار والخارجين على بني أمية، ليقولوا قتل ابنيه، لذا لم يجد عبد الله مفرًا من الصمت على هذه الجريمة.

أمّا المطرف فقد برع في الإفك على أخيه، فدخل على أبيه وقبّل يده وحمد الله على سلامته وبحزن مصطنع قال -وهو يلبس جلد إخوة يوسف في البكاء على أخيهم-: لقد ثبت عليه يا سيدي اتصاله بابن حفصون وتآمره على ملك بني أمية، وقد أردت بقتله أن أنسب العمل لي، فلا يُقال قتل الأمير ابنه بعد أن أعطاه الأمان... (متصنعًا الكآبة والحزن) لقد ضربته بسيف -يا أبي- لم يقتله إلّا وقد قتلني، فأنا اليوم أشدّ الناس حزنًا على أخي، ثمّ اصطنع البكاء والأمير ينظر إليه ولا يصدقه.

وقد خشي الأمير على نفسه، فلم يُسَمّ وليًّا لعهده بعد محمد، إذ كان على يقين أنّه لو فعل وذهبت لغير المطرف لن يسكت المطرف، ولو جعلها له ربّما يغويه الشيطان فيقتل أباه كما قتل أخاه من قبل، فقرر أن يفعل كما فعل جده الكبير (عبد الرحمن الداخل) ويترك ولاية العهد شاغرة

وسط جو ملبّد بالأحزان مليء بالدموع والحسرات، وبياض قد ارتداه الكل في القصر، وضعت مزنة حملها، فكان المولود ذكرًا، وما إن خرجت القابلة حتّى دخلت عليها وصيفتها (جواهر) مبتسمة، وهي تقول:

بورك في المولود يا سيدتي.

ذرفت مزنة دمعًا سال من عينيها، وقالت: لكم تمنّى محمد أن يحمله بيديه، وكان يحدّث نفسه أنّي أحمل ذكرًا.

جواهر: رحمه الله يا سيدتي، على أن لا مجال للحزن الآن، وعسى الله أن يرزقك برّ ابنك ويكون خير خلف لخير سلف.

(وبغصة في قلبها كتمتها) قالت مزنة في نفسها: لا أحد يعوّض فقدك، ولا أحد يحلّ مكانك يا شقيق الروح.

أغمضت (مزنة) جفنيها، فقالت جواهر: سيدتي ألن نرسل لإخبار الأمير عبد الله؟

فتحت مزنة عينيها وقالت: وهل يهتمّ القاتل يا جواهر بابن قتيله؟

جواهر: لا تظلميه يا سيدتي، فقد علمت بشدّة حزنه على الأمير محمد وحسرته، وعلمت أنّه لم يكن ينوي قتله، ولكنه المطرف يا سيدتي.

مزنة: هو مَنْ قَتَلَهُ، لكن بيد المطرف لا بيده.

جواهر: لا يا سيدتي ليس هو، ولقد ندم يا سيدتي على تركه الأمير محمد أسيرًا عند أخيه، وما أظنّه يغفرها للمطرف.

مزنة (باستغراب): عجيب أمر هذا الإنسان! يظلم ويقتل ثم يبكي قتيله وينعاه، أليس الأمير عبد الله هو من سجن محمدًا وكان سجنه سببًا في قتله؟

جواهر: لا فائدة ترتجى من هذا الآن يا مولاتي، فلا يسمعنّك الأمير.

مزنة (بيأس شديد): حقًا لن يعيد البكاء ميتًا... والآن دعيني لأستريح.

همّت جواهر بترك سيدتها، ولكنّها تردَّدَتْ، فشعرت مزنة بما يدور في خلد وصيفتها، فقالت لها: (إن شئت أخبريه) فهو جدّه، وهو الأمير وسوف يعلم على كل حال، فافعلي الآن، فأنا غير مهتمة بالأمر. وبيأس أكملت: لم يعد يعنيني شيء في هذه الحياة يا جواهر، وسالت الدموع من عينيها، ثم قالت بحزن ويأس: لقد انطفأت روحي يا جواهر.

جواهر: لمَ تقولين هذا يا سيدتي، وقد منَّ الله عليك بولدك الآن؟!

مزنة (بنبرة ألم ومعاناة): تنطفئ أرواحنا بفقد من نحب!

جواهر: هوِّني عليك يا سيدتي، فصغيرك الآن بأمسّ الحاجة إليك، لأنْ تكونيَ سراجه في هذه الدنيا.

هزّت مزنة رأسها موافقة، ثمّ خرجت جواهر من غرفة مزنة، لتتّجه بشكل مباشر إلى قصر قرطبة، وهي تُمني نفسها بجائزة كبيرة، حتّى إذا التقت الحاجب ابن شهيد استأذنته في الدخول على الأمير، وما إن دخلت وألقت السلام على الأمير حتّى سألها: من أنت؟

ارتعدت جواهر خوفًا، ولكنّها تمالكت نفسها، وقالت بصوت متقطّع: أنا وصيفة سيدتي مزنة يا سيدي، وقد جئتك من قصرها بنبأ عظيم.

الأمير: ما هو؟

جواهر: لقد وُلد أول أحفادك يا سيدي، ذَكَرٌ في طلعة البدر ليلة اكتماله.

تهلّلت أسارير الأمير عبد الله وانفرجت ثناياه عن ابتسامة ملأت وجهه، ثمّ أمر لجواهر بمئة درهم نظير البشارة، كما أمرها أن تحضر الرضيع ليراه وليختر له ما يناسبه من الأسماء، وما إن أخذت الجارية المال وخرجت، حتّى انكب الأمير على وجهه يحمد الله أن وهب له ولدًا من ذرية محمد يحفظ اسمه ويعوضه أباه... وسارع ابن شهيد إلى تهنئة الأمير قائلًا: جعله الله عوضًا لأبيه يا سيدي.

الأمير: الحمد لله على نعمه يا ابن شهيد، وكأنّ الله ألقى إليّ برحمته ساعة دخول الجارية بالبشرى، ولأكوننّ للرضيع أبًا وجدًا.

وبينما يتحدّث الاثنان، إذ دخلت جواهر وعلى يدها الطفل الرضيع وتقدّمت به إلى الأمير الذي أخذه منها وضمّه برفق إلى صدره وطبع قبلة حارة على جبينه، ثمّ دقّقَ النظر فيه، وأذَّنَ بالصلاة في أذنيه، وما إن انتهى حتّى قال للجارية (خذي عبد الرحمن بن محمد) وأحسني رفقته، ولتنتقل أمه إلى هنا ليعيش حفيدي في كنف جدّه، ولأعوضنّه عن أبيه وليكون لي نعم الابن.

ابن شهيد: هل سيكون اسمه عبد الرحمن يا سيدي؟

الأمير: أجل، على اسم جدّه الأكبر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، الذي عاش يتيمًا ونشأ في كنف جدّه هشام بن عبد الملك رحمه الله.

ارتبكت جواهر من حديث الأمير وخشيت أن ترفض مزنة ترك قصرها، فقالت: أخشى يا سيدي ألّا تقوى أمّ الأمير على الانتقال إلى هنا الآن، وكذلك حال الوالدة حديثًا لا تستطيع ذلك.

الأمير: إن لم تكن تقوَ على القيام، فأرسلوا إليها من يعينها على ذلك.

لم تجد جواهر كلامًا تقوله، فانطلقت إلى قصر الأمير محمد، لتنتقل بعد ذلك مع مزنة والأمير الرضيع إلى قصر قرطبة الكبير، ليحيا الطفل ويترعرع في كنف جدّه وتحت رعايته.

ومع مرور الأيام زاد تعلّق الأمير بحفيده، فأصبح لا يخرج من القصر قبل أن يقبّله ويراه، وإن عاد فأوَّلُ شيء يفعله هو الذهاب بنفسه إلى جناح (مزنة) وتقبيل الطفل والسؤال عنه، وكان في كل مرة يرى فيها الطفل يبتسم له، ولكنّها ابتسامة تخفي وراءها حزنًا عميقًا، إذ كان الجدّ يشعر بالذنب حيال الرضيع، وكلّما شعر بالذنب أكثر زاد من غمر الطفل بحنانه، وزاد من رعايته لمزنة، التي رغم سعادتها بما فعله الأمير عبدالله وما قدمه من عناية لها ولابنها، إلّا أنّها كانت مضطربة خائفة معظم الوقت، فتارة تخشى على ابنها من الأمير المطرف خشية أن يفتك به، وتارة تخشى من تقلبات الأمير عبد الله، لذا فقد عاشت مزنة أول أيامها في القصر حياة ترقب وخوف وقلق، لم يكن يطمئنها سوى عطف الأمير وزيادة تعلّقه بحفيده...

الفصل الثاني

«لولا خونة الداخل ما تجرأ علينا عدو الخارج»

في شرقي جيليقية في القسم الأوسط من خليج بسكونية، وفي واد عميق أخضر تحيط به الرّبى والتلال، كانت مدينة (أوفييدو) عاصمة مملكة أستورياس (ASTURIAS)، تلك المدينة التي اتخذها (ألفونسو الثالث) عاصمة لملكه، بعدما نجح بشجاعته في تعزيز مملكته، مستغلًا ضعف الدولة الأموية في الأندلس واشتعال الفتن فيها، فقاتل ألفونسو المسلمين وحقَّقَ عددًا من الانتصارات، ونجح في احتلال بورتو وقلمرية، ثمّ شكّل حلفًا مع مملكة نافارا، عزَّزَه بمصاهرة لهم عن طريق زواجه من (خيمينا) ابنة غارسية إنيغيز ملك نافارا، كما زوّج أخته (ليوديغنديا) لأحد أمراء نافارا...

وفي قصره الحجري الكائن وسط المدينة، جلس (ألفونسو الثالث)، وعلى رأسه تاج الملك وحوله كبار دولته وأولاده الثلاثة (غارسية، أوردونيو، فرويلا)، وجميعهم عاري الرأس كعادة الفرنجة، إذ كانوا لا يرتدون العمائم مثل المسلمين، وراح ألفونسو يتحدّث إلى وزيره قائلًا: يجب الإسراع بإنشاء تلك السجلات...

نظر غارسية إلى والده، وقال: ولكن يا أبي.. ما فائدة تلك السجلات الآن؟

ألفونسو: إنّها الوسيلة الأكيدة التي سنثبت من خلالها أنَّنا الورثة الشرعيون لملكة القوط البائدة، فلا يستطيع أحد مشاركتنا فيما سنحوزه من بلاد المسلمين، ولا أحد يستطيع منازعتنا العرش.

الوزير: يا سيدي، إنّ الكتبة والمحققين يواصلون الليل والنهار لإنجاز ما أوكل إليهم.

ألفونسو وقد نفد صبره: لا أيّها الوزير، لن أصبر بعد اليوم، وإنّ أمامكم بضعة أيّام تنجزون فيها تلك السجلّات... أريد سجلّات تثبت أنّ مملكة أستورياس هي الوريث الشرعي لمملكة القوط الغربيين القديمة، أريد أن أحوز لقب الإمبراطور، فقد رتّبت لشراء (التاج الإمبراطوري) من (كاتدرائية تورز)، وهذا لن يتمّ بدون تلك السجلّات.

الوزير: لكن ماذا سنفعل في بضعة أيّام يا سيدي؟ فما زال أمامنا الكثير من المهام.

ألفونسو: ضاعف عدد الكتبة والباحثين، افعل أيّ شيء، المهم أن تسارع وتنجز العمل.

الوزير: يا سيدي، لم يبقَ في المملكة كلّها من يُحسن الكتابة والقراءة، فمن أين لي بالمزيد منهم؟! لقد فعلت كلّ ما بوسعي لهذا الأمر، حتّى استعنت في نهاية المطاف بالقسيسين والرهبان.

ألفونسو: اللعنة على الكتابة والقراءة وعليك أيّها الوزير...

وبينما هو كذلك، إذ دخل عليه أحد حراسه - مرتديًا زِيًّا يزيّنه صليب كبير في الصدر- وهو يقول: سيدي رسول من جبال (ببشتر) يحمل رسالة لجلالتكم.

تمتم ألفونسو وقال في تعجب: ببشتر! اجعله ينتظر.. وائتني بالرسالة دونه.

خرج الحارس ليعود بعد قليل وفي يده رسالة مكتوبة باللغة القشتالية، فما إن طالعها ألفونسو حتى تعجّب! وقال: يبدو أنّ صاحب تلك الرسالة يعرف لغتنا جيدًا، فلم يرد أن يجهدنا ويكتبها باللغة العربية، ثمّ طوى الرسالة.. وكانت أعين الحضور شاخصة إليه، الكلّ يريد أن يعرف أمر تلك الرسالة.

ارتسم البشر على وجه ألفونسو، وأخذ نفسًا عميقًا..، قال بعده: إنّها رسالة من عمر بن حفصون صاحب جبال ببشتر.

غارسية: عمر بن حفصون! هذا الخارج على قرطبة يا سيدي؟

ألفونسو يهزّ رأسه: أجل هو... ثمّ نهض ونزل من كرسيه وقال: يريد أن نتحالف معه، ونمدّه بقوات يستطيع بها أن يغزو قرطبة.

أردونيو: ربّما في الأمر حيلة، إذ لم يسبق لرجل منهم أن تحالف معنا ضدهم!

ألفونسو: أيّة حيلة يا أردونيو؟ وقد خرجت عن قرطبة كلّ بلاد الأندلس، ولم يبقَ لصاحب قرطبة سوى أحوازها فقط؟

طأطأ أردونيو رأسه وقال: الملك أخبر بأحوال الجزيرة ومن فيها.

غارسية: فهل يعني ذلك أنّك ستمد له يد العون يا سيدي؟

ألفونسو: ماذا ترى أنت يا غارسية؟

غارسية: إن كان كذلك.. فيجب أن نحسن استغلال الأمر يا مولاي.

ألفونسو: بالضبط وهذا ما سنفعله.

ثمّ عاد إلى كرسيه وقال: اكتب لابن حفصون يا غارسية، أننّا نوافق على التحالف، شريطة أن يصير تابعًا لنا، وأن يحكم باسمنا متى دخل قرطبة... ثمّ أردف وقال: وأرسلوا له ببعض الهدايا ... ثمّ التفت يمينه وقال: أمّا نحن فسيكون لنا من هذا الحلف مآرب أخرى...

وضُعت الخطة، وخرج فارس من جيليقية بأمر ألفونسو الثالث تجاه جبال ببشتر، ليُعلم ابن حفصون بها ويؤكّد على الحلف، وكانت الخطة تقتضي بأن يهاجم عمر بن حفصون المدن الواقعة تحت سيطرة الأمويين من الجنوب، فيخرج له جيش قرطبة، وفي تلك الأثناء يخرج جيش ألفونسو فيضرب في الشمال، فيتشتّت جيش الأمويين، ويسهل على ألفونسو اقتطاع جزء جديد من أرض الأندلس!

جهّز ألفونسو الجيش وحددّ هدفه، وقرَّرَ مباغتة مدينة (سمورة) القريبة من حدوده، البعيدة عن الحاضرة الأموية (قرطبة)، فخرج من (أوفييدو)، وخلفه جيش عطش لدماء كانت عزيزة وقلوب كانت مهابة، ونفوس كانت غالية بالوحدة، وبخّس ثمنها الخلاف والفتنة والتقاتل، وبعد مسيرة يوم وصل ألفونسو بجيشه إلى أبواب سمورة، فسارع أهلها بإغلاق أبوابها دونه، وكانت سمورة تقع فوق مرتفع صخري يشرف على ضفة نهر دويرة، فكان موقعها المنيع سببًا في ثقة أهلها بصعوبة اقتحامها، على أنّ معظم أهل سمورة كانوا من المزارعين الذين لا علاقة لهم بالحرب ومكائدها!

قرَّرَ ألفونسو أن يضرب الحصار على المدينة، خاصة مع ثقته استحالة إنجادها، فالأمويون منشغلون بعدوهم عمر بن حفصون، ولن يتحرّك الثوار لإنقاذها!

أحكم ألفونسو الحصار، ثم بثّ رجاله يقتلون وينهبون في القرى المجاورة للمدينة، بغرض بثّ الرعب وقطع كلّ أمل للمدينة في النجدة، لكنّ معظم تلك القرى كانت قد خلت من أهلها، فقتل جنوده من تبقّى منهم، وأخذوا النساء والصبيان سبايا وعبيدًا...

مرّت الأيام... ويئس أهل سمورة من وصول النجدات، وأيقنوا أن لا قبل لهم بمقارعة النصارى، فراسلوا ألفونسو، يعرضون عليه الاستسلام والأمان في أنفسهم وأموالهم، فرفض ألفونسو أن يجيبهم، فعادوا يعرضون عليه الخروج بأنفسهم فقط، فأبى عليهم إلّا الاستسلام من غير أيّة شروط! عندها لم يجد أهل سمورة مفرًا من النزول عند رغبة ملك أستورياس، الذي -ما إن استسلموا ودخل المدينة- أمر بوضع السيف فيهم، فأبادهم عن بكرة أبيهم إلّا من استطاع الفرار منهم، ثمّ أمر بتحويل مسجد سمورة الجامع إلى كنيسة.

وقد حصّن ألفونسو سمورة وأسكنها النصارى، واتخذها منذ ذلك الوقت قاعدة للإغارة على الأراضي الإسلامية المجاورة، ونجح في دفع حدود مملكته جنوبًا حتّى نهر دويرة، واختطّ هنالك عدّة قلاع منيعة، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية، واجتياح المسلمين العزّل بالنار والسيف، وقتل النساء والأطفال والشيوخ، ونهب الأموال والمتاع...

(٢)

هبّت نسمات الفجر عليلة على قرطبة، معلنة بداية يوم جديد، وصعد المؤذن أعلى منارة مسجد الداخل لينادي في الناس «الصلاة خير من النوم»، ليخرج الأمير من قصره إلى المسجد محاطًا ببعض الجند ليشهد الصلاة مع عوام الناس كما اعتاد على ذلك منذ سنين، فقد كان الأمير عبد الله من المحافظين على الصلاة بين الناس، لا يتركها أبدًا ولا ينشغل عنها، وبعد أن أتمّ صلاته نهض من مكانه وخرج من الباب المعدّ له، حتّى إذا بلغ القصر وجلس في البهو، دخل عليه الشاعر الفقيه (أبو عمر أحمد بن عبد ربه) فقال له:

ابن عبد ربه: السلام على مولاي الأمير.

الأمير: وعليك السلام ورحمة الله.

ابن عبد ربه: أأرسلت في طلبي يا سيدي؟

الأمير: بلى يا أبا عمر.

ثمّ أشار له بالجلوس، فجلس على يمين الأمير الذي استطرد قائلًا: تعلم يا ابن عبد ربه مكانتك عندي جيدًا، ولهذا فقد أوكلت إليك رعاية حفيدي (عبد الرحمن بن محمد)، فأَحْسِنْ تأديبه، وعلِّمْهُ شِعْرَ الحماسة وأنساب العرب، وأَثْقِلْ بالقرآن والحديث حجته ... وبنبرة حازمة أضاف الأمير: أريده أن يكون مثيلًا لجده عبد الرحمن بن معاوية، فشدّ عليه ولا تقل حفيد الأمير، واعلم أنّي لن أغفر لك تقصيرك، إن رأيتُ من عبد الرحمن ما لا أحبّ.

ابن عبد ربه: أدام الله عزّك سيدي الأمير، فهذا شرف لي أن أكون مُؤدِّب حفيد الأمير، وثقة منك عظيمة.

الأمير منشرحًا: إنّي لأتوسّم في عبد الرحمن خيرًا، فأعنّي على ذلك.

ابن عبد ربه: جعلني الله عند حسن ظنّك يا سيدي.

أمسك الأمير صرة من الدنانير، وأعطاها لابن عبد ربه قائلًا له: استعن بهذه على تأديب عبد الرحمن...

وبينما يتحدّث الأمير مع الشاعر والفقيه ابن عبد ربه، إذْ دخل عليه الوزير (عبد الملك بن عبد الله بن أمية) فألقى السلام، ثمّ أشار إليه الأمير فجلس بالقرب منه، ثمّ نادى الأمير على أحد الصقالبة، فأتاه بعبد الرحمن بن محمد، فقال الأمير مخاطبًا حفيده: يا أبا المطرف، اذهب مع معلمك ابن عبد ربه، فخذ عنه العلم واسمع له وأطِع.

أومأ عبد الرحمن مؤيدًا كلام جدّه، ومن ثَمّ قام ابن عبد ربه وأمسك بيده، وقال مخاطبًا الأمير عبد الله:

طِبْ خاطرًا يا سيدي واطمئن، ثمّ استأذن الأمير وانطلق آخذًا عبد الرحمن معه...

ما إن خرج ابن عبد ربّه.. حتّى قال الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية:

ألم يكن من الأفضل يا سيدي، لو ظلّ الأمير عبد الرحمن في القصر وأتاه ابن عبد ربه إلى هنا، فيعلمه على عينك، ولا يتعنّى الأمير مشقة الذهاب إلى ابن عبد ربّه يوميًا.

الأمير (مقطبًا وجهه): بئس ما ذكرت يا ابن عبد الله، فالعلم يُؤتى إليه ويُطلب ولا يُعطى، فلا يجب أن يتحرّك العالم المؤدّب من مكانه حتّى يأتيه من يطلب علمه وأدبه، ثمّ كيف يتعلّم مَن لا يطلب، ومن يرى نفسه في مكانة أكبر من معلمه؟!

عبد الملك مستدركًا: لقد أصاب الأمير وأخطأ الوزير.. فعذرًا يا سيدي، ما أردتُ إلّا الخير.

الأمير: لا بأس عليك يا عبد الملك، والآن دعنا من حديث عبد الرحمن، فقد أردتك لأمر آخر.

عبد الملك: أنا طوع أمرك يا سيدي.

الأمير -وقد بدا عليه الهم وبصوت متهدج-: لقد امتلأت البلاد بالفتن، وصار في كلّ جهة متغلّب يرى نفسه ملكًا مطاعًا، فقد انتزى أكثر أهل الأندلس واضطربت نواحيها بالثوار وتمالأ على أهل الإيمان حزب الشيطان، وتألّب على أهل الإسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جردّوا سيوفهم على أهل الإسلام، وانقطع بفتنتهم الجهاد إلى دار الحرب، حتّى استغلّ اللعين (ألفونسو الثالث) ملك أستورياس ذلك، وقذف بجنوده سمورة فامتلكها بعد أن قتل أهلها، وحوّل مسجدها إلى كنيسة، قتل أهلها وسبى نساءها، كلّ ذلك بسبب الخوارج الذين استهلكوا طاقة الجيش، حتّى تجرّأ علينا من تجرّأ في تلك الجزيرة.

عبد الملك: قاتلهم الله يا مولاي، أنا رهن بنانك، فارم بي عليهم، فوالله إنّي لأرى أنّ قتال هؤلاء الخوارج أولى من قتالَ النصارى، فلولاهم ما تجرّأ الشماليون علينا!

هزّ الأمير رأسه - موافقًا كلام عبد الملك - ثمّ قال: أجل يا عبد الملك فلولا خونة الداخل ما تجرّأ علينا عدوّ الخارج، والآن اذهب، فجهّز نفسك وجندك وانتظر أوامري.

نهض الوزير وخرج من حضرة الأمير، وبينما هو خارج إذ التقى الأمير المطرف فسلّم عليه ولكنّ المطرف نظر إليه شزرًا ولم يردّ عليه سلامه، إذ كان المطرف يحقد على الوزير بسبب حبّه لأخيه القتيل محمد... تابع الاثنان مسيرهما، الأوّل للخروج من القصر لإعداد الجيش والثاني للقاء الأمير، وما إن دخل المطرف على أبيه حتّى قال له:

الأمير: تجهّز يا مطرف للخروج مع الوزير عبد الملك إلى إشبيلية.

المطرف: لكن ماذا عن ابن حفصون يا سيدي؟ فقد بلغ به الأمر مبلغه، وها هو قد راسل بني العباس أعداءنا الخالدين ورفع رايتهم، كما كاتب والي إفريقية طالبًا منهُ المدد، وكأنّ اللعين لم يكتف بالتعاون مع ألفونسو الثالث حتّى ذهب يؤلّب علينا أعداء الداخل والخارج.

الأمير: أعلم ذلك وأعلم أنّ ابن الأغلب والي إفريقية لن يمدّ له يد العون نتيجة لما يحدث في ولايته من قلاقل.

المطرف: إذًا.. ألا نذهب إليه فهو أولى من إشبيلية؟

الأمير: بل إشبيلية أولى، فهي القريبة منّا، أمّا ابن حفصون فهو متربّص في جبال ببشتر، وحربه معنا ستطول، كما أنّي لا أريد لحلف أن يقوم بين إشبيلية وببشتر.

هزّ المطرف رأسه، ثمّ قال: لكن لماذا لا أخرج وحدي في هذه الغزوة؟

ولماذا الإصرار على خروج عبد الملك؟

الأمير: لا وقت الآن إلّا لمصلحة دولة بني أمية، فدع عنك ظنونك بالرجل، ولا تكثر الجدال فتغضبني.

المطرف: العفو يا مولاي لم أقصد الجدال. ثمّ قبّل المطرف يد أبيه واستأذنه وخرج من القصر ليتجهز للخروج على رأس الجيش برفقة الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية، أمّا الأمير عبد الله فقد دخل في تفكير عميق وراح يحدث نفسه: من كان يظنّ أن تُرفع الرايات السود في الأندلس مرة أخرى؟ متى تنتهي العداوة بيننا وبين بني العباس؟ متى يقتنعون أنّ الأندلس لن تكون يومًا لهم... حلف بين الشقي ابن حفصون وبين ألفونسو ملك جيليقية، ثمّ لم يكتف بذلك حتّى رفع الرايات السود وأعلن التبعية لبغداد، وكأنّ التاريخ يعيد نفسه، ولكن هنا في الغرب، هيهات يا ابن حفصون .. هيهات يا بني العباس...

(٣)

اعتاد الأمراء الأمويون عند الإعلان عن خروج الجيش للغزو، أن يظهر موكب الحرب للناس، فإذا تجمّع الجند في المكان المخصص، برز إليهم الأمير ليتفقد الجيش ويشرف على مدى استعداد أفراده، ويكون مرتديًا درعه ومتلثمًا ومتقلدًا سيفه، ممتطيًا جوادًا عتيقًا، وقوّاده قد تحلّقوا حوله، والأعلام والرايات تخفق فوق رأسه، فإذا لم يتمكن من قيادة الجيش بنفسه، اكتفى بالجلوس على السطح

فوق باب السدة، فإذا مرّ الجيش أمامه، رفع كفيه إلى السماء يدعو الله تعالى، أن يمنح الجيش التوفيق والنصر، ويستمر رافعًا يديه بالدعاء حتّى يغيب الجيش عن بيوت قرطبة، وبجانبه ولي عهده يفعل مثل فعله، ولأنّ الأمير عبد الله لن يخرج مع الجيش، فقد جلس فوق باب السدة وبجانبه جلس الأمير الصغير (عبد الرحمن بن محمد)، وما إن مرّ الجيش حتّى رفع الأمير يديه يدعو الله أن يمنح الجيش النصر، فرفع عبد الرحمن يديه وفعل كما فعل جده، والأمير المطرف يرى ذلك.. وقد اشتعلت النيران في صدره، إذ كان يرى أنّ عبد الرحمن قد أخذ الكثير من قلب وعطف أبيه، فزاده ذلك حنقًا وغضبًا، خاصة على الوزير (عبد الملك بن عبد الله بن أمية)، إذ كان يرى المطرف أنّه السبب الأول في عدم توليته العهد حتى الآن!

خرج جيش الإمارة من قرطبة، يقوده المطرف والوزير عبد الملك، وبسبب حقد المطرف على الوزير فقد أهمله طوال الرحلة تقريبًا وأخّره، واتفق أنّ المطرف اصطحب معه فتاه (ريان) الذي لاحظ ما بين الوزير والأمير، فاقترب بفرسه من فرس المطرف وقال بخبث:

سيدي الأمير مالي أراك تنظر شزرًا إلى القائد عبد الملك؟

المطرف: ابن اللخناء، ما زال رغم مرور السنين يؤلّب أبي عليّ، ويحاول صرف ولاية العهد عنّي.

ريان: ولكنّه لن يستطيع يا سيدي!

المطرف: لم يفعلها إلى الآن ولكن من يدري؟! ألم تشاهد الأمير وبجواره ابن أخي أعلى باب السدة؟

ريان: بلى يا مولاي، ولكن لم أرَ في هذا ما يلفت الانتباه، فقد اعتاد الأمير على اصطحاب ابن أخيكم في كل المناسبات.

المطرف: وهذا ما يقلقني يا ريان، وإلّا فلماذا لم يُسَمِّ أبي وليًا للعهد رغم فراغ المنصب منذ خمس سنوات أو يزيد؟!

ريان: لم يسمّك، ولكنّه- أيضًا- لم يرشح غيرك!

المطرف: لقد بدأ الشك يساورني.. وبدأت أتيقّن أنّه سيصرف الأمر عنّي.

ريان: لو أراد ذلك يا سيدي ما ولّاك قيادة أكبر جيوشه المتجهة صوب إشبيلية.

المطرف: أكبر جيوشه نعم، ولكنّه لم يجعلني القائد.. حتّى أخرج معي ألدّ أعدائي ليشاركني في أمري وينقل إليه أخباري، بينما يرسل أخي أبان وأخي عبد الرحمن لقمع الثورات بدون شريك أو وزير، ما يعني أنّه ربّما يعدّهم لما أخشاه، فإن وجد أبي من يساعده على ذلك فقطعًا سيفعل!

ريان: إن كان كذلك يا سيدي، فالأمير لا يأمن جانبك ولا يثق بك.

نزل المطرف من على صهوة جواده وأمر الجيش بأن يستريح، وقال لريان: وأنا أظن ذلك أيضًا، فقد ذهبت ثقة أبي عنّي عندما قدّم عليّ أخوي الصغيرين.

وبينما يتحدّث ريان والمطرف إذ بالوزير عبد الملك يهرول تجاه الأمير ويقول له: سيدي الأمير سنفقد عنصر المفاجأة حال توقفنا، فأرجوك يا سيدي أن نكمل المسير!

بلهجة حادة قال المطرف: تعلّم كيف تخاطب الأمراء يا ابن عبد الله، ولا تجادلني في أمر قطعته.

عبد الملك بانكسار: أمرك أيّها الأمير.

ثمّ تحرّك الوزير وهو يقول: « لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله».

وضع المطرف يده على خصره، ولم يتحدّث، بل ران الصمت على المكان إلّا من حمحمة الخيل... وفي الصباح تحرّك الجيش صوب إشبيلية وقد بيّت المطرف الغدر بالقائد عبد الملك بن أمية، حتّى إذا كان على مقربة من إشبيلية، قبض عليه وقتله، وقدّم على قيادة العسكر (أحمد بن هاشم)، وأقام العسكر في الموضع أربعة أيام، ثمّ كتب أمانًا لأهل (إشبيلية)، وأمانًا لأهل (شذونة)؛ بغرض تشتيت صفوفهم، فدانت له شذونة، وقبض جبايتها...

ثمّ رحل إلى إشبيلية، فناشبهم الحرب؛ فانهزم أهل إشبيلية، ووقع فيهم القتل إلى سور المدينة. ثمّ أجاز الوادي، فتتبع القرى بالنسف والتغيير. واستطاع المطرف القبض على إبراهيم بن حجاج وابن خلدون وابن عبد الملك الشذوني وزجّ بهم في السجن، وأوثقهم في الحديد.. وقطع لسان سحنون الكاتب، وضرب ظهره.

ثمّ أرسل إلى والده الأمير عبد الله رسالةً بالفتح، يبرِّرُ فيها تصرفه وفتكه بالقائد عبد الملك...

(٤)

كانت ملامح الغضب تسيطر على الأمير عبد الله وهو يقرأ رسالة ابنه المطرف، حتّى إذا انتهى من الرسالة طالع وجوه الوزراء وقال: لقد قَتَلَ المطرفُ الوزيرَ عبدَ الملك بن أمية!!

نزل الخبر على الوزراء نزول الصاعقة، فألجمهم الصمت، فنظر الأمير إلى وجوههم وقال لهم: لقد اشتطّ المطرف وأسرف في الخصومة والقتل، ثم نظر إلى ابن شهيد وقال: أخبرني يا ابن شهيد، فقد كنت أقرب الناس إلى عبد الملك، ما الذي حمل المطرف على قتله؟

ابن شهيد: وتعطيني الأمان يا سيدي؟

الأمير: لك الأمان.

تردّد ابن شهيد لحظات قال بعدها: والله يا سيدي ما وجدنا من عبد الملك إلا الإخلاص لبني أمية وللأمير، ولهذا قتله الأمير المطرف!

أطرق الأمير وصمت، وكأنّ كلمات ابن شهيد قد لامست شكًا بداخله، وكأنّه كان حائرًا فقطعت تلك الكلمات حيرته، وراح يتذكّر بعض أفعال المطرف وقتله لأخيه، فشعر أنّ المطرف إنّما قتل أخيه طمعًا في الأندلس، ثمّ قتل الوزير لنفس السبب، وإن هو وجد الفرصة لن يتردد في إزهاق روح أبيه، وقديمًا قالت العرب: « الملك عقيم ».

شعر ابن شهيد بالخوف واهتزّت أركانه ولم يكد يبلع ريقه، خاصة مع وجوم الأمير، وتوقّع الحضور أنّ أولّ كلمة سيقولها الأمير بعد صمته أن اقتلوا ابن شهيد، ولكنّ الأمير قطع شكوكهم حين أشار لهم آمرًا إيّاهم بالانصراف...

طال صمت الأمير وتسرّب إليه شعور الوحشة وبات يرتاب في الجميع، ولم يعد يأتمن أحدًا، وقرَّرَ في نفسه وأقسم ألّا يغفرها للمطرف، ثمّ لم يجد من يودعه سره وثقته غير حفيده عبد الرحمن بن محمد فأولاه عطفه، وبات لا يعقد مجلسًا للحُكم إلّا ويكون عبد الرحمن -رغم حداثة سنه- على يمينه والأقرب مجلسًا إليه.

وبعد أيّام عاد المطرف إلى قرطبة مستبشرًا بالنصر الذي حقَّقَه في إشبيلية، وهو يختال في نفسه، ولا يأبه لشيء، وقد ظنّ أنّ نصره في إشبيلية سيغفر له فعلته عند أبيه ويشفع له، وبات يعدّ نفسه ويمنيها بولاية العهد، لكن خاب تدبيره، وبمجرد وصوله إلى قصر قرطبة بادره الجند وقبضوا عليه، وفي الحال سيق المطرف إلى السجن، وهو يصرخ في حرسه ويتوعدّهم، لكن صريخه لم يطُل، إذ دخل عليه اثنان من الجند وأعملوا فيه السيف، ثم احتزّوا رأسه وأخذوه إلى الأمير الذي ما إن رأى الرأس حتّى بكى وقال: لقد حفرت قبرك بيدك يا مطرف، والآن يا محمد تطيب لي الحياة، فقد أخذت بثأرك وقتلت من ظلمك ويَتّمَ ولدك، الآن يا محمد سترقد مرتاحًا في قبرك، ثمّ أمر بدفن الرأس بعد جمعه بالجسد.

ودخل الأمير عبد الله في نوبة حزن كبيرة، وشعر أنّ جميع أهل الأندلس قد اجتمعوا ضده، فها هو ابنه وقائد جيشه المظفر يدبّر عليه، كما استراب عبد الله- أيضًا- بإخوته، وبطش بأخوين آخرين

له هما (هشام والقاسم ابنا محمد بن عبد الرحمن).. فأمّا هشام فأتاه بالتآمر عليه، فقبض عليه وقضى بإعدامه، وأمّا القاسم فقبض عليه وزجّ به في السجن، ثمّ دس عليه من قتله بالسم.. واعتقل كذلك بعضًا من أمراء بني أمية وأكابر رجال الدولة، وقتل بعضهم...

(٥)

تنصر ابن حفصون

في قصره الكائن بجبال ببشتر، جلس ابن حفصون وحيدًا يفكّر في أمره، فإذا به يقول في نفسه: ما الذي أخشاه الآن حتى أظلّ هكذا؟ لقد انهار ملك بني أمية ومعه دولتهم المزعومة في الأندلس، ولم يعد للمسلمين شوكة أخشاها أو حتّى منفعة من خلفهم، وها هو ألفونسو الثالث يضرب بقوة ويقتطع منهم القرى والحصون ولم يحرّكوا ساكنًا..!، ودولة الفاطميين في العدوة تعادي بني أمية وتنتظر الوثوب عليهم...ثمّ أمسك بكأس خمر وارتشف منه رشفة واسترخى على كرسيه...

وبينما هو كذلك إذ دخل عليه ابنه سليمان وقال: ما لي أرى الأمير شاردًا؟

رفع ابن حفصون حاجبيه وقال: أفكّر في أمر جلل، أمر سيبدّل حال تلك الجزيرة.

سليمان: أيّ أمر هذا الذي شغل مولاي لهذه الدرجة؟

نهض ابن حفصون من مجلسه وقال: أفكّر في الرجوع إلى دين آبائي وأجدادي!

بُهت سليمان وقال: لكنّ أمرًا كهذا سيجعل الكثير من القادة والجند ينفضّون من حولك يا سيدي...

ابن حفصون: أجل.. ولكن في المقابل سنحصل على تأييد قوي من (ألفونسو الثالث) ملك أستورياس، وأيضًا من ملك بنبلونة، ومن يدري فلعلّ البابا في روما يمدّ لنا يد العون، ولا تنسَ يا سليمان فكثير من النصارى المعاهدين سينضمون لنا وسيكونون أكثر إخلاصًا لنا من هؤلاء القادة المغفلين الذين تعنيهم.

سليمان: لكن يا سيدي، لمَ يفعلون؟ وحكومة قرطبة لا تضيّق عليهم وقد تركتهم منذ سنين يمارسون شعائر دينهم بكلّ تسامح وودّ.

ابن حفصون: هذا فقط لأنّهم مغلوبون على أمرهم.. أمّا لو وجدوا من يمدّ لهم يد العون فسيختلف الحال ويتبدّل، فهؤلاء يا سليمان كما نحن، لن يستكينوا لو وجدوا من يعينهم على أمرهم!

هزّ سليمان رأسه عجبًا وقال: مولاي الأمير أعلم منّي بذلك.

ربت ابن حفصون على كتف ابنه وقال: أمّا أنت فلتظلّ على إسلامك، فإن وقع ما نكره كنت أنت امتدادًا لنا وحرزًا لإخوتك.

وفي يوم الأحد التالي، تحرّك ابن حفصون صوب الكنيسة التي بناها في جبال ببشتر، وحوله ثلّة من رجاله ومجموعة كبيرة من

الجند النصارى الذين اختارهم بنفسه ليصحبوه في هذا اليوم، وما إن دخل الكنيسة حتّى اقترب من الكاهن ثمّ ركع أمامه، فوضع الثاني يده على رأسه بعدما علم بنيته وتمّ تعميد ابن حفصون وسط استبشار كبير من نصارى ببشتر...

وهكذا أظهر ابن حفصون النصرانية؛ وكان قبل ذلك يسرُّها، وانعقد مع أهل الشرك وباطنهم، ونفر عن أهل الإسلام ونابذهم؛ فتبرأ منّه خلق كثير، ووجدوا أنّ في قتاله جهادًا ونصرة للدين؛ فاتصلت عليه المغازي من ذلك الوقت، وتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتي.

ثمّ اتخذ له اسمًا نصرانيًّا هو (صمويل)، وكان أبوه قد فعل ذلك منذ أعوام، والحقيقة أنّ ابن حفصون لم يخلص للإسلام قطّ، وكان يسرُّ النصرانية دائمًا، ولم يمنعه من إعلانها سوى خوفه من تفرق أنصاره، وقد تحقَّقَ ما كان يخشاه إذ هجره كثير من أنصاره، وتبرأوا من فعلته، وخرج عليه بعض قوّاده المسلمين، وامتنعوا بحصونهم، وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير، واشتدّ السخط عليه في سائر جنبات الأندلس.

أمّا معظم النصارى المعاهدين وخاصة أهل قرطبة فقد شكّلوا كتلة واحدة، وتباروا في الالتحاق بابن حفصون والعمل معه، ثمّ بدأ زعيمهم (شربند بن حجاج) يدبّر لحركة عصيان كبيرة... وراح يبتاع السيوف والرماح ويستكثر منهم استعدادًا لانقلاب كبير يقوده في قرطبة... وتمّ وضع الخطة.. التي كانت تقتضي خروج المعاهدين وهجومهم على قصر الإمارة في الوقت الذي يهاجم فيه ابن حفصون أحواز قرطبة، ممّا يجعل الأمير يخرج بجيشه فتفرغ قرطبة ويسهل

استيلاء المعاهدين عليها، ولكن تسرّب خبر تلك المؤامرة للأمير عبد الله قبل استحكامها، فعالجها بحزم، وقبض على بعض من تورطوا فيها، بَيْدَ أن شربند نفسه تمكن من الفرار واللجوء الى ابن حفصون والعمل معه...

(٦)

كانت الشمس تميل للغروب، عندما كان الأمير الطاعن في السن عبد الله بن محمد يسير في حدائق القصر بين النخيل والبرتقال، وهو يفكّر في الأندلس وأمرها وابن حفصون وثورته، وأولاده كيف تآمروا عليه؛ فتكالبت عليه الأحزان، وغلبه الاكتئاب، ولمّا حاول حاجبه عبد الرحمن بن شهيد -وكان يسير بالقرب منه - سؤاله عن سرّ حزنه لم يجبه الأمير، بل أمره أن يتركه يتجوّل في القصر بمفرده، ثم راح يسأل نفسه ويقول:

من ذا الذي سيخلفني في إمارة الأندلس؟ فولاية العهد خاوية مذ قتل محمد! ثمّ تذكّر المطرف ومحاولاته حيازة الإمارة منه، و تذكّر إخوته وطمعهم في كرسي الإمارة، وقد امتعض وجهه ودخل في نوبة حزن عميقة، وبينما هو كذلك يغالب أحزانه، إذ أقبل عليه الشاعر والفقيه (ابن عبد ربه)، فما إن لمحه الأمير حتّى تبدَّلَتْ ملامح وجهه.. وكيف لا وابن عبد ربه هذا هو معلم حفيده وأقرب الناس إليه.

ابن عبد ربه: السلام على مولاي الأمير.

الأمير: وعليكم السلام يا ابن عبد ربه، كيف حال أبي المطرف؟

ابن عبد ربه: مذ أن تعهَّدَني الأمير بأمره، وأنا أسعد الناس به.

ابتسم الأمير ونظر إلى ابن عبد ربه الذي تابع وقال: أجل يا سيدي، أنا أسعد الناس به، فهو كثير الحفظ متّقد الذكاء، مختلف عن أقرانه تتوق نفسه لمعالي الأمور، وتكاد همته أن تصل عنان السماء، لا يشكو من كثرة الحفظ ويصبر على طلب العلم، يصمت كثيرًا فإن تحدّث ألجم الناطقين بحسن منطقه وقوة حجته وسلامة لغته...لقد استطاع يا سيدي أن يأسر كلّ من تحدّث إليه، وذلك بلباقته وفطنته وسرعة بديهته... لقد حفظ الكثير من شعر العرب، وأبدى- بالرغم من حداثته- تفوقًا في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنّه، ودرس القرآن والسنة وبرع في النحو والشعر والتاريخ، ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية، لا أدري يا سيدي ماذا أقول؟! غير أنّي لم أرَ لهذا الأمير مثيلًا، إنّني أخشاه رغم حداثة سنه أحيانًا وأهابه أحيانًا...

انتعشت روح الأمير، وانفرجت ثناياه عن ابتسامة غابت عنه طويلًا، وهمهم وقال: عسى الله أن يثبت به ملك بني أمية في الأندلس، ثمّ التفت إلى ابن عبد ربه وقال: اقرأ عليه سيرة جدّه الداخل، ولا تتهاون في تعليمه، وإيّاك أن تقول حفيد الأمير، علّمه العزة بأجداده والفخر بهم... أريده قوي النفس شديد البأس لا يهاب الموت.

ابن عبد ربه: هو كذلك يا سيدي.

ثمّ التفت ابن عبد ربه إلى الخلف، وأشار لعبد الرحمن فأقبل، وما إن رأى الأمير حتّى قبّل يده فقال له الأمير: مرحبًا بالحبيب ابن

الحبيب، مرحبًا بعبد الرحمن بن محمد.

ابتسم عبد الرحمن وقال: مرحبًا بك مولاي الأمير.

الأمير عبد الله: كيف حال أبي المطرف؟

عبد الرحمن: بخير ما دام الأمير كذلك.

ابتسم الأمير ووضع يده على شَعْرِ عبد الرحمن، وقال له: اذكر جدّك الداخل، فوالله إنّك أكثر الناس شبهًا به...

(٧)

حركة ابن القط

بدا اليوم عاديًا جدًّا في مدينة (طلبيرة) شمال البلاد، حيث الطبيعة الباردة والجو الملبّد بالغيوم، والأمطار الغزيرة التي تتساقط معظم أيام العام، فهذا ذاهب وهذا غادٍ، والأطفال يسيرون في الطريق يلهون ويلعبون، وبينما هم كذلك، إذ خرج على الناس شاب تظهر عليه كل علامات الوقار يرتدي ثيابًا لا تختلف عن ثياب الناس، كما وضع على رأسه قلنسوة مثل سائر العلماء والأمراء، وبصوت مرتفع راح يجوب شوارع وأزقّة المدينة.. ينذر الناس بعواقب ما هم فيه من اختلاف وتكالب النصارى عليهم، إذ قال: أيّها الناس.. يا أهل الإسلام، ما لكم كيف تحكمون؟ تتصارعون فيما بينكم، وقد اختلفت قلوبكم ونفوسكم، وتفرقتم شيعًا «كل حزب بما لديهم فرحون»...

كلٌّ يريد الحكم ... بينما النصارى ينخرون في البلاد نخر السوس في الخشب، فاقتَطَعوا في سنين نزاعكم ما لم يكونوا يقدرون عليه لولا تصارعكم وتقاتلكم، ثمّ وقف مرة واحدة ونظر إلى الأفق البعيد ووضع يديه حول أذنيه، ومن ثم رفعها وأشار بيده وقال: القشتاليون قادمون، ولن يرضوا بغير رؤوسكم ونسائكم... سيحرقون الزروع ويقتلون الماشية ويذبحون الأطفال ويغتصبون النساء بعدما يذيقون الرجال منكم سوء العذاب، إنّهم قادمون.. أكاد أسمع صهيل خيولهم وأكاد أرى وحشية جنودهم، ستسيل الدماء أنهارًا، وتُبْتَرُ الأيدي والأرجل، ولن يرضوا لكم إلّا الموت...

ارتاع الناس ممّا قاله الشاب، وبهت الكثيرون منهم، وراح هذا يتحدّث إلى ذاك عن هذا القول وماهيته، وتناقلت الألسن ما كان، بينما انطلق الشاب يخترق الأزقّة، حتى خرج من المدينة وجلس تحت إحدى الأشجار بعيدًا عن أعين الناس...

مرّ يومان على حديث الشاب، وكعادة العامة دائمًا فهم سريعو النسيان، لكنّهم هذه المرة لم يكد النسيان أن يتمكّن منهم، حتّى جاء لهم نذير جديد، فبينما هم على حالهم وعاداتهم، إذ وفد عليهم -عند الظهيرة في هذا اليوم- وفدٌ قادمٌ من بعيد، كان الوفد يضمّ بعض الحفاة، وقد ظهرت عليهم علامات التعب والإرهاق، حتّى إذا ولجوا أسوار المدينة ارتموا على ظهورهم وبطونهم، وقد جفّت شفاههم وكأنّهم لم يذوقوا الماء منذ أيام.... كان المشهد مريعًا، وأثار علامات الاستفهام والدهشة !؟

سارع بعض سكّان (طلبيرة) في إنجاد هؤلاء وتطبيبهم، حتّى إذا

أفاق بعضهم أجهش بالبكاء والعويل، وهو ينظر إلى وجوه الناس من حوله، فقال أحدهم له: ما بك يا رجل؟ ومن أنتم؟ ومن أين قدمتم؟ ولماذا أنتم هكذا؟!

بعيون دامعة نظر الرجل إلى وجوه الناس وقال: نحن من تبقى من أهل قرية (سانتيز) القريبة من سمورة.

رجل طلبيرة: وأين باقي أهل القرية؟ ولماذا أنتم هكذا؟

- لقد داهمتنا قوّة نصرانية بقيادة ابن أخت ملك أستورياس، فقتلت الرجال والأطفال وأخذوا النساء سبايا، ومن قاومت منهن قتلوها ومثّلوا بها، ثمّ احتلوا القرية بعدما فرغت من أهلها، أمّا هؤلاء وأنا فقد كنّا خارج القرية، فلمّا علمنا ما حدث اعتصمنا بقمم الجبال، حتّى إذا وجدنا فرصة فررنا إليكم.

برقت عين أحد رجال طلبيرة وقال: هل وقعت هذه الفجيعة منذ يومين؟

رفع الرجل وجهه وقال: أجل يا سيدي.

نظر الرجل إلى الحضور وصاح بصوت مرتفع، وهو في شدّة التعجب! وقال: لقد صدق ابن القط، إي والله لقد صدق... ثمّ راح يردِّدُ ذلك وهو يتحرك في أزقّة المدينة باحثًا عن ابن القط، حتّى وجده راقدًا تحت ظل شجرة، وقد وضع أحد الأحجار الصغيرة تحت رأسه.

اقترب الرجل رويدًا رويدًا من ابن القط الذي أفاق من نومه ونظر إلى الرجل بدون أن يتفوّه بكلمة، فما كان من الرجل إلّا أن جلس على

الأرض وأمسك بيد ابن القط مقبّلًا إيّاها وهو يقول سيدي الفقيه، لقد صدقت نبوءتك.

نظر ابن القط إلى الرجل متعجبًا، ولم يتفوّه بكلمة.. فتابع الرجل قائلًا:

اسمي سعد بن محمد يا سيدي، وقد جئت إليك ومن خلفي قومي؛ لنضع أنفسنا رهن أمرك بعدما تبيّن لنا صدق قولك.. فكيف النجاة يا سيدي؟

رمق ابن القط الرجل بنظرة واثقة وقال: لا نجاة لكم إلّا بالجهاد ولا جهاد وقلوبكم متفرقة، توحّدوا واجمعوا قلوبكم تتجمّع سيوفكم ويهابكم أعداؤكم.

سعد بن محمد: مُرْنَا نفعل يا سيدي، فوالله لتجدنّ سيوفًا تقطّع، وحناجر تكبّر وتصدع، وقد علمنا يا سيدي أنّك الأمير (أحْمد بن مُعَاوِيَة بن مُحَمَّد بن هِشَام بن مُعَاوِيَة ابْن الْأَمِير هِشَام بن عبد الرَّحْمَن بن مُعَاوِيَة)

ابن القط: من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه!

تأثّر سعد بن محمد بحديث ابن القط، كيف له أن ينكر نسبه ويعتمد على فعله؟ فانكبّ على يده يقبّلها مرة اخرى، وقال: أبايعك أيّها الأمير على السمع والطاعة في المنشط والمغرم.

وضع ابن القط يده على رأس سعد وقال له: يجب أن ننقذ البلاد يا ابن محمد.

سعد بن محمد: مُرْنِي أطِعك يا مولاي.

وفي تلك الأثناء قدم جمع من الناس كلّهم يهتفون باسم ابن القط، الذي وقف وقام فيهم خطيبًا وقال: أيّها الناس، العاقل من اتعظ بغيره، والتَعِيسُ من اتعظ بنفسه، وكنت قد أنذرتكم عاقبة تنابذكم وتصارعكم، فلم تسمعوا قولي، وقد جاءكم النذير اليوم فالنجاة النجاة...

وبينما هو يخطب.. إذ خرج صوت من وسط الناس وقال: نسمع لك ونطيع أيّها الأمير نسمع لك ونطيع...

ابن القط: إذًا تبايعون على السمع والطاعة في المنشط والمكره.

هتفت الجماهير وقالت: (نبايع)، ثمّ تقدّم جمع منهم وحملوه على رؤوسهم وطافوا به شوارع المدينة حتى بلغوا قصبة طلبيرة فأدخلوه ونصّبوه واليًا عليهم، ولم يمرّ اليوم حتى بايع ابنَ القط كلُّ أهل المدينة والقرى القريبة منها، وانتشر خبره ورُفِعَ ذِكْرُهُ، واستبشر أهل طلبيرة خيرًا بواليهم الجديد، وانتشرت بينهم روايات عن علمه ونبوءاته، حتّى ظنّه بعضهم أنّه (المهدي المنتظر)، واستغلّ ابن القط تلك الإشاعات وبدأ يعمل بالناجمة ليسحر قلوب الناس وعقولهم، وفي نفس الوقت تابع أمر إمارته الجديدة التي صار أميرًا عليها بين ليلة وضحاها في مشهد قلّ أن يأتي التاريخ بمثله.

وفي قصره الصغير في طلبيرة، وقف ابن القط يراقب النجوم ويتفكّر فيما يحدث وحدث وهو يقول في نفسه: ها قد عادت الإمارة إلى أهلها، ومن أحقّ بها منّي؟ وأنا ابن الأمراء من بني أمية، ها قد حزت (طلبيرة)، ثمّ تنهّد وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول: ولكنّها لن

تكون نهاية المطاف، فلن أملك ما لم أملك قرطبة وأعود إلى قصر إمارتها، ذلك القصر الذي بناه جدي الداخل.

وفي صباح اليوم التالي جدّ ابن القط في العمل، فامتطى صهوة جواده وخرج من قصره وحوله كوكبة من فرسانه الذين كانوا يقدّسونه، ويرونه (المهدي المنتظر) الذي يخرج آخر الزمان فيقيم العدل ويرفع الظلم، وبصحبة هؤلاء الفرسان راح ينتقل من قرية إلى أخرى، يجمع الأنصار ويأخذ البيعات ممّن فُتنوا به، حتّى أطاعه خلق كثير من العرب والبربر، وكان كبير البربر الذي بايعه هو (عبد الله بن وانسوس الزناتي) الذي اتخذه ابن القط وزيرًا له.

مرّت الأيام وازداد جمع ابن القط وعَظُم، حتّى بلغت قوته قصر الإمارة في قرطبة، وعلم الأمير عبد الله بما يجرى في أحواز مملكته، لكنّ الفتن المحيطة به جعلته لا يبادر إلى ابن القط ليحاربه...

وبعد أن زاد جمعه قرَّرَ ابن القط أن يوسع مملكته الناشئة، فجمع وزراءه وقال: لقد أصبحتْ قوتنا ممّا يُخشى لها.

سعد بن محمد متعجبًا: ماذا يرى مولانا الأمير؟

ابن القط: يجب أن تتوحّد هذه الجزيرة، وإلّا ذهبت أدراج الرياح.

عبد الله بن وانسوس: صدقت يا سيدي، فَسِرْ بنا ونحن معك، وإن أردت أن تدخل قرطبة على أسنّة رماحنا فعلنا.

ابن القط: لا يا عبد الله ليس هكذا تورد الإبل، ولن نشرع سيوفنا في وجه إخوتنا المسلمين، بينما نصارى أستورياس على مرمى حجر منّا، فنزيد الفتنة اشتعالاً، ويزداد أعداؤنا قوة بتفرقنا وتناحرنا.

عبد الله: العفو يا سيدي.. فماذا ترى؟

سعد: لكن يا سيدي، أليس من الصواب أن تتوحد الأندلس أولًا قبل أن تواجه عدوّها الخالد؟

عبد الله: وهذا ما قصدته -أنا أيضًا- يا مولاي.

ابن القط: ما الفرق بيننا إذًا وبين ابن حفصون وابن مروان الجيليقي إن دخلنا في حرب مع قرطبة؟

عبد الله: لكنّك يا سيدي تريد الدولة، ومن يُرِد الدولة عليه بالرأس، والرأس هناك في قرطبة.

ابن القط: أجل الرأس في قرطبة، ولكن سبيلها هنا في طلبيرة وجبالها.

نظر ابن وانسوس نظرة تعجب واستغراب إلى ابن القط الذي تابع فقال: لا تتعجبوا كلامي، فمهما بلغت قوتنا لن نصل إلى قرطبة بهذا اليسر الذي تظنون، وها هو ابن حفصون يقاتل منذ سنوات فلم يفعل شيئًا، بل كانت الحرب بينه وبين قرطبة سجالًا، وكادوا في أكثر من مرّة أن يقضوا عليه، والأمير عبد الله له في أعناق الناس بيعة ليس من اليسير نقضها، والناس ستجتمع من حوله ويرون في نصرته برًا لبيعتهم، أمّا إذا تحولنا نحن جهة جيليقية -التي تقطع من بلاد المسلمين المدن والقرى- فسوف يجعل ذلك الناس تهتف باسمنا ولنا، ويرون أننّا حماة الثغور؛ فيلتفون حولنا، وتهون علينا بعد ذلك قرطبة وكل الأندلس وقد صار الالتفاف حولنا جهادًا في سبيل الله.

أومأ سعد بن محمد وعبد الله بن وانسوس، ولم يتفوه أحدهم بكلمة، بينما قال لهم ابن القط مستطردًا: من الغد أعلنوا النفير والجهاد، وليخرج معنا كلّ من يستطيع حمل السلاح، والآن دعوني وحدي، أريد أن أناجي ربّي.

قدّم سعد وعبد الله التحية لأميرهم وخرجا، وما إن فعلا حتّى نظر عبد الله إلى سعد وقال: والله لقد منعتْه عصبتُه الأموية من قرطبة، وإلّا فنحن أكثر من أهلها جمعًا وقوّة.

سعد: لا أظن ذلك وقد بيّن الرجل مقاصده.

عبد الله: أوتظن ذلك حقًّا؟! من يقطع الرأس يحزُ كلّ شيء.

سعد: صدقت ولكن قرطبة ليست كلّ الجسد، فحتى لو تمكنّا منها سيقاتلنا كلّ أهل الأندلس وهم يروننَا مغتصبي السلطة، ولن نكون لديهم أكثر من ابن حفصون وأمثاله، فما الذي يجعلهم يلتفون حولنا دون غيرنا.

عبد الله: أراك أمويًا أكثر من الأمويين أنفسهم!

سعد: ماذا تعني بذلك؟

نظر عبد الله إلى سعد نظرة غامضة وقال: لا شيء لا شيء.

ثم تفرّق الرجلان، وفي الصباح الباكر كان ابن القط على رأس جنوده والأعلام ترفرف فوق رأسه، ولا يشكّ أبدًا في نجاح مسعاه، وقد قرَّرَ أن يخرج بجيشه صوب سمورة التي احتلها ألفونسو منذ عهد قريب... وتحت صهيل الخيول وطبولِ الحرب وقواته الجرارة التي بلغت بين خيل وَرجل سِتِّينَ ألفًا، كان أكْثَرهم من برابر الْجوف

والغرب وَمن أهل طليطلة وطلبيرة، قصد بهم سمورة، حتّى إذا اقترب منها أمر بضرب المعسكر، ثمّ أمر كاتبه أن يكتب إلَى الطاغية ملك جيليقية وَمن مَعَه كتابًا مغلظًا، يَدعُوهُم فيه إلَى الإسْلَام وَيُنْذرهُمْ بالصاعقة، وَأمر رَسُوله أن يستعجل منْهُم الْجَواب وَلَا يتَوَقَّف عِنْدهم.. وَإن هم أبوا من مجاوبته أن يعود بالْخبر إلَيْه.

خرج الرسول إلى سمورة رافعًا راية الرسل، حتّى إذا دخلها استأذن للدخول إلى قصرها، فأذن له، وما إن دخل حتى قدّم رسالته إلى (ألفونسو الثالث) الذي ما إن قرأها حتّى انفجر غضبًا، وقال:

ألفونسو: من هذا الصعلوك الذي يهددّ ملك جيليقية وأستورياس؟

همَّ الرسول أن يتحدّث، فأشار له ألفونسو بالصمت.. وأكمل قائلًا: لولا أنّ الرسل لا تُقتل لقطفت رأسك، والآن اخرج من هنا قبل أن يسبق غضبي عقلي فأقتلك، فليس لحديثك ردّ عندي...

ارتجف الرسول وارتعدت أوصاله.. وخرج من أمام ألفونسو الذي احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه، وأمر من فوره بإعداد الجيوش لقتل هذا الصعلوك، فاجتمع له -في أيّام قليلة -أربعون ألفًا على عجل.

أمّا الرسول فقطع ظهر بعيره حتّى وصل إلى معسكر ابن القط، وما إن دخل على ابن القط حتّى قصّ له ما كان من أمر ألفونسو، فغضب ابن القط وأمر بمهاجمة (سمورة) على عجل ولكن ألفونسو كان قد جمع جيشه وخرج من سمورة للقاء ابن القط ... وفي مخائض نهر دويرة أمام سمورة دارت معركة كبيرة، ثبت فيها ابن القط ورفاقه وتساقط النصارى من حول ألفونسو قتلى وصرعى، حتّى كاد ألفونسو نفسه أن يهلك، لولا أن تنبّه إلى ما يجري، فسحب رسن

جواده وفرّ هائمًا صوب سمورة التي فتحت له أبوابها فولجها على الفور ليتحصّن بها...

أمّا ابن القط فقد استبشر خيرًا، وقرَّرَ أن يُكمل ما بدأه، فزحف صوب سمورة وضرب حولها الحصار مقرِّرًا فتحها واستثمار النصر الذي حقَّقَه عند مخائض نهر دويرة.

وما إن حلّ الليل إلّا وقد شعر ألفونسو بقرب النهاية، فدفع كل فردٍ من رجاله يستطيع حمل السلاح جهة الأسوار للدفاع عنها، أمّا جيش المسلمين فقد ظلّ على الحصار ممنيًا نفسه بخزائن سمورة ورأس ألفونسو، وعلى هذا بات ابن القط ليلته...

وفي جانب معسكر ابن القط، كان القائد عبد الله بن وانسوس في خيمته عندما دخل عليه أحد رجاله وهو يقول: لقد كانت موقعة هائلة يا سيدي.

ابن وانسوس: أجل لقد كدنا أن نقطف رأس الطاغية، لولا انسحابه وجبنه.

نظر الرجل إلى ابن وانسوس نظرة خبيثة، ثمّ قال: تُرى ماذا سيكون بعد فتح ابن القط لسمورة؟

ابن وانسوس: قطعًا سنكمل صوب جيليقية حتّى نحرِّرَ الشمال كله.

أخذ الرجل نفسًا عميقًا قبل أن يقول: ثمّ ماذا بعد؟

ابن وانسوس: ثمّ نرتدّ إلى قرطبة فنحوزها وكلّ الأندلس -إن شاء الله- لنقيم بذلك دولة للإسلام لن تنهزم.

هزّ الرجل رأسه وقال بخبث: تقصد يحوزها ابن القط.

ابن وانسوس: وما الفرق إذًا وقد بايعناه ورضينا به أميرًا؟

الرجل: أنسيت ياا بن وانسوس ماذا فعل (المنذر بن محمد) بأجدادك؟ أم نسيت ما فعله كلُّ الأمويِّين بأجدادك من قبل، منذ أن دخلوا المغرب وحازوا الأندلس؟

ابن وانسوس: اصمت يا رجل، فهذه دعوى الجاهلية والفتنة التي نهانا عنها الإسلام.

الرجل: وآسفي عليك يا قائدنا...

قالها ثمّ خرج من عند عبد الله الذي تغيّرت ملامح وجهه، والتزم الصمت ولم يتفوه بكلمة، ثمّ راح يتذكّر مصارع قومه على يد الأمويين في الأندلس!

وبينما الحصار قائم، وألفونسو يتابع عن كثب، إذ بمن يخبره بانفضاض معظم جيش ابن القط عنه، في أولّ الأمر لم يصدق ألفونسو الخبر، إذ قال في نفسه: ما الذي يجعل جيشًا منتصرًا ينفضّ عن قائده ولمّا يحصد ثمار نصره بعد؟!

لذا ركبَ فرسه وتحرّك صوب السور من الجهة المقابلة لجيش ابن القط، ولمّا تأكّد من الخبر قرَّرَ أن يبادر ويفتح الأبواب قبل أن يلتقط ابن القط أنفاسه، أو يعيد ترتيب صفوفه، أو يأتيه مدد من هنا أو هناك.

وبصوت جهوري جمع ألفونسو قواته أو ما تبقّى منها، وعلى حين غرّة فتحت سمورة أبوابها وانقض ألفونسو بجيشه على بقايا جيش

ابن القط.. ولم تمر ساعات حتى أُبيد الجيشُ بالكامل وكان من أول القتلى (ابن القط) نفسه، الذي رفض الفرار وقتل في أرض المعركة، فأمر ألفونسو باحتزاز رأسه، ثم أمر بالرأس فحشي بالملح والكافور، وتمّ تثبيته على أبواب سمورة! وهكذا ضاعت على دولة الإسلام فرصة لو تمّت لتغيّر وجه التاريخ للأبد، ولكنّها الفتن والنعرات القبليّة التي تحرق ولا تزرع، وتهدم ولا تبني، وتقتل ولا تحيي، ولا يستفيد منها إلّا عدو الأمة والدين!

(٨)

في مجلسه في قصر قرطبة جلس الأمير عبد الله.. وقد ظهرت عليه علامات التقدم في السن فقد وهن جسده واتّقد شعره شيبًا، ودخل في صمت عميق.. قطعه بقوله: رحم الله أحمد بن معاوية بن القط، وبينما يهزّ رأسه إذ بحفيده يقول: من ابن القط -هذا- يا سيدي؟

انفرجت أسارير الأمير عن ابتسامة حانية وقال: مرحبًا بأبي المطرف، منذ متى وأنت هنا؟

تقدّم عبد الرحمن جهة جدّه وقبّل يده قبل أن يقول: مذ قليل يا سيدي، ولكن لم أشأ أن أقطع تفكيرك.

الأمير: لقد كبرت يا عبد الرحمن، وإنّي لأرجو أن تجدِّدَ شباب دولة بني أمية في الأندلس.

عبد الرحمن: أطال الله عمرك يا جدي.

نظر الأمير إلى حفيده نظرة رِضا، وقال -بعد أن أخذ نفسًا عميقًا-: إنّه أحمد بن معاوية الأموي يا أبا المطرف، وإنّه -والله- قد فعل فعلًا أثار عجبي واهتمامي.

عبد الرحمن: وماذا فعل يا سيدي؟

الأمير: لقد أعطانا جميعًا درسًا في ترتيب الأعداء.

عبد الرحمن: كيف ذلك يا مولاي؟

الأمير: لقد جمع جيشًا لو أرادِ به الزحف صوب قرطبة لحازها، وهو ابن الأمراء ولكنّه رفض ذلك وخرج بهذا الجيش صوب سمورة مفضلًا قتال الأعداء على النزول لمعترك الفتنة، لقد خرج لمحاربة عدوٍ ظاهر، ولم يوحل نفسه في قتال عدو لا يعرف على الحقيقة عداوته... فعل ذلك رغم معارضة فرقة كبيرة من جيشه، وربّما لو أطاعهم ما خذلوه، ثم نظر إلى حفيده، واستطرد قائلًا: لقد حاز القلوب بفعلته رغم استشهاده، فراحت الناس تثني عليه وتدعو له، وهذا درس أريدك أن تفقهه جيدًا، ولتعلم يا بني أنّه لولا خوفي على قرطبة لفعلت مثله!

كان عبد الرحمن يطرق السمع جيدًا ويجيده، بل كان يحفظ تلك الدروس ولا ينساها أبدًا، وكأنّ كلّ كلمة من جدّه يجعلها ميثاقًا في قادم حياته...

وبينما يدور الحديث بين الجدّ وحفيده، إذ بالحاجب (سعيد بن محمد بن السليم) - وكان الحاجب عبد الرحمن بن شهيد قد مات، فتولّى هذا مكانه- يدخل ويقول للأمير: بالباب (عصام الخولاني) يا سيدي، يستأذن للدخول عليك.

أشار الأمير بيده لابن السليم أن يدخله، وإذ بعبد الرحمن يهمّ أن يخرج، فيشير له جده فيلتزم الحفيد الصمت ويلوذ بمكانه.

وبعد لحظات دخل رجل يرتدي ملابس الحرب، متوسّط القامة، يميل لون بشرته للسمرة، وله لحية عظيمة فقال: السلام على مولاي الأمير.. ثم قبّل يده.

الأمير: وعليك السلام ورحمة الله، ثمّ أشار له أن اجلس، وبعدها قال: تعلم يا خولاني أنّ جدّي عبد الرحمن بن الحكم كان قد أرسل حملة بحريّة إلى ميورقة لغزوها، ومعاقبة أهلها على تعرضهم لسفن المسلمين، وكيف تعهّد أهلها بالجزية والولاء.

عصام: أعلم يا سيدي.

تحرك عبد الله واقفًا من كرسيه، فهبّ الخولاني واقفًا، فأشار له الأمير وقال: اجلس يا عصام ثمّ استطرد قائلًا: والآن قد نكثوا على أعقابهم وتركوا دفع الجزية، ثمّ تطاولوا أكثر فأكثر حتى بلغت جرأتهم أن تعرّضوا للسفن الإسلامية مرّة أخرى.

عصام: ذلك يا سيدي لعلمهم بما يحدث في أرض الجزيرة من فتن، فلولا عدو الداخل ما تجرّأ عليك عدو الخارج.

عبد الله: وإنّه ليؤسفني ذلك، ولكن لن نستطيع السكوت عنهم، بينما يقطعون الطريق على المسافرين من شواطئ الأندلس إلى باقي بلاد المسلمين، حتّى حجاج بيت الله الحرام لم يسلموا منهم فنهبوهم وقتلوهم.

عصام: أنا رهن إشارتك يا سيدي.. ولقد خبرت تلك الجزيرة وأنا في طريقي للحج منذ أعوام وأدركت سهولة فتحها، فولّني أمرها، فأنا خبير بها يا سيدي، وقد كنت أنتوي عرض الأمر عليك فسبقتني إليه.

عاد الأمير إلى كرسيه، ثمّ قال: سنأمر لك بما تحتاجه من سفن وجند، فلتستعد ولتُعِد وتضع خططك.

أومأ عصام برأسه، ثمّ قال: ألا توصني يا سيدي؟

الأمير: أوصيك بأهل الإسلام خيرًا، واعلم أنّك إنّما تجاهد في سبيل الله لا في سبيل دولة عبد الله بن محمد، فقتيلكم في الجنة وقتيلهم في جهنّم، واكتم أمرك وخذ طريقًا لا يمرّ ببلاد اشتعلت فيها الفتنة، وفور انقضاء الأمر أعلن في الناس، والآن.. سر على بركة الله.

انحنى عصام الخولاني وخرج من بين يدي الأمير، الذي قال وهو ينظر في الفضاء البعيد: رحم الله السمح بن مالك الخولاني.

نظر عبد الرحمن إلى جدّه وقال: من السمح هذا يا جدي؟

بنظرة حانية قال الأمير: إنه والي الأندلس من قِبَلِ جدّك- أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز- وهو خولاني من اليمن مثل عصام هذا، وكما ولّى عمر أمر الأندلس للسمح فعلت أنا الأمر نفسه مع عصام، فوليته أمر ميورقة ولا أظنّه إلّا خير من يفتتحها، فتعلّم يا أبا المطرف التاريخ، ففي تعلمه مرآة لك لن تكذبك، وناصح لن يخذلك، وعُمُرٌ فوق عمرك وسيف مع سيفك.

عبد الرحمن: سأفعل يا جدّي، لكن يا جدّي، لقد عملت بما يحدث في الجزيرة، فكيف يخرج جيش من قرطبة ليضرب في بلاد الكفر البعيدة، بينما تكاد الفتنة تحطّم أركان البلاد، أليس وأد الفتنة مقدمًا على الفتح؟

تنهّد الأمير تنهيدة كبيرة قبل أن يقول: لقد كبرت يا أبا المطرف فاسمع مني، نحن الآن في حرب وفتن لن تنقطع وقد غدا بعض الناس يتساءلون عن الفرق بين قرطبة وما حولها من إمارات الفتنة، وقد اختلط الأمر على الناس حتّى ساووا بيننا وبينهم، فما الفرق يا ولدي؟ ... الفرق يكمن في اهتمامنا بأمور الرعية وثغور المسلمين وحاجاتهم، لهذا فسوف يبدّل افتتاح ميورقة كثيرًا من نظرات الناس لنا، ويتحققون أن أمرنا هو الحق، وغيرنا هو الباطل... وأيضًا لا نستطيع صبرًا، بينما يضرب هؤلاء مصالح المسلمين ويتخذون من ميورقة نقطة يحاربون بها الله ورسوله، ولا تنس حديثنا السالف عن عمك (أحمد بن القط) ...

(٩)

خلع ألفونسو الثالث عن العرش

في ظلمة الليل وبرد مدينة (أوفييدو) القارس- وسط سكون لا تقطعه سوى زمجرة الرياح العاتية- ظهر رجل ملثّم الوجه لا يُرى

منه غير عينيه، وهو يسير وحيدًا بطيء الخُطا، يلتفت هنا وهناك ليتأكّد أنّ ما من أحد يراه، استمرّ الرجل في سيره حتّى وصل إلى قصر مهجور على أطراف المدينة، لا أثر فيه لأحد، وما إن وصل حتّى أماط اللثام عن وجهه وراح ينظر يمينًا ويسارًا، وهو يقول في نفسه: هل هناك أحد أم تراني ضللت الطريق؟

وبينما هو كذلك.. إذ خرج عليه شاب تظهر عليه علامات الإمارة وهو متشح بسيفه، مرتديًا ثيابًا كعامة أهل أوفييدو، فقال له: مرحبًا بالكونت جونثالث صاحب برغش.

الكونت: مرحبًا بك أيّها الأمير، أم أقول من الآن الملك؟

وقبل أن يتفوه (غارسية) بكلمة واحدة، خرج صوت يقول: بل الملك غارسية أيّها الكونت.

التفت الكونت جهة الصوت لينحني من فوره، ويقول: إذًا نقول الملك أيتها الملكة العظيمة.

خيمينا: أجل هو الملك رغم أنف ألفونسو وأنف حظيته اللعينة.

الكونت: ولكنّك زوجته يا سيدتي على كل حال والكنيسة لا تعترف بالحظايا.

خيمينا: لست زوجة من ينزع أولادي المُلك ليوليه غيرهم.

تنفّس الكونت نفسًا عميقًا، ثم قال: لتكن إرادة الربّ.

خيمينا: ولن تكون إرادتنا سوى جزء من إرادة الرب أيّها الكونت.

ابتسم الكونت مصدقًا على كلام الملكة، ثمّ قال: أين الأمراء أردونيو وفرويلا؟

غارسية: لم أُرِد أن يجتمع ثلاثتنا هنا؛ فيؤخذ بنا حال افتضاح أمرنا، لذا تركناهم حول الملك ألفونسو لتطمئن نفسه، وإلّا فخروجنا جميعًا من القصر سيثير الانتباه وتكون عواقبه وخيمة.

الكونت: أحسنت أيها الملك.

غارسية: لا نريد لفشلنا السابق أن يتكرَّرَ، فلن أعود للسجن مرة أخرى.

خيمينا: لن تُكرَّرَ أخطاء الماضي يا غارسية.

الكونت: وأيضًا لم يعد ألفونسو كما كان من ذي قبل، والشعب الذي كان يراه بطلًا مغوارًا يراه اليوم ظالمًا جابي ضرائب خادمًا للبابا في روما.

غارسية: أجل أيّها الكونت، وإنّي لأرجو أن نُحسن استغلال الأمر جيدًا، فالشعب يئن تحت وطء الضرائب والجبايات، لهذا يجب أن نغذّي فيهم الشعور بالظلم والحرمان، ففي الوقت الذي ينعم فيه النبلاء بكلّ تلك النعم، يعاني الشعب من الحصول على لقمة عيش تسد رمقه.

خيمينا: والآن.. ماذا فعل رجالك أيّها الكونت؟

الكونت: لقد انتشروا بين صفوف العامة يؤلبونهم على الملك ويقولون: ملك خَرِف، دفع آلاف الدنانير الذهبية لشراء لقب لا طائل من خلفه من كاتدرائية (تورز) كما يتحدّثون عن تلك الضرائب التي لا تُجمع إلّا من الفقراء فقط!

غارسية: وماذا عن الجيش أيها الكونت؟

الكونت: لقد تواصلت مع مجموعة من قادته، وقد بايعوك يا سيدي ملكًا عليهم، بعد أن خلعوا أباك الملك ألفونسو، وهم الآن في انتظار الإشارة للبدء بالعمل.

خيمينا: إذًا يجب التحرك الفوري قبل أن يشيع أمركم.

غارسية: سنتحرّك يوم الأحد القادم.

الكونت: هل تطلعني على كلّ الخطة يا مولاي؟

غارسية: سيخرج أخواي الأميران أردونيو وفرويلا ويختلطان بالشعب يدعونهما لخلع الملك، بينما أخرج أنا بقادة الجيش الموالين لي وأتحرك بهم، لأستولي على الحصون والقلاع القريبة لتكون ملجأ لنا إن حلت بنا الكارثة أو اختلّ أمرنا، ولا تنسوا أنّ الملك سَمَلَ من قبل أعيُن إخوته عندما حاولوا الانقلاب عليه، ولا أظنّه إلّا قاتلُنا أو ممّثلٌ بنا إن وقعنا في يده، لذا لا مجال أمامنا غير النجاح.

الكونت: وما دوري أنا يا سيدي؟

الأمير: ستدخل بقواتك أوفييدو وتنضمّ إلى الأميرَيْنَ وعامة الشعب.

خيمينا: وبفعلتك هذه سيتشجع الكثيرون على الانخراط معنا، والعمل على عزل الملك الذي سيسقط في يده ...

وهكذا تمّ تدبير الأمر بحرفية شديدة وخطّة مدروسة، وفي اليوم الموعود نُفّذت الخطة كما رسم لها، وسيطروا على كثير من المعاقل... وخشي ألفونسو عاقبة الحرب الأهلية فَقَبِلَ شروطَ الثوار، بعد أن

رأى أن لا قبل له بهم، فنزل عن العرش لولده الأكبر غارسية، وعين أردونيو حاكمًا لجيليقية، وفرويلا حاكمًا لأستورياس، وبهذا اختتم ألفونسو عهده الذي استطال أربعة وأربعين عامًا ...

الفصل الثالث

من لم يَحْمِهِ سيفُه

لن تحميَه حجارة مرصوصة

وأبراج موضوعة

الأمير عبد الرحمن بن محمد

عاش الأمير الصغير في كنف جده، الذى اعتنى به وقدّمه على الكثير من غيره، بل قدّمه على أبنائه وإخوته وكلّ أهل بيته، هذا الأمير الصغير الذي ظهرت براعته في كلّ أمر وُكّل إليه، وفاق أقرانه في كلّ الأمور، ومع تقدّم العمر تعلّم الصغير حمل السيف والضرب به، وكان يحضر مبارزات يقوم بها كبار الجند قبل أن يشاركهم الأمر، وكان جدّه يشجّعه ويحبّ ذلك فيه، كما أتقن عبد الرحمن ركوب الخيل، وكان الجميع يشهد له بالبراعة، إذ يعدّونه من أفضل فرسان الأندلس، أمّا العلم والشعر فقد نهل منه عبد الرحمن حتّى أثنى عليه معلمه (أحمد بن عبد ربه)، ولثقته الكبيرة فيه فقد كان جدّه يوكل إليه المهام الكبيرة رغم صغر سنه، وكان عند انشغاله أو خروجه من قرطبة للغزو يجعله مكانه، وربّما أجلسه في بعض الأيام والأعياد مجلسه نفسه ليسلّم الجند عليه، فتعلّقت آمال أهل الدولة به، ولم يشكّوا في مصير الأمر إليه...

أمّا الأمير عبد الله ورغم تقدّم عمره، فلم يهمل الفتنة يومًا.. بل جاهد للقضاء عليها، كما لم يهمل يومًا تدبير الدولة وشؤونها رغم تقدّم سنه، وقد كان الأمير عبد الله مقتصدًا، يظهر ذلك في ملبسه وشكله وجميع أحواله.. وكان حافظًا للقرآن، كثير التلاوة له، وكانت له صدقات كثيرة ونوافل جزيلة، وكان متقدمًا في ورعه وفضله، محبًا للخير وأهله، كثير الصلاة، دائم الخشوع والذكر لله عز وجل، كثير

التواضع، منكرًا للسرف ومبعدًا لأهله، شديد الوطأة على ذوي الظلم والجور، وقد أخذ كلّ ذلك عنه حفيده الذي كان كظله لا يفارقه أبدًا، وكان يقول لحفيده: يا عبد الرحمن! إنّ المال عصب الدولة ومكمن قوتها، فلا تنفقه إلّا لتدعيم دولتك، واحرص عليه ولا تكن من المبذرين.

وكان متفننًا في ضروب العلوم، بصيرًا بلغات العرب، فصيح اللسان، حسن البيان وكان لا يخلو في أكثر أيامه من مقاعدة وزرائه ووجوه رجاله، فإذا انقضى خوضهم في الرأي والتدبير -لأسباب مملكته وما كان يحاوله من حسم علق الفتنة- خاض معهم في الأخبار والعلوم، ولم يكن ممّن اشتغل بلذة، أو قارف شيئًا من الأنبذة في أيّام إمارته ولا قبلها...

وكان يقعد- أيضًا -على بعض أبواب قصره في أيّام معلومة فترفع إليه فيه الظلامات، وتصل إليه الكتب على بابٍ حديدٍ قد صنع مشرجبًا لذلك، فلا يتعذّر على ضعيفٍ إيصال بطاقة بيده، ولا إنهاء مظلمة على لسانه...

وكان أهل المكانات وذوو المنازل والأقدار يتحفّظون من كلّ أمر يوجب الشكوى بهم، وينقبضون عن التحامل على من دونهم، ويهابون عقابه، ويحذرون إنكاره، ويتحرّون موافقة مذاهبه.. وكانت اللذات مهجورة في أيّامه، واللهو غير مقترف من جميع خاصته وعامته، وإعمال الخير وإظهار البرّ والتقوى فاش في كل طبقة من رجاله ورعيته...

وكان قد فتح بابًا في القصر، سمّاه (باب العدل) وكان يقعد فيه للناس يومًا معلومًا في الجمعة، ليباشر أحوال الناس بنفسه، ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترًا، وكان عبد الرحمن في كلّ هذا رفيقه الذي لا يفارقه أبدًا، وكان زينة هذه المجالس بأدبه وعلمه وحسن بيانه وفصاحة لسانه وقوة حجته وسرعة بديهته...

دارت الأيام... ومرض الأمير عبد الله ولازم الفراش، والتف حوله الأطباء يحاولون شفاءه وتطبيبه، وعبد الرحمن يلزمه لا يفارقه إلّا للنظر في حال الجند والبلاد، ومع مرور الأيام ازدادت حال الأمير وساءت أكثر فأكثر... ولم يفلح طبيب في علاجه، ولمّا شعر الأمير عبد الله بأنّها النهاية خلع خاتمه من يده في حضور أولاده وأعمامه ودفعه لعبد الرحمن الذي انكبّ على يد جدّه ووجه يقبّلهما، والدموع تنسال على وجنتيه، ثمّ طلب الأمير أن يخرج الجميع فخرجوا إلّا عبد الرحمن الذي استوقفه جدّه وقال له -بعد أن قبض على تلابيب ثيابه-: احفظ مُلك بني أمية وجدِّدْ دولتهم، ولا تنم عن الفتنة، وخذ جدّك الداخل قدوة لك، لا يثنيك مرض أو عجز عن محاربة الفتنة فخف إلى أهلها واستأصل شأفتهم، لا يقولن قائل ذهب ملك بني أمية، ولا تترك جهاد النصارى؛ فإنّهم ذئاب يطمعهم الضعف ويلجمهم الخوف، فكشّر لهم عن أنيابك وسر بالعدل في رعيتك، واذكرني بخير يا عبد الرحمن بن محمد، ثم نظر الأمير إلى السماء ونطق الشهادتين، لتفيض الروح إلى بارئها وسط دموع عبد الرحمن الذي شعر لأوَّلِ مرة أنّه يتيم الأب، فبكى عبدُ الرحمن جدَّه وأباه، وقبض على يد جدّه يقبّلها ودموعه تنسال من عينيه.

وما كاد الأمير عبد الله يُسلم أنفاسه الأخيرة، حتّى خرج عبد الرحمن والجميع ينتظر بالخارج، فتقدّم الشاب إلى كرسي الحكم، وبوجه حزين جلس عبد الرحمن مكان جدّه، فعلم الحضور بما كان، فتقدّموا صوب الأمير يقبّلون يده وهم يقولون: رحم الله الأمير عبد الله بن محمد، ومبارك عليك الإمارة، فكانت التعزية والتهنئة في نفس المجلس...

وجلس عبد الرحمن للبيعة، يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول في قاعة (المجلس الكامل) بقصر قرطبة، فكان أوَّلَ من بايعه أعمامه، وأعمام أبيه، وتلاهم إخوة جدّه، وقد مثلوا أمامه وعليهم الأردية والظهائر البيض عنوان الحزن على الأمير الراحل، وتكلّم بلسانهم عمه (أحمد بن عبد الله) فقال:

والله لقد اختارك الله على علم للخاص منّا والعام، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا، فأسأل الله إيزاع الشكر، وتمام النعمة، وإلهام الحمد... وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة والموالي، ثمّ أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان، ورؤساء البيوتات، واستمرّت بيعة الخاصة على هذا النحو حتّى الظهر، وعندئذ نهض الأمير الجديد فصلّى على جثمان جدّه، ثمّ واراه في مدفنه بالروضة، ومعه الوزراء ورجال الدولة.. وجلس لتلقّي البيعة في المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير (موسى بن محمد بن حُدير)، والقاضي (أحمد بن زياد اللخمي)، وصاحب الشرطة العليا (ابن وليد الكلبي)، وصاحب الشرطة الصغرى (أحمد بن محمد بن حدير)، وصاحب أحكام السوق (محمد بن محمد بن أبي زيد) فاستمرت بضعة أيام... وكذلك نفّذت الكتب بأخذ البيعة إلى العمال في سائر

الكور، وأخرج الأمناء إلى البلاد لأخذها، وتتابعت الردود بإنجازها من جميع النواحي، وساد البِشْرُ يوم البيعة في القصر والمدينة، وتوسّم الجميع في الأمير الفتى آيات العظمة واليمن، وعلّقوا على ولايته أكبر الآمال... وحين دخل عليه معلمه وأستاذه شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك، إذ قال له قبل أن يبايعه:

بدا الهلال جديدًا
والملك غضّ جديد
يا نعمة الله زيدي
ما كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر
فأنت للدهر عيد
إمام عدل عليه
تاجان: بأس وجود
يوم الخميس تبدّى
لنا الهلال السعيد
فكلّ يوم خميس
يكون للناس عيد

لم يكد الأمير الشاب أن يخلع البياض، حتّى جمع قادته ووزراءه وعلى رأسهم الحاجب بدر بن أحمد والقائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وكان قد ولّاهم الحجابة والوزارة وقال لهم:

تعلمون ما آلت إليه دولة بني أمية في الأندلس، فقد تقطّعت أوصالها، وتشرذمت مدنها، ونازعونا أمرنا، فهذا الشقي ابن حفصون في ببشتر وآل الحجاج في إشبيلية، واستقلّ ابن مروان ببطليوس، ناهيكم عن ثورة ابن تاكيت في الثغر الأدنى، وبنو ذي النون في شرقي طليطلة، والتجيبيون في سرقسطة، ولب بن الطربيشة في طليطلة، والفتح بن موسى بن ذي النون من زعماء البربر، ومعه حليفه الرياحي المعروف بأرذبلش وبنو قسي في تطيلة وطرسونة.. هذا غير مملكة أستورياس واشتداد ساعدها، حتّى أخذت سمورة وعبرت قوات ألفونسو نهر دويرة مرات ومرات، ولولا وفاته وتشتّت دولته لما سكت عن مهاجمتنا واقتطاع ثغورنا.

بدر بن أحمد: أجل لقد تفشّت الفتنة يا سيدي.

نظر عبد الرحمن إلى وزيريه نظرة تحدّ وقال: فما الرأي عندكم؟

أحمد بن محمد: الرأي يا سيدي.. أن نستمرّ على الصائفة حتّى نقضي عليهم.

عبد الرحمن: وماذا يقول الوزير بدر؟

بدر: ربّما نكون في أشدّ الحاجة إلى السكينة يا سيدي، وإعادة ترتيب الأمور بعد أن هزّتنا الثورة إلى الأعماق، وتجاذبت البلاد الأعاصير من كلّ صوبٍ وحدبٍ.

نهض عبد الرحمن من مجلسه، وتوجّه إلى القائد أحمد الذي نهض من مكانه، ثمّ قال عبد الرحمن:

لم تعد الصوائف تكفي يا ابن محمد. ثمّ نظر إلى الحاجب وقال في تحدّ وصوت مرتفع: لم تعد خطّة التردُّدِ والرفق التي اتّبعها أجدادي نحو الخوارج والمارقين ذات جدوى، وإنّه لا بدّ لاستتباب الأمن واستقرار السكينة من سحق الثورة وزعمائها بأيّ الوسائل وكلّ الطرق، فإمّا أن أُعيد الأندلس إلى سابق عهدها، وإمّا الموت على ترابها... ثمّ ارتدّ صوب كرسيه وضرب على جانبه وقال: لن أكون حفيدًا للداخل إن لم أرُدّها كما كانت، ثمّ جلس على كرسيه وأتبع قائلًا: لقد ولّى عهد وبدأ عهد جديد، فلا راحة ولا نوم ولا سكون قبل أن تعود الأندلس أمويّة قوية مهابة كما كانت، يا ابن محمد اكتب كتابًا عنّي إلى العصاة في مشارق الأندلس ومغاربها أنذرهم فيه وادعهم إلى الطاعة والبيعة، فمن أجاب فقد كفانا شرّ قتاله، ومن أبى فالحرب حتّى يحكم الله بيننا «وهو خير الحاكمين.»

بدر بن محمد: أمر مولاي.

ثمّ أمسك الحاجب بالدواة وراح يكتب الكتب بصيغة واحدة مع اختلاف المرسل إليه، بينما نظر الأمير إلى قائده أحمد بن محمد وقال: وأنت يا ابن أبي عبده، عليك من الآن أن تجيِّش الجيوش، وتكون مستعدًا لما هو آت، فلا نوم ولا راحة بل حروب تتبعها حروب.

(٢)

كانت أصوات ضحكات صمويل بن حفصون تملأ قصره في قلب ببشتر، وهو يقول (بصوت مرتفع): الطاعة ... يريد الطاعة ولزوم الجماعة، ثمّ يتابع ضحكاته، فيضحك الجلوس، بينما يقف الرسول واجمًا لا يتحدّث بكلمة.

صمويل: قل لي يا هذا.. كيف لهذا الغلام أن يفعل؟

الرسول: إنّه ليس بغلام .. ولكنّه أمير تلك البلاد يا ابن حفصون.

قطع ابن حفصون حديثه ونظر إلى الرسول وقال في سخرية: أميرها!! هذا الفتى الذي لا يمتدّ عرشه خارج قرطبة صار أميرها!!

الرسول: أجل ... ولو كره الكارهون.

عضّ ابن حفصون على أسنانه وقال (بصيغة جادة): كيف تجرؤ؟ أتتحداني ... لا أمَّ لك؟ لولا أن الرسل لا تقتل لمثّلت بك.

الرسول: أنا لا أتحداك، وما أنا إلّا رسول.

ابن حفصون: لقد تجاوزت حدّ الرسل، والآن اخرج قبل أن أفعلها وأقطف رأسك.

الرسول: ألن أحمل الردّ على الرسالة؟

أخرج ابن حفصون سيفه وقال: هذا هو الرد! ثمّ صرخ به وقال: اخرج قبل أن أقتلك جزاء ما تفوّه به لسانك...

خرج الرسول من عند ابن حفصون، الذي أغمد سيفه، ثمّ قال: اللعنة على الرسل، اللعنة على بني أمية.

الرامي أبو نصر: هدّئ من روعك يا سيدي.

صمويل: لقد أثار غضبي هذا اللعين.

أبو نصر محاولاً تهدئة ابن حفصون: ولكنّه رسول يا سيدي فلا تغضب.

زفر صمويل بقوّة، ثمّ قال: صدقت ولكن... من يظنّ نفسه عبد الرحمن هذا؟! لقد حاربت جدّه الأمير محمد.. فماذا حدث؟ مات محمد وبقي مُلك ابن حفصون، ثمّ حاربت المنذر فمات وبقي مُلك ابن حفصون، ثمّ حاربت عبد الله بن محمد حتّى وصَلَتْ سنابكُ خيولي أبواب قرطبة وطرقتُها بقوة، وكدت أن أقطف رأس عبد الله نفسه، فماذا حدث؟ مات عبد الله بعد أن يئس مني وبقي ملكي... وباستعلاء أكمل ابن حفصون: ثم يأتي هذا الفتى ويهدِّدُني؟!

ثمّ أمسك ابن حفصون قنينة الراح ورفعها على فيه وشربها عن آخرها، ثمّ مسح بكمّه ما سال من فمه واسترخى على كرسيه وقال: بنو أميّة، يجب أن أقضي عليهم، ما عادت الجزيرة تسعني وإياهم!

(٣)

كانت نومة غير هنية تلك التي نامها عبد الرحمن بن محمد، حتّى إن جاريته (الزهراء) استيقظت من جرّاء فرط حركته وانتصبت لتنظر في وجهه، فرأته مستيقظًا مفتوح العينين... دقّقت الزهراء النظر، فإذا بعبد الرحمن يقول لها: ما بك تنظرين إليَّ هكذا؟

الزهراء: لم أعتد أن أرى الأمير مؤرقًا كما اليوم.

نهض عبد الرحمن واستند على ظهر السرير وقال: ذلك لأنّي لم أكُ أمير الأندلس من قبل.

الزهراء: وهل النوم والراحة محرّمان على الأمير؟

عبد الرحمن: لا نوم ولا راحة لمن تولّى أمر الأمة، فكيف أنام والأندلس تأكلها الفتنة يا زهراء؟ ثمّ أمسك بكوب ماء وارتشف منه قبل أن يستطرد قائلًا: إن نام الراعي عن رعيته أكلتها الذئاب، وما أكثر ذئاب الجزيرة!

ثمّ نهض من سريره وتوضّأ للصلاة، حتّى إذا صدع المؤذن لصلاة الفجر، كان عبد الرحمن في مسجد قرطبة يصلّي مع الناس، وما إن انتهى من صلاته حتّى عاد إلى قصره والحاجب بدر خلفه كظلّه، ثمّ راح عبد الرحمن يسير في حديقة القصر حتّى وقف تحت شجرة برتقال وهو يقول في نفسه: إنّ العدو الأكبر والتحدي الأعظم هو ابن حفصون وثورته، لهذا يجب القضاء عليه في أسرع وقت، ثمّ مدّ يده وقطف ثمرة برتقال بقوّة من الشجرة، ثمّ قذفها ليتلقفها الحاجب بدر الذي لم يتفوّه بكلمة، وقد علم أنّ الأمير يحدّث نفسه في صمت، فلم يشأ أن يقطع حديثه...

دخل عبد الرحمن القصر وخلفه حاجبه، وما إن جلس فيه حتّى نظر للحاجب وقال:

عبد الرحمن: هل عاد الرسول من ببشتر؟

الحاجب: أتى قُبيل الفجر يا سيدي.

عبد الرحمن: فأين الرد؟

الحاجب: لقد رفض الشقيُّ الطاعةَ وأعلن العصيان والتحدي يا سيدي.. ليس هذا فحسب بل تمادى ولم يرسل ردًّا، وقام بتهديد الرسول وأشهر السيف في وجهه.

عبد الرحمن: لقد فعل ما ظننته ولو فعل غير ذلك لخيّب ظنّي فيه.

الحاجب: أراك منشرح الوجه لما حدث يا سيدي، وإنّي لفي عجب من هذا.

عبد الرحمن: أجل يا ابن محمد فلو فعل غير ذلك لحقّ عليَّ ألّا أُحاربه مع يقيني بإضماره الشر، أما وقد أفصح فحقّ عليَّ أن أحاربه وأسحقه.

ثمّ قبض على يديه واستطرد: وهو إمام الضلال في الجزيرة... والآن هذا ابن حفصون، فماذا عن باقي العصاة والمارقين؟

الحاجب: لقد آثر لب بن الطربيشة إظهار الطاعة يا سيدي، وأرسل ببيعته لك وكذلك التجيبيون في سرقسطة، أمّا باقي العصاة فرفضوا البيعة وأعلنوا العصيان.

عبد الرحمن: مممم... لقد أثبت ابن الطربيشة وكذلك التجيبي فطنتهم، فهذه بيعة لن تكلّفهم شيئًا ولكنّها ستمنع عنهم جيوش بني أمية! ثمّ نهض عبد الرحمن من مجلسه وقال للحاجب بدر: أرسل من يستدعي لي (عباس بن عبد العزيز) و(الوزير ابن حدير)

الحاجب: أمرك سيدي.

خرج الحاجب وتحرّك عبد الرحمن صوب باب القصر وخرج منه ونظر في السماء البعيدة الملبّدة بالغيوم والسحب، وقال -وهو يقبض على يده-:

قسمًا يا عبد الرحمن بن معاوية لأعيدنّها كما كانت ولأجدِّدَنّ سيرتك العطرة ولأكونن خير خلف لخير سلف...

وبينما الأمير كذلك.. إذ أقبل عليه عباس بن عبد العزيز والوزير ابن حدير ... سلّم الرجلان على الأمير الذي تحرّك وهم خلفه حتّى دخل بَهْوَ السفراء في قصره، ثمّ جلس ومن ثَمَّ جلس الوزيران والحاجب.

الأمير: تعلمون ما كان من أمر العصاة والخارجين علينا، حتّى شغلونا عن متابعة الجهاد فاستفحل النصارى واقتطعوا المدن والقرى فأخذوا سمورة وعبرت قواتهم نهر دويرة... وإن لم نردعهم فسوف يملكون ما تحت قدميّ هاتين وتضيع دولة الإسلام في الأندلس... ولكن كيف نردعهم؟ ونحن نرى الخارجين قد أنهكوا الدولة وفرّقوا الجماعة بعد أن شقّوا عصا الطاعة، وقد علمتم أنّ سياسة آبائي وأجدادي نحوهم لم تأت بخير، بل زادوا من غيّهم وفجورهم، ونازعونا أمرنا، وقد عزمت ألّا أنام ولا أحد من رجالي حتّى تعود البلاد كما كانت، وإلّا فسلام على دولة الإسلام في الأندلس، وقد ندبتك يا ابن عبد العزيز فاخرج بقطعة من الجيش صوب قلعة رباح، ولا تعد قبل أن تطأها بخيلك وتعيدها لحوزة الإمارة، وفي نفس الوقت يخرج الحاجب بدر ومعه الوزير ابن حدير إلى مدينة إستجة، فلا تعودوا قبل أن تعود للجماعة.

الحاجب بدر (مستفسرًا): هل نخرج في آن واحد يا سيدي؟

الأمير: أجل يا بدر، فالوقت خصيمنا، وكلّ ساعة في حياة العصاة هي زيادة في رقعة بلاد أستورياس ونافارا وضعف لدولتنا في الأندلس.

الحاجب بدر: ولكن ألا نوحّد قوتنا يا مولاي؟

الأمير: بل اخرجوا كما أمرت، واكسروا أغمدة سيوفكم، فلا أغماد لها إلا صدور العصاة، واعلموا أنّنا قَلْبُ تلك الجزيرة وعَصَبُها، فقاتِلوا بذلك وانتصِروا...

وهكذا خرج الوزير (عباس بن عبد العزيز القرشي)، فقصد إلى منطقة قلعة رباح وكان قد ثار بها الفتح بن موسى بن ذي النون من زعماء البربر، ومعه حليفه الرياحي المعروف بأرذبلش، فوقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة، هُزم فيها الفتح بن موسى، وارتدّ مغلولاً إلى معاقله، وقتل أرذبلش، وبُعث رأسه إلى قرطبة، فرفعت فوق باب السدة، وطُهّرت قلعة رباح وأحوازها من الفتنة.

وسار الحاجب بدر والوزير ابن حدير في حملة أخرى نحو الغرب، واستردّ مدينة إستجة من أيدي العصاة أتباع ابن حفصون، وهدم أسوارها وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل، حتّى تعزل وتغدو بذلك عاجزة عن التمرد والخروج... ودخلها الحاجب بدر بن أحمد والوزير أحمد بن محمد بن حدير، وكان أولّ موضع افتُتح في أيّام الأمير، وبقي أحمد بن محمد الوزير قائدًا بها ومسكنًا لأحوال أهلها، ووُلِّيَ عمالتها حمدون بن بسيل...

(٤)

غزوة المتلون

في حانة صغيرة بالقرب من الجامع الكبير في قرطبة، وتحديدًا في سوق الورّاقين الكبير المشهور باحتوائه على كلّ جديد في العلوم والفنون، إذ اعتاد الوراقون في سوق قرطبة توفير كلّ جديد في عالم الكتاب، وتنافسوا على ذلك... ووسط أصوات الباعة والجائلين وزحمة الأقدام والأنفاس، جلس شاب لم يبلغ العشرين من عمره بعد، وقد ارتدى عمامة كبيرة، وراح يرتّب كتبه وينمّقها ويضع كلّ كتاب بجوار ما يشابهه من كتب، فهنا كتب النحو، وبصوبٍ آخر كتب الفقه وعلم الكلام، وهنا دواوين كبار الشعراء، وهنا كتب المشارقة ... قبل أن يمرّ عليه أحد الرجال ويطالع أسماء الكتب، ويمسك بأحدهم ويتصفحه قبل أن يعيده مكانه، ثمّ يقول:

الرجل: هل أجد لديك كتاب البخلاء للجاحظ؟

عمرون: آخر نسخة كانت عندي بعتها منذ يومين لرجل من إشبيلية، ولكن انظر إلى مَنْ هم بجواري، ربّما تجد لديهم ما تريد.

الرجل: حسنًا.

انصرف الرجل واستمرّ عمرون في ترتيب كتبه، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه صديقه خالد صاحب دكان الأقمشة فقال: لقد أتت الأخبار وإنّها لحق.

عمرون: أيّة أخبار يا أبا محمد؟

خالد: أبا محمد! لماذا تصرّ على هذه الكنية، تريد أن تشعرني بتقدّم العمر؟ لا تنسَ يا عمرون فأنا أصغر منك سنًا وقد تزوجت قبلك.

ضحك عمرون وقال: أجل أجل... أنت أصغر منّي سنًا، وإن كنت لا تريد هذا فحسنًا، ولكن أواثق أنت أنّه السن -فقط- الذي يجعلك لا تريد أن أذكرك بلقبك؟

(بوجه عبوس) قال خالد: ماذا تقصد؟

قهقه عمرون وقال: أخشى أنّك تخاف أن أناديك بلقبك، فتعرف النساء أنّك قد تزوجت؛ فينقطع أملك في مغازلتهن بعد أن ينقطع أملهن بالزواج منك فينصرفن عنك.

خالد: ربّما من الأحسن أن أنصرف عنك.

(مبتسمًا) قال عمرون: لا بأس لا بأس يا خالد، والآن اجلس، فأنت تعلم أنّي لا أحب غضبك.

جلس خالد عابس الوجه، فما كان من عمرون إلّا أن سامره حتّى انفرجت أساريره مرة أخرى، فسأله عمرون وقال: أيّة أخبار أتيت بها يا صديقي؟

خالد: أخبار الأمير عبد الرحمن وغزوته المباركة التي أطلق عليها اسم (غزوة المنتلون).

عمرون: مذ أن خرج بنفسه ...علمت أنّ هذا الرجل مختلف عمّن كانوا قبله.

خالد: وأيّ اختلاف! لقد أعاد الأمل لأهل قرطبة؛ فاطمأنوا بعد أن عاشوا سنوات من الخوف وعدم الأمان، فما إن خرج عبد الرحمن للغزو وتولّى القيادة بنفسه، حتّى أثار ظهوره في الصفوف حماسة الجند، وأكبروا شجاعته وإقدامه وتباروا في خدمته وطاعته والذود عنه، فكأنّهم بُعثوا من جديد، وكأنّهم تحت إمرة عبد الرحمن غيرهم تحت إمرة جدّه!

عمرون: ربّما لشعورهم بصدق عزيمته.

ابتسم خالد وقال: أصبت... فهو صدق العزيمة، وجسارة الإرادة... سار الأمير عبد الرحمن أولًا إلى الجنوب الشرقي، وما إن وصل إلى هناك حتّى ألقى الله الرعب في قلوب أعدائه، فبادروا إليه وقدّموا له الطاعة وانتسبوا وجنودهم لجيشه.

عمرون: أيعقل أن يفعل الخوف هذا؟

خالد: أجل يفعل ذلك، ناهيك عن خوف قادة إلبيرة أن يجمعوا بين عداوة الأمير وعداوة ابن حفصون الذي سلبهم الكثير من حصونهم، وقتل رجالهم وضيّق عليهم، فتسارعوا إلى طاعة الأمير نكاية بابن حفصون...

هزّ عمرون رأسه، بينما تابع خالد فقال: بعد أن تمّت له بيعة أهل إلبيرة اتّجه الأمير بهم وبجنده صوب كورة جيّان في وسط الأندلس، حيث كانت الثورة على أشدّها، وحيث كان ابن حفصون

أخطر الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية؛ فاستولى الأمير على حصن مَرتُش الواقع في طريق جيان، وسيّر في نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجادها، وكان يهدِّدُها الزعيم الثائر، فاحتلها وأمّنها، وكأنّه أراد أن يقصم ظهر الخائن ابن حفصون ويروّعه، وبعدها قصد عبد الرحمن حصن مونت ليون (حصن المنتلون) القريب منها، وكان يمتنع به زعيم من المولدين (هو سعيد بن هذيل)، فضربه بشدّة، وهاجمه حتّى اقتحمه، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان.

ثمّ اتّجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى حصن شمنتان، الواقع على مقربة من بيّاسة، وبه عبد الله بن الشالية، فاستسلم الثائر دون مقاومة، وطلب الأمان، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله. واستولى عبد الرحمن بعد ذلك على حصن منتيشة من يد صاحبه ابن عطاف، وافتتح سائر الحصون التي كانت بيد ابن حفصون من كورة جيان، وطهّرها من آثار الخروج والعصيان، وقدّم إليه سائرُ الزعماءِ الخوارجِ طاعتَهم، فتقبّلها وعفا عنهم.

وسار عبد الرحمن بعد ذلك جنوبًا إلى كورة ريّة، فاحتلّ منها سائر الحصون التي تدين بالطاعة لابن حفصون، واقتحم أمنعَ هذه الحصون، وهو (حصن شبليس) بعد قتال عنيف، وقتل من كان به من أصحاب الثائر، وفرّ أمامه جعفر بن حفصون ليلًا ولحق بأبيه، ثمّ استولى عبد الرحمن على حصن إشتيبن على مقربة من إلبيرة، واتّجه بعد ذلك إلى وادي آش فاحتلّ حصونها، ثمّ توغّل في شعب

جبل الثلج (سيرًّا نفادا) وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون، وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردّوه على عقبه، وما زال عبد الرحمن يجول في تلك الأنحاء يُخْضِع حصونها وينتسف أراضيها، حتّى قضى على كل عناصر الثورة والخوارج فيه ...

(٥)

مملكة ليون

في أقصى شمال الأندلس وعلى أحد فروع نهر دويرة العظيم وفوق تلّة مرتفعة منبسطة الساحة، كانت مدينة ليون المسوّرة بسور عظيم، ولمدينة ليون عدّة أبواب أهمها (باب بلايو)، أمّا شوارع المدينة وأزقّتها فهي ضيقة متعرجة، ومعظم بيوت ليون مبنية من الحجارة والحشائش تغطّي معظم ساحاتها.

وعند الكنيسة العظيمة (كنيسة سان إيزيدورو) وقف الملك (أردونيو الثاني) مرتديًا زيّه الملكي وعلى رأسه تاج يرمز لملك جيليقية، بعد تأبينه أخاه الملك (غارسية) ملك ليون، والدموع تذرف من عينيه، ثمّ نظر إلى وزيره غونثالو وقال: ليرحم الربّ أخي غارسية.

في مكر ودهاء نظر غونثالو للملك، ولسان حاله يقول: ليس في هذه المدينة أسعد منك يا أردونيو، وقد ورثت عرشًا لطالما حلمت به، فلن تخدعني بهذه الدموع الكاذبة التي هي في الحقيقة دموع فرح لا ترح، وقال- بنبرة حزن مصطنعة-: نعم ليرحمه الربّ يا سيدي».

تنهّد أردونيو، ثم نظر يمينًا ويسارًا قبل أن يقول: هيّا.. يجب أن نعود إلى القصر، إذ لا فائدة من وجودنا هنا بعد أن وارينا الملك غارسية الثرى.

غونثالو: هل سنعود اليوم إلى أوفييدو يا سيدي؟

أردونيو: ولماذا أعود إليها؟

غونثالو: أليست هي عاصمة ملكك يا سيدي؟

أردونيو: كانت عاصمة ملكي، ثمّ استدار ونظر إلى المدينة وأزقّتها واستطرد قائلًا: أمّا الآن فقد صارت ليون عاصمة ملكي ودولتي، هيّا يا غونثالو، هيّا إلى قصر ليون.

ثمّ امتطى أردونيو فرسه وأحاطه الجند وتحرّك صوب القصر، وهو ينظر إلى أزقّة وشوارع ليون الضيقة، وكانت الشمس قد مالت للمغيب، حتّى إذا دخل القصر وجلس على كرسي العرش نظر إلى غونثالو وقال: أرسل إلى الملكة في أوفييدو من يحملها إلى هنا.

غونثالو: أمرك سيدي.

وهكذا وبوفاة غارسية ملك ليون، تولّى أخوه أردونيو الحُكْمَ مكانه وجلس على عرشه، ليجمع بذلك مُلك جيليقية وليون...

(٦)

طلبيرة

مالت الشمس إلى المغيب في تلك البقعة من مدينة (طلبيرة) تلك المدينة المتاخمة لحدود مملكة ليون، ومدينة طلبيرة تقع إلى الشمال الغربي من طليطلة ويخترقها نهرالتاجة بعد أن يخترق طليطلة، وتعدّ طلبيرة أقصى ثغور المسلمين وبابًا من الأبواب التي يدخل منها المشركون إلى الأندلس، وتكثر في طلبيرة الأسواق الجميلة، وتحيط بها المزارع المتنوعة والأشجار والثمار ولها على نهر التاجة أرحاء كثيرة.

استعدّ المزارعون للعودة إلى منازلهم بعد عمل شاق استغرق النهار كلّه في بداية موسم الحصاد، وراح بعضهم يجمعون أدواتهم ويعيدون ماشيتهم إلى حظائرها في حين انهمك البعض الآخر في جمع المحاصيل التي تمّ حصادها طيلة النهار ووضعها في أكياس ضخمة مُعدّة لهذا الغرض.

نظر أحد الفلاحين إلى الزروع والأشجار حوله، ثمّ قال في سعادة بالغة:

المحصول جيد هذا العام ... لم أكن أتوقّع مثله.

ابتسمت زوجته التي كانت تساعده وقالت: الحمد لله الذي نجّانا من القحط الذي حلّ بقرطبة وباقي مدن الأندلس.

تنهّد الزوج وقال: آه يا أسماء... من كان يظنّ أنّ تلك البلاد الباردة تفيض بالغلال والأمطار بينما تئنّ باقي المدن من الجوع بعد أن أجدبت الأرض وانقطع المطر، ولكن ندعو الله أن يفرّج كربهم ويشبع جوعهم ويؤمن خوفهم.

أسماء: آمين...والآن ألا نعود إلى البيت؛ فقد كادت الشمس أن تغيب؟

الزوج: ما زال لديّ حبّ للعمل وقوّة لم تنضب بعد.

الزوجة: لنؤجّل هذا للغد، وإلّا سيجنّ الليل وتُظلم علينا...

نظر الرجل إلى زوجته في حنُو، ثمّ بدأ في وضع أدواته على بغلته وأمسك لجامها وقال: لا بأس يا أسماء، لنعد اليوم على أن نكون هنا منذ الصباح الباكر إن شاء الله... ثمّ التفت إلى يمينه ويساره وقال: أين سميّة؟

نظرت الزوجة هنا وهناك فلم تجد الفتاة، ثمّ قالت: يجب أن تكون عند الناعورة بالقرب من النهر.

الزوج: لا أعلم سببًا لحبها في المكوث هناك معظم اليوم.

الزوجة: إنّها تلهو وتلعب مع أقرانها من الصبية، فلا عليك يا أبا سمية، ثمّ انطلقت أسماء تجاه الناعورة وهي تصيح وتنادي: سمية.. أين أنت يا بُنيتي.. لقد تأخّر الوقت، وحان وقت العودة إلى المنزل.

وبينما هي تبحث عن ابنتها، إذ بأصوات حوافر وصهيل خيل قادم من بعيد، التفتت أسماء إلى مصدر الصوت، فإذا مجموعة كبيرة من الجند تحمل أعلام ليون، وهي مدجّجة بالحديد والسلاح تتقدّم بسرعة رهيبة نحو القرية ومزارعها...

ارتفعت الأصوات والصرخات وانهمرت الدموع وتفتّتت القلوب وزاغت الأبصار، وتوقف الجميع عن الحركة، بل لم يحاول أحدهم حتّى مجرد الهروب، فمن ذا الذي يهرب ويترك أطفاله ونساءه؟

اقتربت الأصوات أكثر فأكثر.. ولمعت أسنّة السيوف وهَوَتْ على رقاب الرجال تقتلهم وهم لا يملكون دفاعًا عن أنفسهم غير الفُئُوس التي يحملونها، وماذا تفعل تلك الفُئُوس في وجه السيوف اللامعة والحراب الطويلة القاتلة؟!، وماذا يفعل المزارع البسيط في وجه جندي مدرّب لا يعرف غير القتل والدم؟! أمّا أسماء ففزعت تنادي على سميّة مخافة أن يطالها النصارى قبل أن تطالها هي...

لم يمض الكثير من الوقت حتّى اختلط تراب تلك البقعة بدماء الرجال والأطفال، وتناثرت الأشلاء، وسالت أنهار من الدماء وامتزجت بالأرض، وقُتلتْ أسماءُ قبل أن تجد ابنتها...

أرواح عديدة أُزْهِقَت دون شفقة أو رحمة، فحتّى النساء لم يرحمهنّ هؤلاء، بل قتلوهنّ جميعًا، ثمّ ترجّل قائد المجموعة ونزل عن صهوة جواده وقال:

- احملوا أمتعتهم وخيلهم ولا تتركوا شيئًا.

ردّ أحد الجنود: أمرك سيدي.

نظر القائد إلى المَزارع وقال: لقد غابت الشمس، فما الذي يمنعنا أن ننير تلك البقعة البائسة، ثمّ استطرد وقال: احرقوا تلك الزروع فما لا نستطيع حمله، سنحرقه .. اتركوها قاعًا صفصفًا.

انطلقت مجموعة من الفرسان تحمل الدمار والموت، وقاموا من فورهم بإشعال النيران في تلك المنطقة، ثمّ عادوا وكأنّ شيئًا لم يكن...

أمّا سمية ابنة الثمانية أعوام فقد نجت من القتل، لكنّها لم تنج من الأَسْرِ، فقد كانت وقت المذبحة قد ابتعدت كثيرًا واختفت عن الأنظار، إذ كان الفتى يوسف بن هشام الذي يكبرها بعام واحد فقط قد ابتعد بها عن الغيطان، وهما يلهوان ويلعبان، ولم يشعر الطفلان إلّا وقد جنّ الليل، فلم يستطيعا العودة إلى حيث كان أهل القرية، حتّى خافت سميّة وراحت تؤنّب يوسف قائلة له:

سميّة: لقد أخبرتك ألّا نبتعد كثيرًا! فماذا سأقول لأمّي الآن؟

يوسف: لا بأس عليك يا سميّة.. فسوف أشفع لك عندها.

سميّة: تشفع لي! ومن سيشفع لك أنت؟ والآن كيف لنا أن نعود وقد نسيت طريق العودة بعد أن أوغلت في السير؟

يوسف: سنجلس هنا حتى يعثروا هم علينا، فقطعًا لن يعودوا إلى الديار ويتركونا، فلا تخافي ولا تخشي شيئًا فأنا معك.

سميّة: وماذا لو خرج علينا الآن بعض اللصوص؟

أخرج يوسف خنجرًا من ثيابه وقال: عندها سأقطّعهم ولن يصلوا إليك.

شعرت سمية ببعض الأمن عندما رأت الخنجر وحِرص يوسف على سلامتها؛ فاطمأنت قليلًا وجلس الطفلان ينتظران من ينقذهما من ظلام الليل وسكونه.

لم يمر وقت طويل حتّى سمع الطفلان أصوات حمحمة الخيول تقترب، فهّب يوسف واقفًا ونظر إلى مصدر الصوت وقال بثقة كبيرة: ألم أقل لك لن يعودوا بدوننا.

ابتسمت سميّة ولم تتحدّث، ولكن قطعت ابتسامتها عندما رأت القادمين مدججين بالسلاح والحديد حاملين على صدورهم الصلبان، عندها اختبأت سميّة خلف يوسف لائذة به، بينما أخرج الفتى خنجره استعدادًا للذود عن سميّة وعن نفسه.

توقّف الجند القادمون عند الطفلين، ثمّ قال أحدهم بصوت مرتفع: طفلان يا سيدي من أطفال القرية.

نظر القائد إلى الطفلين المفزوعين، ثمّ قال: احملوهم معكم ولا تقتلوهم.

صرخت سميّة وغرقت في البكاء، بينما حاول يوسف المقاومة فراح يلكز هذا بقدمه وهذا بيده، فما كان من أحد الجنود إلّا أن ضربه بقبضة سيفه حتّى يستطيع السيطرة عليه ومن ثَمّ حمله بعد أن أخذ الخنجر منه...

(٧)

كانت الضحكات تملأ القصر وكُئُوس الخمر تدندن هنا وهناك، بينما يقول أردونيو: يجب ألّا تتوقف تلك الحرب حتّى نفنيهم عن آخرهم... يجب أن نُحسن استغلال تشتّتهم وتصارعهم وما يقع بينهم من صراعات وحروب.

بصوت ضاحك قال غونثالو: وما الذي يوقفها يا سيدي؟ فحكومة قرطبة قد أعياها القحط وحليفنا ابن حفصون لا ينفكّ يؤرّق مضاجعهم، لهذا لا أظنهم يا سيدي يجمعون بين عداوتنا وعداوة ابن حفصون، بل أجزم أنّهم لن يجرؤوا على الخروج إلينا وإثارة نقمتنا.

أردونيو: أجل يجب لذلك أن يحدث، يجب أن يعلم هؤلاء أنّ أيّام سعدهم في هذه الجزيرة قد انتهت، وأن جيوشهم لم تعد تلك الجيوش الغازية بل الجيوش المدافعة المهزومة العاجزة.

غونثالو: أتعلم يا سيدي، تقول العيون: أنّ أمير قرطبة الجديد ليس كمن سبقه من أمرائهم.

أمسك أردونيو بكأس خمرته وارتشف منها، ثمّ قال:

وأنا -أيضًا- لست كمن سبقني من ملوكنا، بل لم تعد الجزيرة هي تلك الجزيرة التي لا قوّة فيها غير قوة المسلمين ... ثمّ نهض وتحرّك من عرشه، فهبّ غونثالو من مكانه فأشار له أردونيو فعاد إلى جلوسه، بينما أمسك أردونيو بقنينة الراح وصبّ في كأسه ثمّ قال: أتعلم يا غونثالو.. أفكّر في استغلال ما تمرّ به قرطبة من قحط وحروب داخلية لأوجع أميرها.

غونثالو: كيف ذلك يا سيدي؟

أردونيو: يجب أن ندفع حدودنا صوب الجنوب.

رفع غونثالو كأس خمره قبل أن يقول: وأنا أؤيّد ذلك يا سيدي، خاصة وأنّ المسلمين قد خبت قوتهم وصار بأسهم بينهم شديدًا، لدرجة أنّي لا أذكر لهم آخر حرب هاجمونا فيها.

أردونيو: هم لا يهاجمون، ولن يهاجموا، بل يكتفون بالدفاع «إن استطاعوا إليه سبيلًا».

غونثالو ضاحكًا: نعم، «إن استطاعوا إليه سبيلًا»...

(٨)

يابرة

رفع أردونيو يده ووضعها فوق عينيه في محاولة منه لمنع تسرّب ضوء الشمس إليها، ثمّ نظر إلى جنوده خلفه وقال بصوت مرتفع: لن نتوقّف حتّى نطأ بخيولنا صدور المسلمين، ثمّ لكز بطن جواده وترك له العنان ليتحرّك الفرس وخلفه ثلاثون ألف مقاتل هم كلّ جيشه ...

وبحركة مماثلة وضع غونثالو يده على حاجبيه ونظر إلى أردونيو وقال: إنّي لأشمّ رائحة الدماء من هنا يا سيدي.

أردونيو: لقد تعودّت على دمائهم إذًا.

ضحك غونثالو بصوت ساخر وقال: وإنّي لأجدها ريحًا زكيّة.

أردونيو: سيكون أمامك الكثير من الوقت لإسالة الكثير منها.

غونثالو: وإنّي لفي شوق لذلك يا سيدي.

أخذ أردونيو نفسًا عميقًا -وهو على متن جواده- ثمّ قال: لنفعلها إذًا...

كان القلق باديًا على وجه (مروان بن عبد الملك بن أحمد) عامل يابرة، وهو يخرج من قصره وخلفه ثلّة من الجند قد أحاطوا به، وبخطوات متسارعة تحرّك مروان وامتطى صهوة جواده وكذلك فعل الجند، ثمّ خرج بهم فاخترق أزقّة المدينة وشوارعها الضيقة المليئة بأشجار البرتقال والليمون، حتّى إذا وصل إلى أسوار المدينة أصدر أوامره بإغلاق الأبواب، ثمّ نظر إلى الجندي القريب منه وقال (في حسرة): من كان يظنّ أن يصل بنا الحال إلى هكذا حد؟ من كان يظنّ أنّ الثلاثين جنديًّا الذين تركهم (عقبة بن الحجاج) يصيرون دولة؟ من كان يظنّ أنّهم سيخرجون من جبالهم ويهاجمون مدننا وينتهبون أموالنا وينتسفون زروعنا؟!

نظر الجندي إلى مروان وقال في حسرة: لو علم ابن الحجاج ذلك ما تركهم.

تنهّد مروان وقال: خطأٌ تَبِعَهُ أخطاء. ثمّ نظر إلى الأسوار وقال: هل تظنّ أنّهم يستطيعون تسلّق تلك الأسوار؟

الجندي: لا أظن ذلك يا سيدي.

هزّ مروان رأسه في غير رضى وقال: رحم الله من بناها، أما كان من الأجدر لو جعل فيها أبراجًا للحماية والمراقبة؟!

الجندي: ربّما لم يتخيل يا سيدي أن يأتي اليوم الذي يُحارب فيه المسلمون مِن خَلْفِها!!

مروان: أجل أجل... فمن لم يحْمِه سيفه لن تحميه حجارة مرصوصة وأبراج موضوعة... ثمّ سحب رسن جواده وانطلق إلى داخل المدينة.

وفي ساحة يابرة الكبرى بجوار مسجدها الجامع وقف مروان يخطب في الناس ويقول: يا أهل يابرة لا مفرّ لكم اليوم إلّا سيوفكم، فدافعوا عن مدينتكم وعن أعراضكم ونسائكم ... لقد انشغلنا عن مدافعة النصارى حتّى استأسدوا علينا وجلبوا علينا بخيلهم ورجالهم، فليروا منكم اليوم ما لم يروه من قبل، وقد أرسلنا إلى صاحب بطليوس في طلب النجدات ولا أظنّه يخذلنا، وإنّي لأطلب من كل من استطاع حمل السلاح منكم أن يحمله ويدافع عن المدينة وأسوارها، فلا تُؤتى بلاد المسلمين مِنْ قِبَلِكُمْ...

أمّا أردونيو فما إن وصل إلى أسوار (يابرة) حتّى هاله ضخامتها ومتانتها، فسقط في يده، وشعر ببعض العجز، ثمّ نظر إلى غونثالو وقال مندهشًا: ما هذا... كيف صنعوها؟

كان غونثالو فاتحًا فاه من التعجب الشديد قبل أن يغلقه ويبلع ريقه ويقول: لا أعلم، فأنا لم أرَ مثلها من قبل!

أردونيو: اللعنة عليهم.

غونثالو: رغم ذلك فلن تُعدم هذه الأسوار نقطة ضعف نستغلها، فلو أذن لي سيدي، أن أخرج بثلّة من الجند فأحيط بتلك الأسوار؛ علّني أجد نقطة الضعف هذه فنهاجمها منها يا سيدي.

أردونيو: افعل... بينما أقف - أنا هنا- صوب هذا الباب.

انطلق غونثالو بثلّة من الجند وبدأ يدور حول السور علّه يجد منه نقطة ضعف يهاجم منها المدينة ... بينما أمر أردونيو رجاله فنصبوا المعسكر جهة باب المدينة الرئيسي...

مرّ الوقت وغونثالو يلعن السور ومن بناه، وهو يقول في نفسه: أكاد أن أجنّ، كيف لسور لا يوجد له نقطة نهاجمه منها؟ وبسخط أكمل: اللعنة على الأسوار واللعنة على العرب، وبينما يتحرّك بخيله، إذ أزكمت أنفه رائحة كريهة آتية من جهة الأسوار ... بدأ غونثالو يشمشم بأنفه ويتساءل بصوت مرتفع مستغربًا: ما هذا؟

ردّ أحد الجنود فقال: ربّما جيف ميتة يا سيدي؟

غونثالو: يجب أن نتبيّن الأمر.

تحرك غونثالو صوب مصدر الرائحة، فإذ بأكوام زبل مرتفعة من زبول أهل المدينة كانوا قد اعتادوا إلقاءها عند أصل الأسوار من خارجها حتّى كادت تساوي في بعض الأماكن السور نفسه.

نظر غونثالو إلى أكوام الزبالة بفرح شديد استغربه منه جنده، فسأله أحدهم: هل وجد الأمير في أكوام الزبالة ما أثار إعجابه؟

نظر غونثالو إلى الجندي نظرة حادة، فخفض الجندي رأسه، بينما سحب غونثالو رسن حصانه وانطلق، فقال له أحد الجنود:

الجندي: سيدي ألن نكمل عملنا؟

غونثالو: قد قُضيت حاجتنا.

ثمّ انطلق بسرعة.. حتّى إذا وصل إلى أردونيو وجده قد عسكر بجيشه، وتمّ نصب خيمة له أمام باب المدينة... بسرعة دخل غونثالو الخيمة فابتدره أردونيو وقال (مستفسرًا): هل وجدت لنا منفذًا؟

(بابتسامة خبيثة) قال غونثالو: أجل يا سيدي فقد جاء الفرج.

نهض أردونيو وقال: كيف؟

غونثالو: أكوام الزبالة يا سيدي؟

أردونيو(باستهجان): ماذا؟

غونثالو: أكوام زبالة يا سيدي.. سنستخدمها لاقتحام الأسوار، إذ وجدتُ في الجهة الغربية من المدينة أكوامًا من الزبالة تكاد أن تساوي في ارتفاعها أسوار المدينة، فلو أنّنا استخدمناها لصعد منها جنودنا وباغتوا المدينة... إنّها يا سيدي تمثّل منحدرًا لن نجد له مثيلًا ومفاجأة لن يحسب العرب لها حسابًا.

برقت عين أردونيو وقال بغبطة: لن أنسى لك هذا يا غونثالو، وليتمّ الاقتحام في الحال.

غونثالو: ألن نصبر حتّى الصباح يا سيدي؟

أردونيو: لقد بعدت المسافة بيننا وبين بلادنا ولا نأمن مكر العرب، فماذا لو وصلتهم نجدات؟!!

غونثالو: أمرك سيدي.

كان (مروان بن عبد الملك) في قصره وسط نسائه عندما دخل عليه أحد الخصيان مرتعبًا وهو يقول: سيدي لقد هاجم الروم المدينة.

نهض مروان ولمعت عيناه وقال متفاجئًا: هاجموا المدينة! بهذه السرعة!، ثمّ خرج إلى بهو قصره، فإذا بأحد الجند يقول له: لقد ارتقى الروم السور يا سيدي.

(بصوت غاضب) قال مروان: كيف ذلك؟

الجندي: استعملوا أكوام الزبالة بدل السلالم يا سيدي.

أمسك مروان سيفه ونظر للجندي وقال له: اتبعني... ثمّ خرج من قصره، فالتفَّتْ حوله جموع الناس والجند، فخطب في الناس يحضّهم على الحرب والموت في سبيل الله، ثمّ خرج ليلتحم بالمهاجمين، لتدور معركة رهيبة كان يرى مروان أنّ الهزيمة فيها تعني أن يدخل الروم المدينة ويقتلوا كلّ أهلها، لذا وبشجاعة كبيرة تقدّم ورفع سيفه وبدأ في الضرب هنا وهناك وخلفه جيش ثائر وشعب غاضب.

مرّ الوقت وتعالت الأصوات وطلع الفجر؛ فأنار المدينة، فإذا بحرب شوارع شديدة لا تتوقف، حميت الحرب ما بين كرّ وفرّ، وتمكّن المسلمون أخيرًا من طرد النصارى إلى خارج المدينة.

نظر ابن عبد الملك إلى الأسوار وسيفه يقطر دمًا وقال: ليرتقِ الجنود تلك الأسوار وليدافعوا عنها، ثمّ نظر إلى عامة الشعب وقال: أمّا أنتم فاعلموا أنّكم لستم في مأمن «حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا»، فلا أمن وأمان وهؤلاء مرابطون على أسوارنا...

وفي خارج المدينة كان أردونيو يتحرّك هنا وهناك وهو يقول (بغضب): كيف استطاعوا أن يطردوننا منها بعد أن دخلناها... كيف؟

غونثالو: لقد تكاثروا علينا يا سيدي، وقادهم والي المدينة، الذي ما إن رآه عامة أهل المدينة يقاتل بدون درع حتّى دبّت الحماسة فيهم، فقاتلوا قتال من حرص على الموت؛ فوهِبت لهم الحياة.

أردونيو (بسخط): اللعنة عليه لن أغفرها له إن ظفرت به... ثمّ نظر إلى غونثالو وقال: مُر النبالة فليتسابقوا على قتل من يحمي الأسوار، يجب أن نجبرهم على ترك مواقعهم.

غونثالو: أمرك سيدي.

أعاد النصارى تجميع صفوفهم وكرّوا على يابرة كرّة رجل واحد، فاستطاعوا دخول المدينة مرّة أخرى، فاستحل القتل، وذهب من الطرفين الكثير من الخلق والأبرياء، ثمّ تكاثر النصارى وألجأوا المسلمين إلى موضع قريب من السور وكان موضعًا ضيقًا تضايقوا فيه لازدحامهم، ولم يمكّنهم التغلب فيه لضيقه وضغط تراكمهم فقتلوا جميعًا، ولم ينج من المسلمين سوى عشرة رجال تمكّنوا من ارتقاء آثار عالية وظلّوا يقاتلون ضدّ النصارى حتّى جنّ الليل، وعندئذ غادروا موقعهم إلى (باجة) تحت جنح الظلام.

وفي صباح اليوم التالي أمر أردونيو بالبحث عن (مروان بن عبد الملك) فوجدوه قتيلًا، فأمر بأن تُسبى كلّ نسائه وكذلك نساء المدينة، فبلغ السبيُ أكثر من أربعة آلاف من النساء والولدان، وترك أردونيو المدينة خرابًا يبابًا، وعاد في قواته إلى جيليقية...

(٩)

في قصر (برغش) القديم، وفي أحد غرفه المظلمة الموحشة، سُجن يوسف وسميّة، وهما لا يعلمان ما جريمتهما، ولماذا اقتادهما الجنود النصارى إلى هنا؟ وكانت سميّة لا تنفكّ تبكي، بينما تماسك

يوسف وراح يخفف عنها وهو يقول: هوِّني عليك يا سميّة، فلن يدوم ما نحن فيه.

بعيون مليئة بالدموع نظرت سميّة إلى يوسف وقالت: ما زلنا هنا منذ أيّام ولا نعلم أين نحن ولا نعلم حال أهلنا، ولا نعلم متى يطلقنا هؤلاء ويعيدوننا لديارنا.. فما الذي يدعو للتفاؤل؟

يوسف: وجودنا سويًّا وعدم تفرّقنا هو ما يدعو للتفاؤل.. وهو المهم الآن.

جفَّفَت سميّة دموعها بيدها، وكأنّها استشعرت خطرًا آخر قد يأتي وهو بُعدها عن يوسف الذي لا تعرف هنا أحدًا سواه، وقالت: وهل يمكنهم أن يفرّقوا بيننا؟

يوسف: يمكنهم إن أرادوا.

سميّة متوسلة: يجب أن نكون سويًّا، فإن أرادوا أن ينتزعوك منّي أو ينتزعوني منك، فلتخبرهم أنّنا لا نستطيع ذلك.

يوسف مطمئنًا إيّاها: لا تجزعي يا سميّة، سأفعل ما تحبّي.

تنهّدت سميّة، وكأنّها استشعرت بعض الأمان في وعد يوسف لها أن يظلّ معها، وقالت شاكرة: الحمد لله أنّك ما زلت معي.

يوسف: الحمد لله.

سميّة: تُرى إلى متى سنظلّ ها هنا؟

يوسف: لا أعلم.. ولكن لقد عاد صاحب الدار وربّما يطلقنا اليوم، إذ لا فائدة تُرتجى من سجنه لنا... أتعلمين لقد اشتقت لأهلي ومللت تلك الجدران التي تحاصرنا وكأنّها السجن.

سميّة: وأنا أيضًا أشتاق لأمي وأبي.

وبينما هما كذلك، إذ سمعا أصوت أقدام تقترب، فارتعدت سميّة والتصقت بيوسف الذي لم يكن أقلّ خوفًا منها، وتعلّقت أعينهما بالباب الذي فُتح ودخل عليهما (غونثالو ومعه ابنه فرنان).

نظر يوسف وسميّة إلى غونثالو يسترحمونه بأعينهم، بينما نظر إليهما فرنان غونثالث بنظرات حادة فخفّضت سميّة وجهها متقية نظرات فرنان، بينما لم يأبه يوسف وظلّ ينظر هنا وهناك، ثمّ قالت سميّة (بصوت يخالطه البكاء): سيدي متى نعود إلى ديارنا؟

غونثالو: هوِّني عليك يا صغيرتي، فقد صارت هذه الديار دياركم.

سميّة ببراءة الأطفال: لكن يا سيدي لقد اشتقت لأمّي، وهي الآن تبحث عنّي، ولو لم أعد إليها فستظلّ تبكي.

غونثالو: دعك من هذا الآن. ثمّ نظر إلى يوسف وقال له ما اسمك يا فتى؟

يوسف: اسمي يوسف.

غونثالو: يوسف! ليكن من الآن اسمك خوسيه.

يوسف: لكنّي أحبّ اسمي يا سيدي.

انفجر غونثالو وقال (بصوت غليظ): « أحبب ما تريد ولكن افعل ما أريده أنا، ثمّ التفت إلى سميّة وقال لها: وأنت ستلحقين بالقصر للعمل فيه ...

(١٠)

أراد أردونيو استغلال نجاحاته المتتالية وعدم وجود قوّة إسلامية حقيقية تجابهه، وقد كان أردونيو يطمح في الوصول بدولته إلى نهر التاجة، وكان يرى أن طليطلة هي العاصمة الحقيقة لدولته، لذا تحدّث إلى غونثالو في ذلك، فردّ عليه الثاني وقال: إن طليطلة هي حلمنا يا سيدي، غير أنّه حلم بعيد المنال في الوقت الحالي.

أردونيو: لكن معنا من القوات ما يجعلها حلمًا قريب المنال.

غونثالو: ستصمد يا سيدي في وجهنا، ولا نأمن من يأتينا من خلفنا إن نحن ضربنا عليها الحصار، كما أنّ طليطلة يا مولاي لن تسقط في أيدينا إلّا بعد أن نأخذ كلّ حصونها ونقطع عنها أسباب الحياة.

أردونيو: فماذا إذًا؟

غونثالو: نتحرّك يا سيدي صوب الغرب، فهو بعيد عن قرطبة، وبين كلّ مدينة ومدينة مسافات بعيدة، ما يعني أنّ أيّة مدينة سنهاجمها لن ينجدها أحد من خارجها.

أردونيو: نعم الرأي يا غونثالو.

جمع أردونيو جيشه الذي وصل تعداده ستون ألف مقاتل، سار بهم مرّة أخرى إلى منطقة الغرب، وعبر نهر التاجة، وقرَّرَ أن يباغت بعض الحصون، وكي تتحقّق له هذه الميزة، فقد اتخذ طريقًا غير معروف، غير أنّه ضلّ الطريق وكاد وجيشه أن يهلك بين شعب الجبال، وهنا توقّف ورفع يده عاليًا وصرخ في جيشه وقال: توقفوا.

توقّف الجميع، ونظر غونثالو لأردونيو وقال: لمَ يا سيدي؟

أردونيو: انظر إلى هذه الجبال اللعينة، لا ندري نهاية لها، ولا ندري هل نحن بالاتجاه الصحيح أم سنهلك وسطها، وقد كاد الزاد ينفد وبلغ التعب منّا كلّ مبلغ، فابحث لنا عن دليل يخرجنا من هذه المسالك العجيبة.

غونثالو: أمرك سيدي.

تحرّك غونثالو ومعه عشرة من الجند، يبحثون عن مخرج لهم من تلك الجبال أو دليل يساعدهم للخروج منها، حتّى وجدوا مجموعة من البربر يرعون الأغنام في شعب الجبال... اقترب منهم غونثالو وقال لهم: هل لكم بجائزة عظيمة تغنيكم عن رعي الأغنام؟

ردّ أحدهم وقال: أجل، فكيف ذلك يا سيدي؟

غونثالو: نريد مَنْ يخرجنا مِن تلك الجبال باتجاه الغرب وسنغنيه مدى الحياة.

أحدهم: أنا لها، فإنّي خبير بمسالك تلك الجبال.

غونثالو: نريد اثنين، فإن ضلّ أحدكما ينبّهه الآخر.

ردّ ثان وقال: أخرج أنا معكم.

وهكذا وجد غونثالو من يدلّه وسيده على الطريق، فأخذ الدليلين وتحرّك صوب أردونيو الذي تنفّس الصعداء، ورغم أنّه لا يحبّ المسلمين أبدًا، فقد رضي أن يستفيد منهم ويستعين بهم.

تحرّك أردونيو وجيشه يقودهم اثنان من بربر مصمودة المسلمين، الذين ما إنْ عَلِمَا بنيّة (أردونيو) حتّى قررا أن يُهلكا الجيش ويُدخلانه في مفاوز قاتلة، اتجه أردونيو جنوبًا صوب حصن مدلين، وقاده الدِليلان المسلمان من طريق صعبة ووعرة، فلم يخرج منها إلّا وقد أنهك جيشه، فأمر بالدليلين فأُعدما، وسار حتّى وصل إلى الحصن، فاستولى عليه دون مقاومة وأصاب فيه بعض الغنائم، ثمّ سار إلى قلعة الحنش (ألانية)، الواقعة جنوبي ماردة، وكان يسكنها يومئذ برانس كتامة، وكانوا في عدد وافر وعلى أتمّ استعداد للمقاومة، وكان المقدم عليهم يسمى بابن راشد، فهاجم النصارى الحصن، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشدّ دفاع، ولكنّهم هُزموا في النهاية وقتل معظمهم، وقتل ابن راشد فيمن قتل، ودخل النصارى الحصن فقتلوا كلّ من وجدوه، وسبوا النساء والذريّة، وهدموا الحصن، ثمّ سار أردونيو في اليوم التالي إلى ماردة، ولكنّه وقف أمامها ذاهلاً من حصانتها، فاعتزم الكفّ عن قتالها، وبعث إليه قائد المدينة محمد بن تاجيت رسولاً يستلطفه، وأهدى إليه فرسًا رائعًا من عتاق الخيل بسرجه وعدته، فقبله وأعجب به، وتركهم ورحل عنهم.

ولكنّه عاث حين قفوله في تلك المنطقة، وقتل وسبى كثيرًا من سكّانها، واستولى على بعض قلاعها، ثمّ قصد إلى مدينة بطليوس، فارتاع أهلها واسترضوه بالمال والحلي، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقّلين بالغنائم والسبي دون أن يعترض سبيلهم معترض...

(١١)

كان الضجر واضحًا على عمرون الوراق وهو يجلس بين كتبه يندب حظّه، ويضرب كفًا بكف ويقول: « لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون»، ظلّ يردّدُها طوال الوقت والحزن باد عليه، لذا لم يشعر بوجود صديقه خالد القمّاش عندما دخل عليه وسأله: ما لي أراك مهمومًا أيها الوراق؟

انتبه عمرون للصوت ونظر إلى صديقه وقال: ومن في قرطبة كلّها سعيد يا خالد، بل إنّ الأمير نفسه لم يكد يهنأ بمولد وليّ عهده حتّى حدث ما حدث... انظر حولك هل هذه قرطبة التي عهدناها؟ إنّه مشهد مؤثر حزين يثير ألوانًا من اللوعة والحسرة، فهؤلاء قد اصفرّت وجوههم واختلجت نفوسهم ومادت بهم الأرض فسقطوا عليها كالموتى، وأولئك قد خنقتهم العبرة وعقدت الدهشة ألسنتهم فسالت دموعهم غزيرة تعبّر عمّا في نفوسهم من لوعة وحسرة وحرمان، لقد ذهبت السعادة فما عاد يستشعرها أحد.

بوجه حزين هزّ خالد وجهه وقال: بلى يا صديقي لا أحد فيها سعيد، بل لا يكاد يخلو بيت من بيوت قرطبة من الحزن والحداد.

عمرون: أجل... صرنا نزور القبور أكثر ممّا سواها «ولا حول ولا قوة إلا بالله».

خالد: ماذا عن تجارتك يا عمرون؟

تنهّد بحسرة.. ثمّ قال تجارتي؟ إنّها خاسرة يا صديقي، ولولا أموالٌ ادخرتها منذ زمن لكنت اليوم أولّ متسول في الأندلس!

ضحك خالد وقال: وأمّا أنا فلولا بيعي الأكفان ما وجدت ما أتقوّت به، فسبحان من جعل في الموت رزقًا كما في الحياة.

عمرون: هيّا يا خالد، أريد أن أتجوّل معك في أسواق قرطبة علّني أجد فيها ما ينسيني ما أنا فيه.

تحرّك الرجلان وهما يشاهدان أحوال الناس، والحزن مسيطر على غالبية أهل قرطبة، والبياض رداؤهم، حتّى إذا دخلا سوق الغلال والحبوب إذ بامرأة عجوز تمرّ من أمامهم وتتوقف عند بائع الحبوب وتسأل: بكم القفيز يا ولدي؟

بائع الحبوب: القفيز بثلاثة دنانير يا أمّاه.

العجوز: لقد اقتربت القيامة «ولا حول ولا قوة إلا بالله»

كان الغضب يسيطر على (عبد الرحمن) وهو يقبض على يده ويضرب بها جانب الكرسي ويقول: اللعين... استغلّ ما نمُرّ به من محن وقحط، فقتل وسلب ونهب وأحرق الأخضر واليابس، فقتل كلّ أهل (يابرة) وسبى نساءها ومثّل بجثة عاملها (مروان بن عبد الملك) ثمّ احتلّ حصن مدلين وفعل به الأفاعيل، وبعدها قلعة الحنش، وأيضًا قتل كلّ أهله وسبى كل نسائه.

الحاجب بدر: لكنّ تلك المناطق كلّها خارجة عليك يا سيدي، ولست المسؤول عنها.

رمق عبد الرحمن حاجبه بنظرة حادة، ثمّ قال: حتّى وإن لم تكن خاضعة لي ولسلطاني... حتّى وإن كانت ثائرة عليَّ، فأهلها مسلمون

يا (بدر) مسلمووون... ولا أرضى أن يمسّهم مكروه وأنا حي، فلا يغرنّك الشيطان بمثل هذا، ولا تقدّم عداوتهم على عروة الإسلام بيننا، واعلم أنّ من قتلهم بالأمس سيقتلنا غدًا إن تمكّن منّا، ووالله لن أغفرها لهذا الملعون، فقط تنتهي المحنة ويرتفع القحط.

بدر (مستفسرًا): أتعني يا مولاي أن نتحول لقتال النصارى البعيدين عنّا ونترك الثوار القريبين منا، وهم أشدُّ خطرًا علينا؟

عبد الرحمن: لن أغضّ بصري عن عدوان يقع في صميم الأراضي الإسلامية، وسوف أنجد الثوار وأنتقم لهم وأردّ عدوان النصارى عنهم...

تعجّب الحاجب بدر من حديث الأمير عبد الرحمن، إذ كان يرى أنّ إنجاد الثوار سياسة خاطئة والأفضل أن يتحارب الثوار مع النصارى حتّى يفني بعضهم البعض، ومن ينتصر منهم يسهل على عبد الرحمن بعد ذلك ضربه وهزيمته.. وقد خرج من حربه منهكًا، أمّا الأمير الأموي فكان يرى عكس ذلك وكان يرى أنّ نصرته للثوار هي نصرة لقوم مسلمين حقّ عليه أن ينصرهم حتّى وإن كانوا من الخارجين عليه ..! ملأ الصمت المكان وسيطر عليه للحظات قبل أن يقطعها الحاجب ويقول: مولاي الأمير، لقد اشتدّ الغلاء في قرطبة، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغًا لم يكن لهم عهد بمثله من قبل، وبلغ قفيز القمح بسوق قرطبة ثلاثة دنانير، وفشا الموت في الناس وتساقط منهم الكثير من فرط الجوع.

عبد الرحمن: أخرجوا المؤن والعلوفات من مخازن الدولة وفرّقوه على الضعفاء وذوي الحاجات، وأخرج من أموالي الخاصة يا بدر

وفرّق على الناس... وعلى كل الوزراء والكبراء أن يفعلوا مثل ذلك، فلا يجب أن يأكل البعض ويسرف بينما يموت الناس جوعًا ...

بدر: أخشى يا سيدي أن يمتنع الوزراء عن ذلك.

عبد الرحمن: من يمتنع عن ذلك، صادر كلّ أمواله وفرّقها على الناس، وابدأ بنفسك وأهلك ولا تنس بني أمية، فخذ من غنيهم لفقراء المسلمين، فلا يُقال مات الناس وبقي بنو أمية!

وهكذا حارب عبد الرحمن القحط والجوع.. وكانت لسياسته وحسن تصرفه أعظم الأثر في التلطيف من آثار المحنة، كما كان لهذا الظَّرْفِ أثره في تهدئة الثورة، والفتّ في عضد الثوار فمنعهم الجوع من مهاجمة قرطبة، ولكن ورغم ذلك لبث عبد الرحمن متيقظًا يرقب حركاتهم بحذر شديد وأهبة...

(١٣)

ببشتر

استبدّت الهواجس بجعفر بن عمر بن حفصون، وسيطر القلق والخوف عليه، وهو يشاهد أباه وقد تمكّن المرض منه وأقعده الفراش ولازمه الإرهاق، والوهن ففقد وزنه واصفرّت عيناه.

تقدّم جعفر صوب مخدع أبيه وأمسك بيده وقبَّلها قبل أن يقول: لا بأس عليك يا سيدي.

أمال ابن حفصون وجهه صوب ابنه وقال: أنا بخير يا جعفر فلا تجزع.

ذرفت الدموع من عيني جعفر، ثمّ جفّفها بكمّه وقال: ألا تأكل يا أبي، فقد نحل جسدك وتبدّل لونك.

ابن حفصون: لو أنّ لي شهية لفعلت، ولكن دعك من هذا وأخبرني عن حال ببشتر وناسها.

جعفر: ببشتر وأهلها بخير ما دمت كذلك يا سيدي.

ابن حفصون: وكيف حال أمير قرطبة؟

جعفر: ما إن أمطرت السماء وانقشع القحط حتّى خرجت جيوشه تنهب الأرض نهبًا، وكأنّ الجوع الذي ضرب أرجاء الأندلس لم يفتّ في عضده أو يُضعف قوته أو يُوهن عزيمته.

حاول ابن حفصون النهوض والاتكاء على سريره فلم يستطع، فساعده جعفر على ذلك، ثمّ قال ابن حفصون (بإعجاب): من أيّ الرجال هو؟ لم أرَ في بني أميّة مثله منذ الداخل، والله لئن طال به العمر ليعيدنها أمويّة.

تعجّب جعفر وبُهت من كلام والده وقال: أأنت تقول ذلك يا سيدي، وأنت من أنت؟!

بهدوء وصوت متهدّج قال ابن حفصون: ولأني أنا من أنا، فلا بدّ أن أقول، والعاقل يا ولدي من وعي قوّة خصمه واستشرق خطواته القادمة، فلا تغرنّك قوتك ويومك عن غدك فهذا رجل لا يلين ولا يستكين، أما تراه محافظًا على ما يقع في يده لا يتركه ولا يتزحزح

عنه، ثمّ تراه يرسل الجيوش تلو الجيوش لأماكن الثورة بعزيمة لا تلين، ولمّا يمضِ على جلوسه على العرش سوى أشهر حتّى قاد الجيش بنفسه، وإنّي لأخشى ... قالها ثمّ توجّع من الألم فلم يكمل جملته، بينما سارع جعفر ونادى الأطباء ليحاولوا مداواة أبيه.

وبسرعة دخل أحد الأطباء وفي يده ترياق سقى منه ابن حفصون، الذي استسلم للنوم ودخل في سبات عميق، بينما نظر جعفر إلى الطبيب وقال: ما الذي يحدث؟ ماذا أصاب الأمير؟ وإلى متى يظل طريح الفراش؟

خفض الطبيب وجهه وقال بيأس: لا ندري علّته يا سيدي.

عقد جعفر حاجبيه وقال: ماذا!

الطبيب: إنّها الحقيقة يا سيدي، فلا أنا ولا كلّ أطباء المدينة استطعنا معرفة المرض، وكلّ ما نفعله هو أن نعطيه ما يساعده على النوم وتحمّل الألم الذي لا نعرف مصدره.

جعفر: فماذا إذاً؟

(متردداً) قال الطبيب: يا سيدي لماذا لا تستدعي الطبيب (يحيى بن إسحق) فهو صديق لوالدك وقد علمت أنّه يا سيدي قريب من ببشتر.

جعفر: هذا الذي يعمل طبيباً لعبد الرحمن الأموي؟!

الطبيب: أجل يا سيدي، فليس في كل الجزيرة من هو أمهر منه في مهنة الطب.

جعفر: ولكن هل تراه يفعل وهو طبيب خصمنا؟

الطبيب: يفعل يا سيدي، إذ إنّ الخصومة في الحرب لا المرض!

جعفر: لكن ربّما يخشى من سيده.

الطبيب: لو علم الأموي يا سيدي لأرسل طبيبه بدون طلب منك.

هزّ جعفر رأسه ورنا يفكر قليلاً، ثمّ أمر من فوره أحد جنوده بتتبع الطبيب وإحضاره على وجه السرعة.

مدّ ابن حفصون يده وربّت على فخذ الطبيب (يحيى بن إسحق) وبابتسامة باهتة قال له: ألا تخشى غضب أميرك إن هو علم بما فعلت؟

يحيى: ليس الأمير عبد الرحمن بمن يغضب لإنقاذي حياة الناس، فهو يعلم أنّ الطبّ صنعتي وحياة الناس وتطبيبهم غايتي.

ابن حفصون: لكنّي لست أيّ رجل، فأنا صاحب بني أمية!

تحرّك (يحيى بن اسحق)، ثمّ قال: العداوة في ميدان القتال لا في سرير المرض يا ابن حفصون.

ابن حفصون: مممممم.

يحيي: اسمع يا ابن حفصون، هل لك بنصيحة من صديق قديم؟

ابن حفصون: أجل.

يحيي: سالم الأمير، فوالله لئن لم تفعل سيدخلنّها عليك، فهو كما علمت لا يلين ولا يكل وله عزيمة من حديد، ولا يركن إلى راحة ولا يترك أعداءه، وأنا إنّما أريد صالحك.

ابن حفصون: وهل صالحي في ترك كلّ ما أملك والانضواء تحت حكم الأمويين!؟

يحيى: إن لم تفعل الآن.. فستنزل على حكمهم مرغمًا، غير أنّك لو فعلت الآن.. فأنا أضمن لك حكم ببشتر ما حييت.

ابن حفصون: ولكن ما الذي يجعل الأموي يقبل؟ بينما تقول أنّه لا يلين! وإن كان في مقدوره أخذها عنوة.. فلمَ يقبل الصلح معي؟

يحيى: الأمير له أعداء كثر، غير أنّه جعلك أوَّلهم، فإن أطعته تحوّل إلى غيرك ورضي منك وسالمك، فقط أرسل إليه وأنا كفيلك عنده... والآن دعني أعد الى قرطبة فقد اشتقت إليها.

ابن حفصون: لا نستطع تأخيرك.

يحيي (ناصحًا): وصيتي لك أن تبتعد عن الخمر حتّى لا يفسد ما تبقّى من كبدك.

---

(١٣)

كان الأمير عبد الرحمن جالسًا في مجلس عرشه عندما دخل عليه الطبيب (يحيي بن إسحق) قائلًا: السلام على مولاي الأمير.

عبد الرحمن: وعليكم السلام يا طبيب ابن حفصون!

يحيي: بل طبيب الأمير عبد الرحمن بن محمد يا سيدي، وما فعلت ما فعلت إلّا لأنّي طبيب الأمير، وما ابن حفصون إلّا واحد من رعيتك.. ولو اجتهد العصيان.

أُعجب عبد الرحمن بمقولة الطبيب، ثمّ قال: ولكنّه مرض عضال يا ابن أسحق.

يحيى: أجل يا سيدي، ولكن لكلّ شيء أول.

عبد الرحمن: وما هو الأوّل؟

أخرج يحيى رسالة من كمّه وناولها لعبد الرحمن، الذي فتحها وطالع ما فيها، ثمّ نظر إلى الطبيب وقال (متعجبًا): يطلب الصلح؟

الطبيب: أجل يا سيدي، وقد حمّلني رسالة أخرى.

عبد الرحمن: أين هي؟

الطبيب: إنّها رسالة شفهية يا سيدي، إذ يُذَكِّرُك بأبيك الأمير محمد.

عبد الرحمن (مستهجنًا): أبي!!

الطبيب: إنّه يا سيدي يذكرك ويتشفّع بما كان منه في إيواء الأمير محمد وحمايته، حينما فرّ من أبيه الأمير عبد الله.

نظر الأمير إلى الحاجب بدر الذي فهم نظرة الأمير، فسارع يقول: أجبه يا سيدي للصلح الذي يأمله، واشترط عليه ما شئت من العهود والمواثيق.

عبد الرحمن: فماذا إن حنث بعهوده؟

يحيي: لن يحنث يا سيدي، فقد أرهقه المرض وأقعده عن الحرب، وهو بعد يخشاك يا سيدي ويعلم أنّك غير تاركه، وإنّك غير مَن سبقك من الأمراء.

الحاجب بدر: يا سيدي ألا تتذكّر ملك ليون وما يفعله في بلادنا، ألم تقل أنّ الخوارج هم سبب ما نحن فيه.. فماذا يا سيدي لو قبلنا الصلح معه؟

عبد الرحمن: سنقبله ولكن مع الحذر والحيطة، فمثل ابن حفصون لا عهد له ولا ذمة، ثمّ نظر إلى يحيى وقال: تولَّ أمر الصلح يا ابن إسحق، ثمّ أمر كاتبه فكتب قوله: يا الله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب، وجميع أيمان البيعة لازمتي من العهود المشددّة، والأيمان المؤكدة، والمواثيق المغلظة، لا نقضت شيئًا ممّا جمعه هذا الكتاب تبديله، ولا نقصان شيء منه، ولا رضيت ذلك في سر ولا جهر، وأنّ كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمتي، والله شهيد علينا، وخططنا هذه الأحرف بيدنا، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا، وكفانا بالله شهيدًا، ما وفّى عمر بن حفصون بما نصّ في هذا العهد وصحّح فيه إن شاء الله.. والله المستعان.

خرج يحيى من عند الأمير وسار حتّى دخل ببشتر، فاتّصل مع جعفر بن مقسم أسقف ببشتر، وعبد الله بن أصبغ بن نبيل، وودنا بن عطاف، وهم أكابر رجال ابن حفصون وخاصته، وكانوا يميلون إلى عقد الصلح والدخول في كنف الطاعة، ثمّ سار يحيى بنفسه لمقابلة ابن حفصون، ووضع معه شروط الصلح، وعاد إلى قرطبة، وأقرّ الناصر تلك الشروط...

ما إن تمّ الصلح حتّى سيّر عبد الرحمن وزيره وقائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة في جيش قوي غازيًا أراضي مملكة ليون، فالتقى بالنصارى وهزمهم في عدّة وقائع محليّة، وعاث في أراضيهم وسبى وغنم غنائم كثيرة، وفي العام التالي أراد (أردونيو الثاني) الانتقام لهزائمه، فعاث في منطقة طلبيرة، وأحرق مدنها وانتسف ضياعها، فضجّ المسلمون لهذا البلاء، وتضرّعوا إلى مليكهم أن ينقذهم من هذا العدوان الصارخ.

فسيّر عبد الرحمن قائده أحمد بن أبي عبدة ثانية إلى أرض النصارى في جيش ضخم من المدونين والمتطوعة، وانضمّ إليه حين دخوله إلى الثغر (الحدود) خلق كثير، واخترق المسلمون أراضي قشتالة، وزحفوا إلى قلعة شنت إشتيبن الواقعة على نهر التاجة، وهي من أمّنع قلاع النصارى على الحدود، وضربوا حولها الحصار الصارم، ثمّ نازلوها بشدة، وكادت تسقط في أيديهم، لولا أن هرع إلى إنجادها (أردونيو) في جموع ضخمة من النصارى، وكان الجيش الإسلامي -بالرغم من تفوّقه في الكثرة- مختل النظام، مفكك العرى، فلما انقضّ (أردونيو) بقواته على المسلمين، تسلّلت منهم وحدات كثيرة، وارتدّت أمام المهاجمين، ودبّ الهرج إلى صفوف المسلمين، ولكنّ قائدهم الشجاع (أحمد بن أبي عبدة) فضّل الموت على الارتداد، فصمد في مكانه مع نفر من أشجع قوّاده وجنده، فقُتلوا جميعًا، وهلك معهم عدّة من أكابر الفقهاء والمجاهدين.

اهتزّت قرطبة لما حدث وتزلزلت، وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لهزيمته الفادحة في شنت اشتيبن ومقتل قائده الشهم، ولم ينس أن أردونيو سمّر رأسه في جدران شنت إشتيبن تمثيلًا به،

فحشد جيشًا ضخمًا لمقاتلة النصارى بإمرة حاجبه بدر بن أحمد، وبعث الأوامر والكتب إلى أهل الثغور بالنهوض لتأييده، ومعاونته على معاقبة النصارى وردّ عدوانهم والإيقاع بهم، وخرج بدر في جيشه الضخم من قرطبة، وهرع إليه أهل الثغور (الأطراف) من كلّ ناحية متعطشين إلى الجهاد والانتقام.

وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لردّ الغزاة، واندفع المسلمون كالسيل إلى حدود ليون، فاعتصم النصارى بالجبال لمّا رأوا من كثرة العدو وأهبته، ولكن المسلمين هاجموهم في مواقعهم، ونشبت بين الفريقين موقعتان دمويتان على مقربة من مكان يسمى (مطونية)، فهُزم النصارى هزيمة ساحقة، وأمعن المسلمون فيهم قتلًا وأسرًا، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة، على أنّ هذه الهزيمة الساحقة لم تفت في عضد النصارى، فلم يمضِ سوى قليل، حتّى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضي الإسلامية، واستمرّ القتال سجالًا بين المسلمين والنصارى مدّة شهور كَثُرَ خلالها العيث والسبي في مناطق الحدود...

(١٤)

وفاة صمويل بن حفصون

مرّت الأعوام تلو الأعوام ... وابن حفصون محافظ على عهوده مع عبد الرحمن، يتودّد إليه بالهدايا مظهرًا التزامه بشروط الصلح، وعبد الرحمن سعيدٌ بهذا، فقد منحه هذا الصلحُ فرصة لمحاربة

باقي الثوار والتفرغ بعض الشيء لنصارى الشمال، ومع مرور الوقت وتقدّم (صمويل بن حفصون) في السن، زاد مرضه، إذ لم يقلع عن الخمر ساعة من ليل أو نهار، فتدهورت حالته وساءت صحته، فالتزم الفراش لا يبرحه، وفشل الأطباء في علاجه.

وفي أحد الأيام، دخل ابن حفصون في نوبة سعال شديدة أيقظت مَن حوله من الخدم، فراح أحدهم يقدّم له كوبًا من الماء، ما إن ارتشف منه رشفة حتّى قال: جعفر ... أين جعفر؟

انطلق أحد الخدم وبعد لحظات كان جعفر عند رأس أبيه يقول: لا بأس عليك يا سيدي.

صمويل: لا تجزع يا جعفر، فلا يصحّ لولي عهد ببشتر أن يجزع.

تساقطت دموع جعفر وهو ينظر إلى أبيه، وقد اصفرّ وجهه وشحب لونه وثقل لسانه وأكمل قائلًا: قد جعلتك من بعدي، فاحرص على ببشتر وأهلها واتخذ منهم حرسك وجندك، ولا تبرحها من ليل أو نهار.

هوى جعفر ودموعه تسبقه ليقبّل يد والده وهو يقول: ستعيش يا أبي، سألتمس لك كلّ أطباء الأندلس.

لم يعبأ صمويل بحديث ابنه، وحرص على أن يكمل له وصيته، فقال: وحافظ على عهودي مع صاحب قرطبة، ولا تجعل له عليك سبيلًا، فإنّه أمير وافر العزم قوي الشكيمة، لا قِبَلَ لأحد في هذه الجزيرة على مناهضته.

أومأ جعفر برأسه، بينما كان لسان ابن حفصون قد ثقل فلم ينطق بعدها بكلمة، وفجأة شهق ابن حفصون شهقة عظيمة، وهوى جثّة هامدة.

بصوت عال صرخ جعفر مناديًا أباه: أبي أبي.. لكن كان الأجل قد انقضى فلم يسمعه أو يجبه صمويل، الذي ترك الإسلام ودخل دين النصارى.

كفكف جعفر دموعه، واستدعى القساوسة والرهبان للقصر فشهدوا على وفاة أبيه بالنصرانية، كما أظهر جعفر نفسه يوم موت أبيه لجميع نصارى ببشتر أنّه يعتقد دينهم، ويدين بالنصرانية معهم، وجمع إلى نفسه ثقاته منهم، وتولّى القساوسة تجهيز والده معه، ودفنه على سنّة النصارى بعد أن أمر بسدّ باب القصبة، وحجاب باقي الناس من نصارى وغيرهم، ولاطف جعفر إخوته، ووعدهم بالجميل حتّى سلَّموا له، فجعل سليمان على (أبدة) وعبد الرحمن على حصن (طرش) وحفص أخوه جعله وزيره، أمّا أرخنتا فقد دخلت الدير بعد وفاة أبيها وترهبنت وزهدت في متاع الدنيا...

وقع خبر هلاك ابن حفصون على مسامع عبد الرحمن فاستبشر خيرًا، وكذا كلّ أهل قرطبة الذين كانوا يرون أنّ ابن حفصون مرتد يجب قتاله، ويرونه أكبر أعدائهم في الجزيرة، لدرجة أنّ بعض القرطبيين قاموا بتوزيع الحلوى على المارة بهذه المناسبة وأقاموا الزينات، وشعر عبد الرحمن بن محمد أنّ القدر معه والسعد رفيقه، وكيف لا.. وقد هلك أكبر العصاة وأقواهم، بعد أن قسم مملكته بين أولاده فزادها ضعفًا ووهنًا!

وفي قصر قرطبة جلس عبد الرحمن وحوله الوزراء والقادة وراح يقول: الحمد لله.. حقّ علينا أن نبتهج ونسعد لهلاك هذا الفاسق.

الحاجب بدر: لقد كان أوَّل من شقّ عصا الطاعة في الجزيرة يا سيدي، وأوَّل من ترك دينه فيها، فحقّ علينا أن نحتفل لهلاكه.

عبد الرحمن: أمّا الفرح لهلاكه فقد كان، وأمّا الاحتفال فليس قبل أن أبدِّدَ شمل دولته المزعومة، وقد نما إلينا أنّ سليمان بن صمويل قد استقل بـ(أبدة) وقد تأخّر علينا في إرسال الطاعة وتأكيد البيعة لنا؛ لذا سيخرج إليه القائد أحمد بن إسحق القرشي بجيشه، فلا يرجع إلى قرطبة قبل أن يضم (أبدة) إلينا.

أحمد بن إسحق: هذا شرف ليس بعده شرف يا سيدي أن أمحو بسيفي ظلام بني حفصون.

عبد الرحمن: فإن انتهيت من (أبدة) عليك بحصن (طرش) فانزعه من عبد الرحمن بن صمويل، ولا تأخذك بهم رأفة إلّا أن يستأثروا لك، فلا تقتلهم واحقن دماءهم، ولا تجعلهم يتصلون ببعضهم البعض فيستقوون بجمعهم عليك.

أومأ القائد أحمد بن إسحق، وانصرف من مجلس عبد الرحمن، وتجهّز وجيشه للحرب، وخرج من قرطبة إلى (أبدة) فاقتحمها وأسر (سليمان بن عمر بن حفصون)، وأرسله إلى قرطبة حيث عفا عنه عبد الرحمن وضمّه إلى جيشه، وكذا استسلم عبد الرحمن بن حفصون، وكان ممتنعًا بحصن (طرش)، وكان أخوه جعفر صاحب (ببشتر)، قد ضايقه، وحاول أن ينتزع منه (طرش)، فالتجأ عندئذ إلى الأمير، وأذعن للطاعة، على أن يسلم حصنه ويمنح الأمان لنفسه

وأهله، فأجابه الأمير إلى ما طلب، وتسلّم منه الحصن، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى عليه الصلات...

أمّا جعفر فقد استبدّ بحكم ببشتر وما حولها، وآثر عبد الرحمن أن يهادنه مدى حين، وأن يقرّه على أعماله، وقرَّرَ استكمال غزو بلاد النصارى، خاصة وأنّ جعفر أرسل من (ببشتر) يؤكّد التزامه بعهود أبيه مع عبد الرحمن...

الفصل الرابع

الحاكم الشجاع

من يفرض كلمته بسيفه على أعداء أمته وبلده

ولا يغامر بحياة جنده ويرمي بهم المهالك

وهو ينام على سرير من ذهب

آمن على نفسه دون جيشه

في الجهة المقابلة لمسجد عبد الرحمن الداخل- وعلى ضفاف الوادي الكبير- ظهر الأمير عبد الرحمن بن محمد مرتديًا لباس الحرب، ممتطيًا صهوة جواده، وعلى يمينه القائد أحمد بن إسحق وعلى يساره الحاجب بدر، وخلفهم جيش الإمارة في أهبة حسنة، ووسط حمحمة الخيول نظر الأمير إلى الحاجب وقال له: ارجع يا بدر فتدبّر أمر قرطبة حتّى أعود، إذ لا يجب أن تُترك قرطبة بدون من يسيّر أمورها.

الحاجب بدر: أمرك سيدي الأمير ... ثمّ قفل عائدًا إلى قرطبة.

نظر الأمير إلى جيشه وقال: يا جند الإسلام، عندما صمت أهل الحقّ تمادى أهل الباطل في باطلهم وارتفعت أصواتهم، فدفعوا بحدودهم وجيوشهم يقتطعون أرضكم ودياركم، منتهزين الفتنة واشتعالها، وهم من كانوا يرجون مسالمتنا عندما كنّا خير أمة.. قبل أن تشتعل الفتن فينا... يا جند الأندلس لقد قَتَلَ أردونيو القائدَ أحمد بن محمد بن أبي عبدة، ثمّ مثّل بجثته وإنّي عازم على تأديب القوم واسترداد ما سلبوه منّا، وهزيمتهم في عقر دارهم، فقد أصبح للحقّ سيف يحميه ودرع يدافع عنه، فانهضوا معي نردّهم على أعقابهم... ثمّ لكز عبد الرحمن بطن جواده فانطلق وخلفه جيش يرى فيه القدوة والمثل وخير قائد، وكيف لا.. وهو يقودهم بنفسه معرّضًا حياته لما يتعرّض له جنده!

تحرّك الجيش يقوده الأمير الشاب مخترقًا الوديان والأنهار، والحماسة قد ملأت صدور الجند، وما إن وصل الجيش إلى الثغور، حتّى انضم إليه الكثير من أهلها، ثمّ تابع عبد الرحمن سيره مخترقًا أراضي الثغر الأوسط من طليطلة شمالاً حتّى مدينة الفرج (وادي الحجارة) ومدينة سالم، ثمّ اتّجه إلى طريق ألبة والقلاع (قشتالة) وعبر نهر دويرة وزحف على مدينة (أوسمة) (وخشمة) فلاذ أهلها بالأسوار.

تقدّم القائد أحمد بن إسحق وقال لعبد الرحمن: مولاي الأمير لقد أغلقوا دوننا الأبواب... فماذا الآن؟

عبد الرحمن- بعزيمة قويّة-: لن أنزل من فوق هذا الفرس قبل أن أطأ رؤوسهم بها... اختر بعض الرماة، وأرسل لهم برسالة أن يستسلموا أو لأحرقنّها عليهم...

وبسرعة قام بعض رماة الأسهم بقذف سهامهم وهي تحمل رسائل من الأمير لهم، ولكنّ أهل المدينة رفضوا فتح الأبواب، متوهمين أنّ الجيش الغازي سينصرف عمّا قريب، عندها أصدر عبد الرحمن أوامره بحرق أبواب المدينة بالنفط، فلمّا رأى أهلها ذلك تركوها ولاذوا بالجبال، فغنم المسلمون ما في المدينة، ثمّ أمر عبد الرحمن جنده بإحراق (أوسمة) جزاء بما فعل أهلها من إحراق ثغور المسلمين.

وما إن انتهى عبد الرحمن من (أوسمة) حتّى قرَّرَ أن يتحرّك صوب قلعة شنت إشتيبن (قاشترو مورش)، وهي التي كانت مسرحًا لهزيمة المسلمين المروّعة من قبل، وقد كان عبد الرحمن يتوق إلى

الثأر من هزيمة جيشه والثأر لقائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة، الذي قتله أردونيو ومثّل بجثته.

وما إن اقترب عبد الرحمن بجيشه من قلعة شنت إشتيبن حتّى فرّت حاميتها النصرانية، فاستولى عليها وخرّبها، وغنم ما فيها، وخرّب في تلك المنطقة الكثير من المعاقل والأبراج والكنائس والديارات (الأديرة)، ثمّ سار إلى مدينة قلونية، وكان أهلها قد فرّوا إلى الجبال، فاجتاح تلك المنطقة كلّها، وانتسف أراضيها وخرّب قلاعها، وهدم قلونية وخرّب دورها وكنائسها، ولم يعترض سبيله أحد من النصارى خشية ورعبًا...

وسط حشائش مدينة ليون وخارجها، ظهر أردونيو ممتطيًا صهوة جواده، والخوف بادٍ على وجهه، وخلفه جيشه وبجانبه (غونثالو) صاحب برغش.

كان أردونيو ينظر في الفضاء الممتد خارج المدينة وهو يفكّر في قادم أيامه، ويلعن هذا الأمير القرطبي الذي جاء بعد سنوات عجاف... وبنظرات حزينة ارتدّ بطرفه صوب ليون، ثمّ قرَّرَ أن يظلّ مكانه، فإن هاجمه عبد الرحمن فرّ في شعب الجبال! وبينما هو كذلك عابس الوجه، إذ بـ(غونثالو) يقول له – بلهجة مبتهجة–: أبشر يا سيدي، فقد جاءت الأخبار بزحف الأندلسيين صوب (تطيلة) ما يعني ابتعادهم عنّا، وتحولهم صوب مملكة نافارا.

تنفّس أردونيو الصعداء.. وشعر وكأنّ الحياة عادت له، ثمّ قال متظاهرًا: كنت أرجو أن يتمّ بيننا اللقاء، ولكن لا بأس... لا بأس، ثمّ

سحب رسن جواده وارتدّ إلى قصره في ليون وهو لا يصدّق ما حدث، وأنّ ليون ما زالت له...

أمّا عبد الرحمن فقد تحوّل بجيشه صوب مدينة (تطيلة) استجابة لصريخ أهلها، وما إن وصلها حتّى خرج له (محمد بن لب بن قسي) صاحب المدينة مقدّمًا الطاعة ومرحبًا بالأمير.

وفي تطيلة عسكر عبد الرحمن بجيشه، ومن ثمّ بعث بعض قواته بقيادة (محمد بن لب بن قسي) لاحتلال قلعة (قلقرة) التي كان (سانشو) يتخذها قاعدة للإغارة عليها؛ فألفوها خالية، وزحف عبد الرحمن في الوقت نفسه على حصن (قلهرّة) وكان به (سانشو) في قواته، ففرّ عند اقترابه، واحتله المسلمون وغنموا كلّ ما فيه، ثمّ دمروه... وانتسفوا الأراضي المحيطة به.

أمّا (سانشو) ملك نافارا، فما إن فرّ من حصن قلهرة حتّى لجأ إلى حصن أرنيط (أورنيدو) الواقع جنوب غربي قلهرة، وقد اعتزم ألّا يعترض سبيل المسلمين في تلك المنطقة كلّها؛ وفقًا لخطة وضعها لاستدراج المسلمين، فلمّا عبر عبد الرحمن بقواته نهر إيبرو (إبرة) فاجأه (سانشو) في قوّاته، وهاجم مقدمة المسلمين، ولكنّ عبد الرحمن كان يقظًا متأهبًا، فتعاون الفرسان والرماة المسلمون على النصارى، وأثخنوا فيهم، فارتدّوا إلى شعب الجبال واعتصموا بها...

رأى (سانشو) أن لا قِبل له بقوات الأمير الأندلسي، فقرّر أن يلجأ إلى حليفه (أردونيو ملك ليون) فتحرّك بقواته صوب ليون مبتعدًا عن خط سير قوات الأندلس، وما إن وصل إلى ليون واجتمع

بأردونيو حتّى قرَّرَ الملكان أن يتربّصا بالمسلمين متّخذين مواقع منيعة لهم ولقواتهم، حتّى إذا أراد المسلمون العودة إلى قرطبة فاجأتهم القوات النصرانية المتحدة فأثخنت فيهم، لكنّ عبد الرحمن ظلّ يقظًا متأهبًا، فعلم باجتماع قوات نافارا وليون ضدّه، فأمر بإحكام التعبئة ومضاعفة الاستعداد، فلمّا نفذ الجيش الإسلامي إلى شعب الجبال، انحدر النصارى لمهاجمته واشتبكوا بمؤخرته وأحدثوا بها اضطرابًا وخسائر، فشعر عبد الرحمن بخطر المأزق، وبادر بالخروج من الشعب الضيقة إلى السهل المنبسط، وهنالك عسكر بجيشه في مكان يسمى (خونكيرا Junquera) على مقربة من غربي بنبلونة، واستعدّ للقاء النصارى... وهنا طمع النصارى في محاربة المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا في حمى الجبال، ولكنّهم دفعوا ثمن جرأتهم هزيمة فادحة، وأمعن المسلمون فيهم قتلًا وأسرًا، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل، وقُتل وأُسر كثير من أكابر فرسانهم وزعمائهم، ومن بينهم (أسقفان هما دولثديو أسقف شلمنقة وأرمخيو أسقف توى)، وقد كانا يحاربان كجنديين، ولجأ نحو ألف من النصارى إلى قلعة مويش القريبة، فاقتحمها المسلمون، واستخرجوا النصارى الذين بها، ومنهم عدد من القوامس ووجوه الفرسان، فأمر عبد الرحمن بإعدامهم جميعًا، ومزّق النصارى كلّ مُمَزَّق، وانهارت كلّ مقاومة، وقضى عبد الرحمن أربعة أيام يجمع الأسلاب والنعم، ويهدم الديار ويقطع الأشجار، وأصاب المسلمون كثيرًا من الأسلاب والغنائم...

(٢)

نظر يوسف إلى ذراعيه فأعجب بعضلاته المفتولة، وراح ينظر إلى نفسه بإعجاب، وقال (باعتداد) محدثًا نفسه: لقد بلغت مبلغ الرجال يا يوسف، ثمّ تذكّر عبوديته.. فوجم وجهه واستطرد قائلًا: غير أنّك الآن نصف رجل، وكيف لا وقد فقدت حريتك منذ سنوات! وصرت كالمتاع تُباع وتشترى! ثمّ نظر إلى جرح في كتفه ووضع يده عليه وقال: من الآن يجب عليّ أن أطيع أوامرهم حتّى لا يصيبني المزيد من العذاب والإهانة، أجل يا يوسف.. فلا مناص من الطاعة الآن، فهي خير من العذاب.

وكذا فقد بلغت سميّة مبلغ النساء، وأصبحت لا تفارق سيدتها ولا تغادر القصر إلّا في الأمور الهامة، إذ كانت تعمل وصيفة في خدمة زوجة غونثالو (مونيادونا)، التي أحبّتها وأغدقت عليها، وجعلتها في مكانة ابنتها، خاصة وأنّها حُرمت من الأطفال البنات.

ولمّا كان يوسف (خوسيه) وسميّة مسلمَيْن، فقد حاول (غونثالو) كثيرًا تحويلهم إلى النصرانية، بالترغيب أولًا، ثمّ بالترهيب، فكان يقول ليوسف: ادخل ديننا وسيكون لك شأن معنا، وسأضمك للجيش وتكون أحد رجالي، وتنال حريتك... ولكنّ يوسف كان يُعرض عنه ويتمنّع عن إجابته أحيانًا، وأحيانًا أخرى يقول له: سيدي، أنا أخدمك كما يخدم العبد سيده، أمّا ديني فلن أبدّله ...كان يقولها بإصرار وتحد عجيب، ممّا جعل (غونثالو) في غير مرّة يصرخ ويضربه بالسوط أو يحرمه من الأكل ويربطه في حديقة المنزل، بل ويهدِّدُه بالقتل! أمّا سميّة فكان حبّ (زوجة غونثالو) لها يحميها من غضبة

(غونثالو) فكان يحاول تحويل دينها بالترغيب لا الترهيب، ولكن لمّا يئس منها أوكل أمرها إلى سيدتها، بينما تولّى هو أمر يوسف، مع كلّ هذا و(فرنان بن غونثالو) يراقب كلّ ذلك عن كثب وكان يقول لأبيه: ليس لهؤلاء حق في القبول أو الرفض، فإمّا أن يتحولوا إلى ديننا كما نحبّ أو نقتلهم!

حاولت (مونيادونا) أن تحول سميّة عن دينها بشتّى الطرق، ففي يوم من الأيام أحضرتها وقالت لها: أنا أحبّك يا سميّة، وأنت تعلمين أنّني لم أنجب غير ابني فرنان، ولهذا جعلتك بمنزلة ابنتي.

سميّة: وأنا كذلك يا سيدتي، فكأنّما عوّضني الله بك عن أمّي.

مونيادونا: فلماذا لا تسمعين نصحي، فآخذك إلى الدير ليعمدوك وتصبحي واحدة منّا.

سميّة: لا أريد يا سيدتي، فقد ولدت مسلمة ولا أريد أن أبدّل ديني، فهل تقبلين أن ينتزعك أحد من قومك، ثمّ يبدّل دينك رغمًا عنك.

مونيادونا: لا أحبّ يا سميّة، ولكن اعلمي أنّني لن أجبرك على شيء ولن أدع أحدهم يفعل ذلك ما دمت حيّة.

سميّة: أطال الله عمرك يا سيدتي...

(٣)

في قصره في جبال ببشتر، ووسط رجاله وأعوانه، عكف جعفر بن عمر بن حفصون على لهوه وفجوره، يعاقر الخمر طيلة الليل وزلفًا

من النهار، ولا يهتمّ لأمر مدينته وشعبه، كما لم تسلم نساء ببشتر من شروره، بعد أن أعطى لنفسه الحقّ في تعقّب نساء رجاله ومواليه، حتّى ضجّ الناس ورفعوا شكوتهم إلى وزير أبيه (الرامي أبي نصر) الذي وعدهم بالعمل على نصح جعفر بعد أن طيّب خاطرهم، وقد كان أبو نصر يرى أنّ استمرار جعفر على لهوه سيعجّل بانهيار دولة بني حفصون، فراح يفكّر في طريقة يردع بها جعفر ويجعله يلتفت لدولته بدلًا من شهواته...

وفي المساء... وبينما جعفر مكب على خمره وسط جواريه كعادته، إذ دخل عليه وزيره أبو نصر وقد ساءهُ ما يرى، فقال له:

سيدي الأمير، تعلم حرصي على ملك بني حفصون منذ والدكم، رحمتْه السماء.

جعفر: لا أحد يشكّك في هذا يا وزيرنا!

أبو نصر: فاعلم يا سيدي أنّي لك ناصح وللملك حافظ ... لقد تواصل معي بعض من أهل ببشتر، بعد أن ساءت أحوالهم وكثرت عليهم المغارم وأثقلتهم الديون، وضاقت معيشتهم بعد أن عاشوا أعوامًا من رغدها في عهد والدك العظيم.

رفع جعفر كأسه وقال في صلف وغرور: وماذا عليّ أن أفعل؟ هل أنفق عليهم أم أعمل بدلًا منهم؟

أبو نصر: لا هذا ولا ذاك يا سيدي، ولكن أن تهتمّ برعيتك كما كان يفعل والدك و...

قاطع جعفر وزيره وقال بصوت غاضب: تعلم جيدًا أننّا في صلح مع صاحب قرطبة، فهل يريد هؤلاء أن أنقض عهدي معه لأطعمهم؟! أنت تعلم وهم أيضًا، أنّ رغد العيش زمن أبي كان بسبب نهبنا للمدن المجاورة، فهل أخرج بهم الآن فيحلّ علينا غضبه؟

استمع أبو نصر لكلام جعفر وهو غير مؤمن به، غير أنّه لم يرد إغضابه أكثر وخشي بطشه، ولم يجرؤ على أن يحدّثه عن اعتدائه ومضايقته لنساء ببشتر، وبعد تفكير وصمت قصير وتفكير أقصر.. قررّ أن يستعمل الحيلة، وانتظر حتّى يرتشف جعفر من خمرته، ثمّ قال له: سيدي الأمير، لقد اعتدى بعض من عسكرك على نساء أهل ببشتر، فماذا لو أعلنت في جندك أنّ العقاب الشديد سيحلّ بمن يتعرّض لحرم غيره؟! وبهذا يا سيدي يأمن أهل ببشتر على حرمهم ويرضون.

جعفر: لقد كثرت مطالب أهل ببشتر يا أبا نصر، فهل نسي هؤلاء أنفسهم ومن أنا؟! (وبتكبر واستعلاء) أكمل: أنا سيدهم وابن سيدهم وهؤلاء جنودي ورجالي.

أبو نصر: إذًا ألا نسقط عنهم بعضًا من المغارم يا سيدي؟

جعفر: هذه المغارم لا آخذها لنفسي، بل لحمايتهم والذود عنهم.

أبو نصر: ولكن...

جعفر (متململًا وبصوت مرتفع): لا تناقشني في أمرهم مرّة أخرى، ومن ضاقت عليه ببشتر فليتركها...

وهكذا رفض جعفر نصح وزيره، واستبدّ بحكم ببشتر وما حولها، ولمّا خوفه وزيره وقال: يا سيدي لا تجمع بين عداوة أهل ببشتر وعداوة صاحب قرطبة، أجاب فقال: أمّا صاحب قرطبة فأنا الآن في عهده.

أبو نصر: لكن يا سيدي، أنت على دين أهل ببشتر.

جعفر: وكنت من قبل على دين أمير قرطبة!

أبو نصر: ماذا تقصد يا سيدي؟

جعفر: أقصد أنّي ربّما أعود إلى الإسلام اكتسابًا لمودة السكان المسلمين والجند المسلمين في جيشي، بعد أن ضاق بي أهل ببشتر من المسيحيين.

أبو نصر: ولكنك تعلم أن جُلّ جندك من النصارى!

جعفر: بل وأعلم أنّك منهم يا أبا نصر.

غضب أبو نصر ولكنّه خاف من غضبة جعفر؛ فكظم غيظه، ثمّ خرج من أمامه وهو يضمر الغدر به، وما إن خرج حتّى سارع واجتمع بكبار رجال جعفر وأفضى لهم بما دار بينه وبين جعفر من حديث، وكانوا جميعًا على النصرانية، فارتاعوا جميعًا، وقال بعضهم: ومن يدري فلعلّه يعود إلى الإسلام، ومن ثَمّ يجعل دماءنا قربانًا للصلح مع صاحب قرطبة، وقال البعض الآخر: يجب قتله، وهنا ردّ البعض وقال: لو قتلناه ربّما يستغل صاحب قرطبة الوضع الجديد ويهاجمنا ونحن بلا قائد فنهون عليه.

وهنا أشار -عليهم- أبو نصر بوجوب مراسلة سليمان بن عمر بن حفصون، وكان قد انضمّ إلى رجال الأمير عبد الرحمن، ومن ثمّ يضمن لهم سكون الأمير ورضاه.

وهكذا اتفقت هذه الثلة على اغتيال جعفر خشية عودته للإسلام، وتمّ ترتيب الأمر بحرفية شديدة، وفي المساء وبينما جعفر في قصره مقيمًا بين جواريه وخمره، إذ اقتحم عليه بعض الجنود مجلسه وأوسعوه طعنًا، ثمّ تركوه غريقًا في دمائه.

وهكذا شاء القدر أن يتخلّص الأمير عبد الرحمن من واحد من ألدّ خصومه بدون أن يُشْهِرَ له سيفًا.

(٤)

كان (فرنان) يمتطي صهوة جواده ويتحرّك في رُبى (برغش) بين الحشائش الكثيفة والصخور الصلبة، يصاحبه في ذلك رفيقه (غارسية) وهما يتنقلان من موضع لآخر، ثمّ نظر (غارسية) إلى (فرنان) وقال له: كيف حال العربي والعربية؟

فرنان: كما هما، غير أنّي أتعجّب من إصرار أبي على إدخالهما النصرانية.

غارسية: وما الذي يضيرك في هذا؟

فرنان: أريد قتل هذا العربي، ودخوله النصرانية سيعصمه منّي لا محالة.

(بنظرات ماكرة ووجه مبتسم) قال غارسية: وماذا عن الفتاة، هل ستقتلها أيضًا؟

قهقه فرنان وقال: أمّا هذه فحرام فيها القتل مسيحية كانت أم مسلمة، ولولا أمّي لكانت الآن جارية لي أتمتّع بجمالها العربي الفتّان، ولكن لكلّ أمر أول.. فلن تحميها أمّي طويلًا ولن يعصمها مني بشر...

كان يوسف يتابع عمله بالاعتناء بالخيول وتنظيف الإسطبل، وبينما هو كذلك ينظف أحد الخيول ويتحدّث إليه كأنّه رفيقه، إذ بسميّة تتقدّم جهته، وهي تنظر عن يمينها وعن يسارها لتتأكّد أنّ أحدًا لا يراها، حتّى إذا اقتربت منه أخرجت من طيّات ثيابها بعض الفاكهة وقدّمتها له، فأخذها منها وراح يقضمها وهو ينظر إلى سميّة نظرات ذات معنى، بينما دقّات قلبه تُنبئ عن حب عظيم نَمَتْ زهوره وتفتّحت، ثمّ جلس على بعض الأعشاب الجافة وجلست هي بجواره فنظر إليها وقال معاتبًا: لقد غبت عنّي طويلًا هذه المرة.

سميّة: اعذرني يا يوسف، فكثيرًا ما أحاول ولكنّ الرقابة عليّ شديدة، وسيدتي لا تريدني أن أفارقها أبدًا.

يوسف: أنتِ هنا قريبة منّي في القصر يا سميّة وأشعر أنّ بيني وبينك دربًا طويلًا، وتتوق نفسي إليك كثيرًا ولا أكاد أصبر عليك،.... وبنبرة حب وهو يحدق في عينيها أكمل: يا قرّة العين إنّ العين تهواكِ، وما عادت تصبر على غيابك.

احمرّ وجه سميّة خجلًا، ولم تتفوّه ولو بكلمة، بل نظرت إلى الأرض مبتسمة بخجل.

يوسف: جميلة أنتِ ورقيقة كوردة دمشقيّة، للحد الذي يجعل الندى يتمنّى ملامستك، آهٍ يا سميّة، لو امتدت بنا اللحظات وخلت المدينة إلّا منك ومنّي، ولم أجد من يأخذك منّي أو يأخذني منك، وقتها فقط ستطيب لي الحياة.. وربّما أجد الوقت الكافي لأعبّر لك عمّا يجول في خاطري وقلبي، لقد أصبحت يا سميّة كلّ شيء في حياتي، في يقظتي عيني تحنّ إليك، وفي أحلامي خيالي يرحل نحوك، وجودك فقط هو ما يهوّن عليّ وحشة هذا المكان الكئيب ويجعلني أتمسّك بالحياة في هذه الدنيا بعد أن صرت لي كلّ الحياة، وأُعلِّلُ نفسي بالآمال وأحلم بذلك اليوم الذي سيجمعنا الله فيه معًا بميثاق غليظ.

تنهّدت سميّة بخجل وابتسمت ابتسامة رقيقة؛ إذ كانت سعيدة للغاية بما تسمعه من يوسف، ثمّ استطرد يوسف قائلًا: أنا لا أرتوي منك يا سميّة، ولكن رغم شوقي لك وسعادتي برؤيتك إلّا أنّني لا أريدَ أن أكون سببًا في غضب مونيادونا منك.

سميّة باطمئنان: لا تقلق فلن تعلم بأمر لقائنا هذا.

يوسف: كيف ذلك؟

سميّة: لقد خلدت إلى النوم مبكرًا؛ بسبب هذا الدواء الذي أعطاها إيّاه الطبيب، ولن تصحو قبل ساعات من الآن.

يوسف: أتعلمين... لقد صار لهذه السيدة جميل في عنقي لن أنساه أبدًا.

سميّة: أيّ جميل تعني؟

يوسف: حمايتك من هذا الفاجر (فرنان).

سميّة: لا تخشَ عليَّ يا يوسف، فأنا في مأمن منه.

يوسف بقلق: بل أخشى عليك، فأنا أعلم جيدًا أنّه لن ينتهي عمّا في رأسه.

صمتت سميّة ولم ترد، وغاص وجهها في تفكير عميق، فقال لها يوسف: سميّة ما بك؟

سميّة: لا شيء يا يوسف؟

يوسف: فما الأمر إذًا؟ ولمَ الصمت؟

سميّة: إنّما أردت أن أفاتحك في أمر.. وأخشى غضبك.

يوسف: لا تخشي شيئًا يا سميّة، فلا أحد هنا أقرب لك منّي.

سميّة: لقد حاولت سيدتي مرارًا وتكرارًا أن أعتنق دينها.

قاطعها يوسف وقال بحدّة: إياك أن تفعلي، فإن كانوا قد امتلكوا رقابنا بسيوفهم فلا سبيل لهم على أرواحنا وقلوبنا.

سميّة: أتعجّب منك يا يوسف ومن إصرارك على التمسك بدين لا نعرف عنه سوى أننّا ولدنا عليه!

يوسف بانفعال كبير: لا يا سمية بل أعرف عنه الكثير، ولولا ما نحن فيه من عبودية فرضت علينا ومُنعنا بسببها من حقوقنا لعلّمتك الكثير منه.

سميّة: ومن أين لك بذلك؟

يوسف: أنصتي إليَّ، لقد تعلّمت الكثير من أحد الأسرى المسلمين هنا، إذ إنه منذ أيام حضر (غونثالو) ومعه بعض الأسرى، فلمّا

علمت أنّهم مسلمون ترقبت الأمر، وبعد محاولات عدّة تسلّلت حتّى دخلت على أحدهم، ارتاب الرجل في أوّلِ الأمر، ثمّ لمّا علم أنني مسلم راح يحدّثني عن الدين - خاصة بعدما علم محاولات (غونثالو) تحويل ديننا- إنّه دين عظيم يا سميّة يأمر بالعدل بين الناس، فلا فضل لأحد على أحد إلّا بالتقوى والعمل الصالح، إنّه دين يتساوى فيه الفقير والغني، والمحكوم والحاكم، والضعيف والقوي، ولا يمكن لأحد أن يهضم حقّ أحد. كلّ شيٍ مُسجّل ومكتوب عند الله، وسيأخذ كلّ ذي حقّ حقه عاجلًا أم آجلًا... دين اشتملت مبادئه وتعاليمه على الدعوة إلى الأخلاق الحسنة؛ من رحمة وأمانة وصدق وإحسان وحياء وعدل وغير ذلك... هذه الأخلاق يفعلها المسلم خالصة لوجه الله تعالى، ولا يطلب أجرًا عليها ولا يُشعِر أحدًا بالمنّة بسبب حسن أخلاقه.... صمت يوسف قليلًا، ثمّ قال: انظري حال (فرنان) ومن قبله (غونثالو)، هل هذه أخلاق الدين الذي يريدوننا أن نتبعه؟ مالك كيف تحكمين يا سميّة؟

سميّة بسخط: فلماذا إذًا لم يحاول المسلمون الذين نحن منهم أن ينقذونا ممّا نحن فيه؟

يوسف: لأنَّهم لم يعلموا بأمرنا بعد.. ولو علموا ما تركونا، فالمسلم أخو المسلم لا يخذله، وقد وعدني صديقي الأسير أن يخبر عنّا حال عودته من الأسر، وبشرني بأنّ أمير قرطبة لا يرضى بذلك أبدًا، وبأنّه لا يشغله عن شعبه أمر.

سميّة: آه يا يوسف، لكم أتمنّى ذلك.

وفي تلك الأثناء سُمعت جلبة في الخارج، فخافت سمية وارتعبت فهبّت من مكانها بسرعة ودخلت القصر فتنفّس يوسف الصعداء،

وكان قد ارتعب كما سميّة وخشي عليها كثيرًا أن يراها أحد عنده؛ فيصيبها وإيّاه الأذى.

بدأت أنفاس يوسف تهدأ بعد أن اطمأّن على الأمر، فلم يهتم كثيرًا بأمر الجلبة والضجة خارج غرفته التي ينام فيها، حتّى إذا وضع رأسه يريد النوم، أحسّ بمن يقتحم عليه المكان ويقول له بصراخ عال:

فرنان: أيّها العبد اللئيم، لقد سمعت بوصولي.. فلمَ لم تهب لاستقبالي وتأخذ فرسي منّي؟

يوسف: ما كنت أعلم أنّك هو يا سيدي.

فرنان: بل كنت تعلم أيّها الحقير، ثمّ رفع شيئًا بيده وضرب يوسف به فشجّ رأسه وسال الدم بين عينيه.

رفع يوسف يده على رأسه ثمّ نظر فيها، فإذا الدماء قد بدّلت لون يده، بينما همهم (فرنان) في تكبر شديد وقال له: في المرة القادمة لن أضربك إلّا بسيفي، فلا تعد لمثلها أبدًا...

(٥)

غزوة بنبلونة

في مدينة ليون، في قصرها الملكي اجتمع ملك ليون (أردونيو الثاني) مع ملك نافارا (سانشو الأول) بعدما أفزعهم نشاط عبد الرحمن وقوّته، فقال أردونيو:

يجب أن نتحرّك ونُعيد الكرة عليه قبل أن يوحّد قوته ويتفرّغ لنا ... لقد استطاع هذا الأمير أن يقضي في أعوام قليلة على معظم الخارجين عليه، بل وفعل في بضع سنين ما لم يفعله جدّه عبد الله في ربع قرن، وما فشل جده الأكبر محمد في منعه، وإنّي لأخشى إن نحن تركناه أن يعيدها كما كانت، وتعود السيادة في الجزيرة لقرطبة بعد أن فقدتها لأعوام طوال.

سانشو الأول: ولهذا يا ملك نافارا أضع يدي في يدك، على ألّا يعتدي أحد منّا على الآخر.

أردونيو: قطعًا يا صديقي الملك، فنحن الآن في كفة واحدة، فطريقنا واحد وهدفنا واحد وعدونا واحد أيضًا.

سانشو: فما هي خطتك الآن؟

أردونيو بحماسة: أن نباغت أمير قرطبة وأن نضرب في أماكن شتى؛ فنفرّق جهده ونبعثر قوته، فلا يعرف أين يوجّه جيوشه، فيضطر إلى تفريقها فتهون علينا.

سانشو معجبًا بما سمع: نعم الرأي أيّها الملك.

نهض (أردونيو) وأمسك بكأسين من الخمر، أعطى واحدًا (لسانشو) وأمسك هو بالآخر وقال: نخب نافارا وليون.

وهكذا وُضعت الخطة بإحكام، فأغار أردونيو على (ناجرة) واستولى عليها، وسار حليفه سانشو إلى (بقيرة)، وكان يتولّى الدفاع عنها (عبد الله بن محمد بن لب)، ومعه نفر من زعماء بني لب وبني ذي النون وغيرهم من الوجوه الأكابر، فحاصرها سانشو واستولى عليها، وأسر من فيها من الزعماء وحملهم إلى (بنبلونة)، ثمّ قتلهم،

ولم ينج منهم سوى (مطرف بن موسى بن ذي النون) حيث استطاع الفرار من سجنه.

ضجّت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لتلك الفعلة الشنيعة، ووُجّهت سهام اللوم إلى عبد الرحمن لقصوره أو تقصيره في حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة.

وكاد عبد الرحمن أن يتميّز غيظًا ممّا حدث، ولم يكُ ثمّة مناص من العمل على تهدئة الخواطر، والانتقام لذلك الاجتراء، فسيّر عبد الرحمن مولاه ووزيره عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى في جيش قوي، ريثما يتمّ هو أهبته، فقصد إلى تطيلة وجاز منها إلى أراضي نبرّة (نافارا) وعاث فيها، وقاتل سانشو وهزمه في عدة وقائع، حتّى إذا أتمّ عبد الرحمن أهبته، لم يصبر على انتظار الربيع وهو موعد الصوائف، فغادر قرطبة في قوى جرارة، وهو يعتزم التنكيل بالنصارى والانتقام الذريع لجناية بقيرة، وترك في القصر ابنه الأكبر ووليّ عهده الحكم، وهو صبي في نحو العاشرة من عمره، وإلى جانبه الوزير أحمد بن محمد بن حدير، وسلك الناصر إلى الثغر طريق المشرق، مخترقًا كورة تدمير، فكورة بلنسية، ثمّ سار إلى طرطوشة ونظر في شؤونها، وتقدّم بعد ذلك صوب سرقسطة، وهنالك انضمّ إليه التجيبيون وحلفاؤهم.

ولمّا وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغر بقواتهم، وهم في جموع وافرة وتعبئة محكمة، ودخل أراضي نافارا؛ فساد الذعر بين النصارى، وترك العدو معظم قلاعه وحصونه دون دفاع، وكان أوّل

ما استولى عليه المسلمون حصن (قلهرّة) وكان سانشو قد أخلاه، فأمر عبد الرحمن بهدمه وإحراق ما فيه، ثمّ استولى عبد الرحمن على حصن قلقرة، ومحلة بيطرالته (بيرالتا) الواقعة شمال شرقي قلهرة وما حولها من الحصون، وقتل وسبى كل من وجد بها من النصارى، ثمّ سار إلى حصن بالجش القريب منها وأحرقه، وخرّب ما حوله من الضياع والزروع، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال (كاركاستيلو) في وادي أراجون شرقي بيرالتا، وشمال شرقي تطيلة، وهدّم سائر القلاع في تلك المنطقة أو أحرقها، ثمّ نفذ عبد الرحمن إلى قلب نافارا وزحف على عاصمتها بنبلونة، وحاول ملكها سانشو غير مرّة أن يعترض طريقه في شعب الجبال، فكان يردّ في كلّ مرة بخسارة فادحة...

ودخل عبد الرحمن بنبلونة، وقد فرّ سكانها رعبًا، فدمرها وأحرق قصورها، وجدّ سانشو في جمع قواته، ووافته الأمداد من قشتالة، وحاول لقاء المسلمين في مفاوز نافارا الوعرة مرتين، الأولى على مقربة من شنت إشتيبن، والثانية على مقربة من قلهرّة، ولكنّ عبد الرحمن كان على حذر، وكان يعرف تلك المفاجآت الخطرة، فهزم النصارى في كلتا الموقعتين ومُزّقوا شر ممزّق، وانهارت كلّ مقاومة، وبذلك تمّ إخضاع نافارا وسحق قواتها.

ثمّ سار عبد الرحمن جنوبًا إلى حصن مسرة، وهو أولّ حصون المسلمين على حدود نبرّة، فعهد إلى من فيه بادخار الأطعمة، وفرّق فيهم الأموال، ورحل بعد ذلك إلى مدينة تطيلة، ثمّ قفل منها راجعًا إلى الحضرة...

(٦)

اعتلّت صحة (مونيادونا) كثيرًا، وفقدت الرغبة في الحياة خاصة بعد وفاة زوجها غونثالو، فالتزمت الفراش لا تفارقه، بينما بدأ فرنان يمارس سلطته وتسلّطه على كلّ من في القصر، وبدا وكأنّه يترقّب وفاة أمّه لنيل سميّة التي ما كان يريدها لجمالها، ولكن لأنّها عربية، وكأنّه أراد بذلك أن ينتصر على مسلمي الأندلس في معركة وهمية! فكان يسوقه حقده لا حبّه.

حاول فرنان مرارًا أن يحظى بسميّة التي كانت تأبى وتلوذ بسيدتها التي أخذت على عاتقها حمايتها، ولكن ومع اعتلال صحتها بدأ الخوف والخشية ينتابان سميّة ويوسف الذي كان مطلعًا على ما يحدث، وكما زادت مضايقات فرنان لسميّة فقد عمل - أيضًا- على إذلال يوسف بكلّ الطرق، ولمّا سأله صديقه غارسية وقال: إن كنت تكرهه هكذا فلمَ لا تقتله أو تبيعه لتستفيد بثمنه؟ رد قائلًا: وأريحه ممّا هو فيه! كلا لن أفعل، فقد أصبح إذلالي له جزءًا من متعتي.

وفي يوم من الأيام كانت سميّة تسير في القصر وهي تحمل بيدها طعام سيدتها المريضة ... حتّى إذا كانت في أحد الممرات وقف فرنان في وجهها وحاول مضايقتها، فما كان منها إلّا أن أسرعت بعد أن أفلتت منه ودخلت لسيدتها التي لاحظت وجوم سميّة فسألتها: هل فعل ما يضايقك مرة أخرى؟

حاولت سميّة إخفاء دموعها فلم تستطع، فنظرت لها مونيادونا في إشفاق وراحت تخفّفُ عنها وتعدها أنّها لن تسمح له بأن يؤذيها أبدًا.

مسحت سميّة دموعها وقالت – بعد صمت يسير ووجوم عظيم–: سيدتي لقد فكّرت كثيرًا في الأمر، والآن قد حان الموعد.

مونيادونا: أيّ أمر يا بنيتي؟

سمّية: سأتنصّر وأدخل الدير!

ابتهجت مونيادونا وحاولت النهوض من سريرها لاحتضان سميّة ولكنّها لم تستطع، فاكتفت بكلمات حب، ثمّ استطردت وقالت: ولكن لمَ الدير وأنت في ريعان الشباب؟

سميّة: لقد زهدت في هذه الحياة يا سيدتي وليس لي بعدك في هذه الدنيا من أعيش له – أطال الله في عمرك– فإن كان فسأحيا لربّي وحده.

مونيادونا: ليباركك الربّ يا بنيتي ويحفظك.

أمّا يوسف فما إن علم بتنصر سميّة ودخولها الدير، حتّى اكتأب واسودّ وجهه، وبدأ الامتناع عن الطعام، إذ شعر أن لا معنى لحياته وقد فقد حبيبته التي كان يعيش من أجلها، وزاد في ألمه أن فرنان قتل صاحبه الأسير بعد أن رفض افتكاكه مقابل الأموال، فشعر بأنّه فقد كلّ أسباب الحياة وكلّ فرصة في نيل حريته وعودته إلى دياره وأهله.

ومع مضي الوقت... ساءت أحوال يوسف، حتّى ظنّ البعض أنّ مسًا أصابه ففقد عقله، وراح يهذي ويقول: كيف لك أن تفعلي؟ كيف تتركيني وحيدًا في هذا العالم؟ كيف تركتِ دين آبائك وأجدادك؟!! ظلّ يردِّدُ تلك الكلمات لا غيرها حتّى يئس منه من في القصر وسخروا

منه، وصاروا ينظرون إليه على أنّه مجذوب فقد عقله، وأصبحوا ينتظرون هلاكه ليرتاحوا من همّه...

(٧)

وصلت أنباء الغزوة إلى كلّ أرجاء الأندلس؛ فاهتزت لها وطربت، وأقيمت الزينة في كلّ أرجاء قرطبة (أزقّتها وشوارعها) وشعر الأندلسيون لأوّلِ مرة منذ عقود بالسكينة والأمان، فأخيرًا لن يهدِّدَهم نصارى الشمال أو يحرقوا ثغورهم، وأخيرًا أصبح للأندلس رجل اسمه عبد الرحمن، الذي توطّدت سمعته بعد أن هزم الثوار وألحق بهم الليونيين (أهل ليون) وحلفائهم البشكنس في غزوة بنبلونة، وساد البِشر الجميع، وما إن وصل عبد الرحمن إلى قرطبة حتّى استقبلته حشود القرطبيين والجميع يهتف باسمه، وهو يردّ عليهم التحية بيده والابتسامة والرضا باديين على وجهه ومحياه، ومن حوله جنده وخلفهم صفوف من السبايا والأسرى، حتّى إذا وصل قصر الروضة في قرطبة كان في استقباله ولي العهد ومن حوله صفوف من كبار الفتيان الصقالبة والوزراء والحشم، فسلّم عليهم الأمير، ثمّ انطلق إلى جناحه الخاص في القصر، فاستقبلته جاريته الزهراء بالبشر والترحاب وتقبيل يديه ومساعدته في خلع ملابس حربه وهي تقول: حمدًا لله على عودتك سالمًا منصورًا يا سيدي، ولكن أما آن لمولاي الأمير أن يريح نفسه، ففي قادة جيشه من يغنيه عن الخروج وركوب المخاطر، فإنّي والله أخشى عليك يا سيدي.

أكمل عبد الرحمن خلع ثيابه وهو يقول: بئس الأمير أنا إن مكثت هنا بعيدًا عن الأخطار، بينما بلاد المسلمين يتهدَّدُها الأعداء من كلّ صوب وحدب، وهل أنا أفضل من جدّي الداخل الذي كان يقود الجيوش هنا وهناك ويخرج بنفسه للقتال؟ وماذا عن جندي وعساكري إن لم يروا فينا نحن الأمراء القدوة والمثل للتضحية وبذل النفس؟! والناس على دين ملوكهم يا زهراء.. فإن لم نجاهد لن يجاهدوا وإن لم نحارب فسيجبنوا.

الزهراء بقلق: لكنّي أخشى عليك يا سيدي؟

عبد الرحمن: وهل تظنين أنّ قصوري وحرسي سيمنعون ملك الموت من الدخول إن حان الأجل؟

الزهراء: كلا يا سيدي.

عبد الرحمن: إذاً فلا داعي للخوف والقلق، فلكلّ نفس أجل، ثمّ توجّه عبد الرحمن صوب النافذة المطلة على حديقة القصر، وأخذ نفسًا عميقًا، وكأنّما أراد أن يتنسّم نسيم قرطبة العليل المحمل بعبق الأزهار والورد بعدما افتقده لعدّة أشهر، ثمّ أدنا منه الزهراء وقال: قرطبة، ما أنعش نسيمها! ما أدفأ حضنها! إلى مثلها يرنو الحليم صبابة، فتصنّعت الزهراء الغيرة وسألته: وماذا عن الزهراء يا مولاي؟ فأجابها الناصر: أمّا أنت يا زهراء، فعبد الرحمن يذوب فيك عشقًا، ابتسمت الزهراء بغنج ودلال وبادلت مولاها نظرات الهيام والشوق، ثمّ أمسك عبد الرحمن بيد الزهراء وقال: هيّا لحديث القلب والروح فقد اشتقت إليك كثيرًا.

(٨)

نجح عبد الرحمن بانتصاراته المتتالية وعزيمته التي لا تلين في إلحاق الهزائم المتتالية بأعدائه، فدبّ الخلل في تلك الممالك، وكذلك حال المهزومين تضعف نفوسهم وتخور عزائمهم ويتقاتلون فيما بينهم، حتّى حاصر اليأس (أردونيو) ملك ليون، فلم يمض إلّا القليل حتّى توفي حسرة وكمدًا من جراء هزائمه المتتالية... وكذلك يكون حال الملوك الأوفياء لبلادهم وأمّتهم، تحاصرهم همومها وتقتلهم مشاكلها إن لم يجدوا لها الحل، أمّا أولئك الملوك الذين يحيون بعد الهزائم ويتشبثون بملك زائل فهؤلاء لا يشغلهم إلا متعتهم وشهواتهم؛ لذا لا تؤثر فيهم الهزائم ولا تقضّ مضاجعهم النوائب، فخلفه في الملك أخوه (فرويلا)، فلم يحكم سوى عام ثمّ توفي؛ فتنازع العرش ولدا أردونيو(سانشو وألفونسو)، وشُغلت ليون بحرب أهلية استمرّت بضعة أعوام، وانتهى طورها الأول بوفاة سانشو، ثمّ نشبت ثانية بين ألفونسو وأخيه راميرو، وانتهت بفوز راميرو، وجلوسه على عرش ليون باسم راميرو الثاني.

أمّا عبد الرحمن ففعل كما فعل جدّه الداخل من قبل، إذ لم يتدخل في تلك الحرب الأهلية، فترك النصارى يمزّق بعضهم بعضًا، وانتهز الفرصة ليتمّ سحق الثورة، وتوطيد السكينة داخل مملكته.

وكما مات ملك ليون فقد مات -أيضًا- سانشو الأول ملك نافارا، ليحكم من بعده خيمينو غارسيز الذي لم يطل به المقام ليهلك،

ويأتي من بعده غارسية سانشيز الذي حكم تحت وصاية أمه الملكة (طوطة)، التي تعدّ عمة الأمير عبد الرحمن بن محمد!

قرَّرَ الأمير عبد الرحمن أن يستغلّ اشتعال الحروب الأهلية الدائرة في مملكة ليون وهلاك صاحب بنبلونة في توطيد ملكه والقضاء على الثوار والخوارج، وخاصة آل حفصون في ببشتر وآل الجيليقي في بطليوس، وكان سليمان بن عمر بن حفصون قد نزع الطاعة المرة تلو الأخرى رغم عفو الناصر عنه وفارق الجماعة، وقد كان عبد الرحمن يعلم في قرارة نفسه أنّه يجب القضاء على كلّ آل عمر بن حفصون وأنّه لا أمان لهم...

والآن وقد انشغل نصارى الشمال فحان موعد القضاء على آل حفصون، وبينما يجلس عبد الرحمن في قصر قرطبة، إذ دخل عليه موسى بن محمد بن حدير- كان الحاجب بدر قد مات وتولى موسى الحجابة عوضًا عنه- متهللّ الوجه وهو يقول:

سيدي الأمير، رسالة من الوزير عبد الحميد بن بسيل.

عبد الرحمن: اقرأ ما فيها.

ابن حدير: يقول إنه استطاع أن يوقع بالرامي أبي نصر، ثمّ لم يرد أن يقتله حتّى ترى ذلك بنفسك.

نهض عبد الرحمن من مجلسه وقال: لقد أحسن ابن بسيل صنعًا، فلطالما أرهقنا هذا الفاجر بفعله، فكم روحًا طاهرة قتل، وكم من أسير أجهز عليه، وكم من عين فقأ، والله لأذيقنّه ممّا فعل، ثمّ أمر بإحضاره إلى الحضرة، فجيء به إلى باب السُّدَّة وأمر عبد الرحمن بصلبه وشكّه بالسهام، فرُفع فوق جذع في مشهد حافل من الناس،

وتعاورته سهام الرماة حتّى مُزّق بدنه، وتُرك داميًا فوق جذعه، ثمّ أخِذت جثته بعد أيام وأحرِقت.

وقد أراد عبد الرحمن بهذا أن يرسل رسالة مفادها أن الجزاء من جنس العمل وأنّ من يقتل المسلمين لا حياة له في هذه الجزيرة، وأنّ الخير في الطاعة وحدها ولزوم الجماعة...

أمّا في ببشتر، وبينما هو على حصارها، إذ خرج سليمان بن صمويل في قوّاته محاولاً قتل القائد (عبد الحميد بن بسيل) فما كان من القائد وجنده إلّا أن أحاطوا بسليمان وانقلب السحر على الساحرِ، واستحر القتل في جند سليمان وقُتل سليمان نفسه واحتزّت رأسه وأرسلت إلى قرطبة، واستغلّ حفص بن صمويل ذلك فأعلن نفسه ملكًا على ببشتر، ثمّ ناوئ قرطبةَ الأمرَ وخرج عليها.

وقد كانت ببشتر وما يجري فيها من أكبر المصاعب التي تواجه عبد الرحمن بن محمد، وكان يعلم في قرارة نفسه أنّ نصارى الشمال حال انتهاء حروبهم الأهلية لن يلتزموا الحياد، بل سيهاجمون ثغور المسلمين، ولا وقت أفضل من الآن للقضاء على الثوار وضربهم في المقتل، ولهذا فقد عزم عبد الرحمن النهوض بنفسه ومهاجمة ببشتر ووضع نهاية لخروجها وعصيانها، وكان حفص بن عمر بن حفصون قد خلف أخاه سليمان في حكم ببشتر، وأظهر كما قومه من قبله العصيان والخروج على الدولة.

ولأن التربية بالفعل أبلغ وأنفع من التربية بالقول، فقد اصطحب عبد الرحمن معه ابنه وولي عهده الحكم حتّى يقوى قلبه، ويعلّمه أنّ الحاكم الصالح لا يترك ميادين الوغى وأنّ الحاكم الشجاع من

يفرض كلمته بسيفه على أعداء أمته وبلده، ولا يغامر بحياة جنده ويرمي بهم المهالك وهو على سرير من ذهب، آمن على نفسه دون جيشه، وكان الحكم يومئذ صبيًا في الثانية عشرة من عمره.

نزل عبد الرحمن بجيشه على مدينة (ببشتر) وبها حفص بن صمويل وخاصته، فشدَّدَ عليها الحصار، ثمّ ابتنى إزاءها حصنًا للتضييق عليها، وفرّق قواته لمنازلة بقية الحصون الثائرة، ولمّا طال أمد الحصار لم يرد عبد الرحمن أن تطول غيبته عن الحاضرة، فترك قوة لمتابعة الحصار وأوصاهم بالتنبه والحيطة وأخذ الحذر.

استمرّ الحصار بضعة أشهر، حتّى اضطرّ حفص أن يذعن أخيرًا إلى التسليم؛ فسلّم المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر، الذي أخذ حفص بن عمر وأهله وأصحابه أسرى إلى قرطبة، فعفا عبد الرحمن عنهم، وأحسن مثواهم، وضمّ حفصًا إلى جيشه.

وفي العام التالي، سار عبد الرحمن إلى (ببشتر) لتنظيم شؤونها، فخرج من قرطبة ورافقه ولده الحكم، ووزيره أحمد بن محمد بن حُدير، واستخلف على المدينة أحمد بن عيسى بن أبي عبدة. وقصد إلى (ببشتر) بطريق أشونة، حتّى إذا دخلها وجال في أرجائها، وألفاها منقطعة النظير من حيث الحصانة والمنعة، عيّن لها واليًا من قِبَلِه، ثمّ عمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون، فصلّى في مسجدها الجامع، وأمر أن تُقام فيه الصلاة... وكان ابن حفصون قد عطّل الصلاة في المسجد، وبنى الكثير من الكنائس في (ببشتر)، وهنا أراد عبد الرحمن أن يتحرّى الحقيقة حول دين ابن حفصون، فأمر بنبش قبره وإخراج جثته وفحصها؛ فتبين من هيئتها، وكونها

ملقاة على الظهر مشبوكة الذراعين على الصدر، ومستقبلة المشرق، أنّه دفن على دين النصرانية!

عاين ذلك الناس من العسكر وغيرهم، وشهد بذلك الفقهاء المرافقون، واتفق الجميع على أنّه هلك على دين النصرانية، فأمر عبد الرحمن بحمل الجثة إلى قرطبة، حيث عُلّقت في أعلى الجذوع على باب السُّدة يكتنفها أشلاء ولَدَيْهِ المصلوبَيْنِ قبله، وهما (حكم وسليمان).

ثمّ أمر عبد الرحمن، فعمّرت سائر مساجد (ببشتر) المهجورة، وهُدّمت سائر الكنائس والأديرة التي ابتناها الثائر في تلك المنطقة، واستولى عبد الرحمن على سائر معاقلها وحصونها، وطهّرها من آثار الثورة الأخيرة، ثمّ أمر بعد ذلك بالقبض على (أرخنتا) ابنة عمر بن حفصون وإعدامها؛ لارتدادها عن الإسلام وتمسكها باعتناق النصرانية.

كما أمر بعد ذلك بتخريب ببشتر، وحطّ أسوارها، وإنزال جدرانها، وهدم كل قائم فيها إلّا القصور والقصاب، فقد أمر بالإبقاء عليها لرجاله وحشمه الذين ندبهم للقيام بأمرها، فدكّت أسوارها، وحطّت أعلامها، ثمّ أصدر عبد الرحمن كتابًا بحوادث (ببشتر)، والأمر بهدمها، وهدم مسجدها الذي أقامه ابن حفصون؛ لأنّه كان ستارًا لفسقه.

وهكذا قضى عبد الرحمن على ثورة طالما أقضت مضاجع بني أمية وأرهقتهم، ومن ثَمّ عمد إلى القضاء على باقي الثوار، حتّى استطاع في سنواته الأولى أن يُخضع معظم الثوار.

ولم يمر سوى ستة عشر عامًا منذ أن تولى عبد الرحمن مقاليد الحكم في الأندلس، حتّى استطاع بفضل الله أن يوحّدها ويقهر النصارى في غير موقعة، ناهيك عن نجاحه في السيطرة على شواطئ البلاد ومنع تسلسل الفاطميين إليها

(٩)

الخليفة

جلس عبد الرحمن في قصر الناعورة القريب من نهر الوادي الكبير، وهو يفكّر في أمر دولته الفتيّة، تلك الدولة التي انتشلها بعبقريته من الضياع وحفظها من الفتن، وبينما هو غارق في أفكاره، إذ دخلت عليه الزهراء، فلم يشعر بها، ولم تُرد هي أن تقطع أفكاره، ومرّ الوقت والزهراء صامتة وعبد الرحمن لا يلتفت هنا أو هناك، حتّى تكلّمت الزهراء وقالت: ما الذي يشغل مولاي الأمير ابن الخلائف، حتّى لم يشعر بوجودي؟

هزّ عبد الرحمن رأسه وقال: ابن الخلائف!

الزهراء: أجل يا سيدي، ألست حفيد عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك والحكم بن العاص؟

عبد الرحمن: بلى، ولكن أين أنا من هؤلاء وأين أنا من هذا اللقب؟

الزهراء: والله إنّك لجدير بهذا اللقب يا مولاي.

عبد الرحمن: حتّى وإن كان.. فلا سبيل إليه وقد اتفق المسلمون على تسمية من يملك الحرمين الشريفين بلقب الخليفة.

الزهراء: لكلّ شيء أوّل يا مولاي، وها هم من لا نعرف لهم أصلًا ولا نسبًا قد اتّخذ كبيرهم لقب الخليفة، وأنت من أنت يا سيدي.

قهقه عبد الرحمن ونظر إلى الزهراء بإعجاب وقال: تقصدين العبيديين أتباع عبيد الله المهدي الكذاب.

الزهراء: أجل يا سيدي، فهؤلاء لا نعرف لهم نسبًا.

عبد الرحمن: لقد اتفق الأفّاكون على أخذ النسب الشريف مطيّة لأغراضهم الخبيثة، فعل ذلك من قبل (شقنة بن عبد الواحد) عندما خرج على جدّي الداخل، وها هم العبيديون يكرِّرُون الأمر نفسه، ويدّعون النسب الشريف ليستحوذوا به على قلوب المسلمين، إذ قد علموا بتعلّق عامة المسلمين بآل البيت الكرام ... قال ذلك.. ثمّ نهض ورنا بعيدًا.. قبل أن يقول -وكأنّه استدرك شيئًا ما-: وإن كان هؤلاء الأفّاكون قد ادّعوا نسبًا ليس لهم، فكيف لا أتّخذ لقبًا أنا أحقّ الناس به؟، فكما قلتِ يا زهراء، فأنا ابن الخلائف معروف النسب ولن أستطيع أن أهزم العبيديين بغير سلاحهم، ومن يدري فلربّما إن تأخّرت عن إعلان الخلافة أن يخرج من الأندلسيين من ينضوي تحت راية هؤلاء، خاصة وأنّ بني العباس -أعداءنا الخالدين- قد خبت قوتهم وذهب العظماء منهم، فلمَ لا أعمل على إحياء تراث الخلافة الأمويّة الروحيّ، بعد أن توطّدت دعائم دولتها السياسية في الأندلس... لقد انتهت الدولة العباسية في المشرق من الاضطراب

والفوضى، وما حدث من استبداد موالي الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء العباسيين، حتّى إنّ (المؤنس بن المظفر) التركي قتل الخليفة العباسي (المقتدر) وعيّن (القادر بالله) خليفة بالاسم، إذ إنّ الذين كانوا يديرون البلاد هم قادة الموالي لا الخليفة، وبذلك يكون القادر غير جدير بالخلافة، وأنّ الوضع في الشرق يسوده الضعف والتجزئة، بل أصبح الخليفة لا يملك من أمور الخلافة شيئًا سوى المظهر الاسمي، والدعاء له على المنابر، فأنا - والله- أجدر بالخلافة منه!

الزهراء: بلى يا سيدي.

قهقه عبد الرحمن في سخرية وقال: أتعلمين؟ لقد ابتنى قائد العبيديين (جوهر الصقلي) عاصمة جديدة لخليفته المزعوم، أطلق عليها اسم القاهرة.

نظرت الزهراء متعجبة وقالت: القاهرة!!

عبد الرحمن: أجل يا زهراء، يقصد بذلك أن تقهر عاصمته (بغدادَ) عاصمة العباسيين، ولأنّه لم يرد أن ينزل وجنده مدينة الفسطاط التي بناها الصحابي عمرو بن العاص، كراهية وحقدًا.

الزهراء: كلاهما أعداء لك يا سيدي، فلا بأس أن يضرب بعضهم بعضًا.

عبد الرحمن: أجل يا زهراء، ولكن رغم ذلك يظلّ بنو العباس أندادنا وإن كانوا أعداءنا، فلا نشكّ في نسبهم وهم من أشراف

قريش، أمّا العبيديون فلا نعرف لهم نسبًا ولا أصلًا ولو كانوا يريدون الخير ما فرّقوا الأمة وبثّوا فيها بذور الشقاق.

ولأنّه لا يريد الفتنة، ولا يريد ألقابًا في غير موضعها، فقد استشار عبد الرحمن الفقهاء في الأمر، وبرَّرَ الفقهاء تعدُّدَ الخلفاء.. إذا كانت هناك مصلحة تقتضي ذلك، واعترفوا بشرعية خليفتين للمسلمين في آنٍ واحد بشرط أن يكون بينهما مسافة كبيرة وشاسعة لمنع الاصطدام والفتن بين المسلمين.

وهكذا رأى عبد الرحمن أن يتّسم بسمة الخلافة، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحيّ، وأنّه بما وفّق إليه -من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها- أحقّ بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة... ونُفّذ الأمر بذلك في يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ، حيث قام صاحب الصلاة القاضي أحمد بن أحمد بن بقي بن مخلد بالدعاء له بالخلافة على منبر المسجد الجامع في قرطبة.

وهكذا اتّخذ عبد الرحمن سمة الخلافة عن يقين بأفضليته، وأولوية حقّه وحقّ أسرته، وتسمّى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، فكان أوَّلَ أمير من بني أميّة في الأندلس يُنعت بأمير المؤمنين... وبدأت الدعوة منذ ذلك الحين لبني أمية بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة.

(١٠)

الهروب

التحق فرنان غونثالث بخدمة الملك (راميرو الثاني) ملك ليون، وأخلص في خدمته حتّى صار من أقرب رجاله إليه، وقد كان فرنان يجيش بطموحات كبيرة، فقد كان يأمل من وراء خدمته لراميرو أن ينعم عليه الثاني بإمارة يحكمها باسمه؛ لذا ترك برغش مصطحبًا معه بعض جند والده وخرج يريد ليون، تاركًا خلفه في القصر من يحميه.

وما إن خرج فرنان حتّى ابتهج الخدم والجند في القصر، وبدا كل فرد منهم يفعل ما يريد دون خشية أن يبطش به فرنان، أمّا يوسف فقد كانت قواه قد نضبت ولم يعد يقوى على النهوض، فأهمله الحرس والجند، وكانوا يتركونه أيامًا وأيامًا، ثمّ يعودون فيجدونه مكانه وقد نحل جسده وضعفت حركته وظنّوا به الجنون... وبينما هو كذلك لا يأبه لشيء، إذ أتاه في منامه ذلك الأسير وقال له: انهض يا يوسف، فقد آن أوان افتكاك أسرك!

استفاق يوسف من نومه لتتردَّدَ في أذنيه تلك الكلمات، فراح يردِّدُها وكأنّه يحلم، فتحرّكت روحه وابتهجت نفسه وراح يبحث هنا وهناك ...ثمّ قال في نفسه: وماذا سيفيد اليأس يا يوسف؟ وماذا لو متّ وكنت نسيًا منسيًا؟ لن يقدّم موتك أو يؤخّر، يجب أن يكون لك هدف تسعى إليه، وما قيمة الرجل وهو بلا هدف ولا غاية؟ إن كنت

قد حبست نفسك طوال كلّ المدة السابقة حزنًا على سميّة، فلماذا لا تنقذ نفسك الآن ومن ثَمّ تنقذ سمية؟!

نهض يوسف.. كأنّه بُعث للحياة مرة أخرى، ثمّ التفت هنا وهناك، فإذا بالجند منشغلين كلّ في شأن، وقد خفت قبضتهم عليه ظنًا منهم أنّه يصارع الموت، خاصة بعد رحيل فرنان، ثمّ قال: الكل منشغل عنك يا يوسف، فمن ذا الذي سيفتقد وجودك يا فتى؟!

وهكذا قرَّرَ الشاب الهروب من سجنه وتلك القرية الظالم أهلها، تلك القرية التي شهدت حبّه لسميّة قبل أن تشهد تنصّرها ودخولها الدير.

قرَّرَ يوسف الهروب قبل أن يقول في نفسه: إنّك ضعيف منهك القوى، يجب أن تأكل وتأكل حتّى يقوى جسدك على الفرار يا رجل... ثمّ نظر إلى الطعام فوجد كسرة من الخبز فتناولها بيده والتهمها، وعندما دخل عليه أحد الحراس استلقى يوسف واصطنع المرض كما كان، فخرج الحارس من عنده وهو يقول: لماذا لا تَموت وتُريحنا!

انتظر يوسف حتّى جنّ الليل وانتصف، ومن ثَمّ تحرّك ببطء شديد صوب الباب المغلق، وفتحه في غفلة من حرسه النائمين، وخرج لأوّل مرة من القصر الكئيب، وسار في أزقّة برغش الصخرية القاسية كقلوب أهلها، وهو يتمنّى ألّا يحدّثه أحد أو يلمحه، وكان له ما أراد، فلم يعره أحدهم انتباهًا، كما لم ينتبه لخروجه أحد من الحرس.

خرج الفتى من برغش وهو يدعو ربّه ألّا يلاحقه أحد أو يتنبهوا لخروجه حتّى يدخل بلاد المسلمين، لهذا ورغم التعب لم يتوقّف عن المسير، وكان كلّما جاع أكل من ثمرات الشجر وتبلّغ بأيّ شيء وجده،

واستمرّ يوسف في السير أربعة أيام... أربعة أيام يتنقل بين الوديان والغابات، لا يتوقف لحظة خشية أن يُحاط به، حتّى إذا شارف مشارف بلدته (طلبيرة) فقدَ كُلّ قوته وخانته قدماه فوقع مغشيًا عليه...

ما إن استفاق حتى وجد وجوهًا تطالعه... فتح يوسف عينيه وراح يطالع الوجوه هنا وهناك... يحاول أن يبحث فيهم وبينهم عن وجه مألوف أو شخص يعرفه، فإذا بشيخ كبير يبتسم ويقول: الحمد لله على سلامتك يا ولدي.

همّ يوسف بالنهوض، فلم يستطع فعاد إلى النوم مرة أخرى، فقال له الشيخ: لا تجهد نفسك يا ولدي ولا تكلّف نفسك ما لا تطيق.

يوسف: أين أنا؟

الشيخ: هذا بيتي المتواضع يا ولدي وهؤلاء أولادي.

يوسف: فمن الذي أتى بي إلى هنا؟ وماذا حدث؟

الشيخ: لقد وجدتك مغشيًا عليك فحملتك إلى هنا، وأنا لا أعرف عنك أيّ شيء، فمن يكون الفتى؟

استند يوسف على ذراعيه وهمّ بالنهوض مرة أخرى وقال: يجب أن أذهب.

الشيخ: إلى أين يا ولدي؟

يوسف: إلى داري وأهلي يا سيدي.

الشيخ: لكنّك لن تقوى على المسير، يجب أن تنال قسطًا من الراحة.

يوسف: سأناله في داري.

الشيخ: في أيّ مدينة أو قرية دارك.

بابتسامة باهتة قال يوسف: (في طلبيرة)

الشيخ: طلبيرة... لكن لا أعرفك .. فمن تكون؟

يوسف: أنا يوسف ....اسمي يوسف بن هشام بن علي ودارنا على مشارف المدينة.

فكّر الشيخ في الاسم مليًا، وراح يردِّدُ الاسم: يوسف بن هشام بن علي... لكن كيف ذلك؟

يوسف: ماذا تعني يا سيدي؟

الشيخ: إن كنت أنت أنت، فأين كنت طوال هذه السنين وكيف نجوت من المذبحة؟

يوسف: أيّ مذبحة؟

الشيخ: قصّ لي أولًا حكايتك.

راح يوسف يقصّ على الشيخ قصته وخروجه مع سميّة ولهوهم، ثمّ حلول الظلام والتيه خلف الأشجار واستعباده في برغش، والشيخ يتابع في صمت حتّى إذا عرف الشيخ القصة قال له مكررًا: «وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت» لقد أراد الله أن تبقى حيًا عندما خرجت وسميّة وابتعدتم عن الأنظار، فقد قتل الليونيون كلّ من وجدوه في القرية إلّا من فرّ منهم أو تخفّى أو كان بعيدًا عن موقع المذبحة.

يوسف: ماذا عن أبي وأمي؟

الشيخ: البقاء لله يا ولدي.

أغمض يوسف عينيه وكأنّ الدنيا تدور به، وانهمرت الدموع من عينيه وراح يقول: فررت من برغش وجحيمها لأعيش هنا وحيدًا بعد أن مات أهلي، عشتَ وحيدًا يا يوسف وستحيا في بلدتك وحيدًا.

(١١)

قرطبة الخلافة - جوهرة الدنيا

بالقرب من مسجد قرطبة الجامع في قلب السوق الكبير، كان هناك جمع كبير من الناس يصطفون وكأنّهم ينتظرون دورهم في أمر ما!

نظر خالد القماش إلى هذا الازدحام، ثمّ سارع الخُطا تجاهه، فقد كان الازدحام بالقرب من مكتبة صاحبه عمرون الورّاق، وما إن وصل إلى حيث الازدحام حتّى زال تعجبه من سببه ولكن رغم ذلك فقد وقف مشدوهًا أمام المكتبة وهو يتابع حركة الناس وتهافتهم على شراء الكتب وخاصة الجديد منها، فهذا يشتري هذا الكتاب، وذاك يتصفّح غيره، وهذا يسأل عن كتب المشرقيين، وهذا يقرأ، والعجيب أنّ الأطفال كذلك يحملون الكتب! مرت لحظات قبل أن يلتفت إلى داخل الدكّان فيجد بعضًا من النسّاخين يعملون في نسخ الكتب بجديّة وسرعة عجيبة وكان عمرون قد استأجرهم مؤخرًا؛ لتلبية حاجة

الناس من الكتب بعد أن صار الكتاب أهم وأغلى سلعة في كلّ الأندلس وخصوصًا في قرطبة.. حتّى إنّ المكتبة الأموية العظيمة صارت كما الكعبة لأهل الأندلس، وصاروا يحجّون إليها كل حين! انصرف خالد مبتسمًا ممّا يرى، سعيدًا؛ لأنّ أهل الأندلس صاروا أكثر حرصًا على العلم والقراءة.

وفي المساء عاد خالد إلى المكتبة فوجد عمرون يُعيد الكتب إلى أماكنها فقال:

كيف حالك يا رجل؟

تقدّم عمرون صوب صديقه واحتضنه بقوة، ثمّ قال: الحمد لله على سلامتك يا خالد، متى عدت؟

خالد: اليوم صباحًا.

عمرون: تصل صباحًا ولا أراك إلّا في المساء؟

خالد: قد عرجت عليك صباحًا، فوجدتك مشغولًا، فقد راجت تجارتك يا عمرون.

عمرون: أرأيت يا صديقي، لقد صار الكتاب أغلى سلعة في قرطبة كلّها، وكيف لا وقد تبارى أهلها بالاقتداء بالخليفة الناصر الذي أنشأ المكتبة الأمويّة الكبيرة ووضع فيها كلّ ما هو نفيس وغال من الكتب، حتّى بلغ عدد الكتب فيها أربعمائة ألف كتاب... انظر حولك يا خالد لقد تبدّلت أحوال الناس وصار العلم والتعليم أهم ممّا سواه، ولم يقتصر الأمر بالرجال حتّى تبارت فيه النساء، فصارت مكتبة قرطبة تعجّ بالنساء اللواتي يعملن في نسخ الكتب، ناهيك عن تشجيع الخليفة لهن على ذلك حتّى اتّخذ منهنّ كاتبة له.

خالد: إنّه لأمر عجيب، لقد بدّل الناصر أحوال الأندلس وصنع فيها الأعاجيب، والآن أخبرني من هؤلاء؟

عمرون: إنهم النسّاخون.

خالد: النساخون؟

عمرون: أجل، حتّى إذا أراد واحد من الناس أن يمتلك كتابًا ما، كلّ ما عليه أن يخبرني باسم الكتاب، فإن كان لدي نسخة منه فبها، وإلّا أرسل أحد النساخين العاملين لديّ إلى مكتبة قرطبة فينسخ منها ما نريد.

خالد: لقد أصبح الخليفة محطّ إعجاب وتقدير وحبّ جميع الأندلسيين.

عمرون: أجل وهو حقيق بذلك... وأنت ماذا عن تجارتك؟

خالد: لقد اشتريت قطعة أرض خارج الربض وأقمت فيها مزارع خاصة بدودة القز، والآن يمكنك يا صديقي أن تبتاع لزوجتك ما تحبّ من الحرير القرطبي الذي لا مثيل له.

تبادل الصديقان الضحكات وهم ينظرون إلى كثرة الأموال والرخاء المنقطع النظير الذي يعيشون فيه، وكلّ أهل الأندلس ولسانهم يلهج كما كلّ الأندلس بالدعاء للخليفة العظيم...

....

جلس الناصر في قصر قرطبة وحوله الوزراء والقادة ومعهم أحمد بن عبد ربه معلم الناصر ومؤدّبه وشاعر دولة بني أمية، وقد جمع الناصر كلّ رجاله؛ ليتعرف منهم على حال البلاد والعباد، فكان

أوَّلَ مَن تحدّث هو أحمد بن محمد بن حدير الذي ولّاه الناصر أمر دار السكة فقال:

منذ أن أمرت يا مولاي باتخاذ دار للسكة ونحن نعمل على تنظيم العُمْلة وتثبيتها، حتّى صار الدينار الذهبي والدرهم الفضي القرطبي عيارًا محضًا، ممّا حدا بممالك ليون وجيليقية ونافارا أن يتخذوا من الدينار القرطبي عملة لهم، بعد أن عرفوا حرصنا على العملة وجودتها واحتراسنا من المدلسين.

هزّ الناصر رأسه في رضا، ثمّ نظر إلى عبد الله بن بدر صاحب الشرطة الذي سارع يقول:

لقد أمن الناس في بيوتهم وتجارتهم يا سيدي، فصار الراكب من المنكّب إلى سرقسطة لا يخشى أحدًا إلا الله، وقد عملت ورجالي على حفظ الأمن، وصار رجال الشرطة يجوبون الأزقّة والشوارع والميادين لبثّ الأمن في نفوس الناس.

ثمّ تحدّث محمد بن قاسم بن طملس - وكان الناصر قد ولّاه ديوان المظالم- فقال:

صرنا نجلس اليوم واليومين يا سيدي نبحث عن مظلمة نحقّقُ فيها فلا نجد، فالحمد لله على توفيقه وتدبيره.

حمد الناصر ربّه، وقرَّرَ الخروج إلى قرطبة ليعاين بنفسه أحوال أهلها، وأعدّ الموكب الخلافي وأذيع في الناس أنّ الناصر خارج لهم، واصطحب الخليفة معه حاجبه موسى بن حدير وصاحب شرطته ومعلمه أحمد بن عبد ربه، وراح الناصر من فوق صهوة جواده ينظر في أرباض قرطبة وأحوال أهلها، والناس يتهافتون للسلام عليه

ويدعون الله له في الجهر والسر، فرأى زراعة قد نمت نموًا مزدهرًا؛ فتنوّعت أشجار الفواكه والمزروعات من قصب السكر والأرز والزيتون والكتان، ثمّ نظر فوجد مزارع خاصة لتربية دودة القز، وأمر حاجبه بتنَظَيم أقنية الري وأساليب جرِّ المياه، وجعل تقويمًا للزراعة لكلّ موسم.

حتّى إذا اقترب من المسجد الجامع - وبعد يوم قضاه في تفقد المدينة وأحوالها -إذ بابن عبد ربه يقول:

قد أوضح الله للإسلام منهاجًا
والناس قد دخلوا في الدين أفواجًا
وقد تزيّنت الدنيا لساكنها
كأنّها ألبست وشيًا وديباجًا
يا ابن الخلائف إنّ المزن لو علمت
نداك ما كان منها الماء ثجّاجًا
والحرب لو علمت بأسًا تصول به
ما هيجت من حمياك الذي اهتاجا
مات النفاق وأعطى الكفر رمته
وذلت الخيل إلجامًا وإسراجًا
وأصبح النصر معقودًا بألوية
تطوي المراحل تهجيرًا وإدلاجًا

أدخلت في قبة الإسلام بارقة

أخرجتها من ديار الشرك إخراجًا

بجحفل تشرق الأرض الفضاء به

كالبحر يقذف بالأمواج أمواجًا

يقوده البدر يسري في كواكبه

عرمرمًا كسواد الليل رجراجًا

إنّ الخلافة لن ترضى ولا رضيت

حتّى عقدت لها في رأسك التاجا

الفصل الخامس

إن أمن وسلامة الأندلس
متوقف على أمن وسلامة عدوة المغرب!

الخليفة يواجه القحط

حلّ القحط مرة أخرى بقرطبة، فجفّت الأنهار وانقطع الغيث، ومع ذلك لم يخلّف الجفاف الكثير من الخسائر، إذ بذل الناصر لمعونة الناس ما جبر النقص في المحل، وكان من ذلك أنّ محمدًا بن سعيد المعروف بـ(ابن السليم) قد احتجن أموالاً كثيرة؛ بتصرفه في كبار الولايات في المدّة الطويلة التي أمسكها، فعلم ذلك منه الناصر وعرض عليه مرارًا في أن يساهمه فيه عن طيب نفس منه - وهو ملكه- ولو شاء لأخذه منه، ولكنّه أبى، فقال في مجلسه يومًا: ما بال رجال من خاصتنا توسّعوا في دنيانا، فطفقوا يحتجون الأموال، ويضيّعون تعمدنا، وهم يرون غليظ مؤونتنا في الإنفاق على شؤوننا التي بقدرتنا عليها صلاح أحوالهم ورفاهية عيشهم، ويعلمون أنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قسطاس الموازين، قاسَمَ عُمَّالَهُ أرباحَهم في تجاراتهم؛ فجعلها في بيت المال، وهو من هو، وهم من هم، والأسوة في فعله!

فسكت ابن السليم عنه، وغالطه في تعرّضه، وكأنّ الحديث ليس له.

فازداد الناصر حنقًا عليه وغيظًا منه؛ فقال له -وقد أمسك سكينًا وشقّ تفاحة في يده -: وددت أن أشقّ هكذا رأس من أعرف له مالاً كثيرًا غلّه دوننا، ولم يسهم ببيت المال منه!

فطار عقل ابن السليم، ولم يختلجه الشكّ في أنّه المعني به؛ فقام بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين! طال ما عرضت بي، بلى والله! إن عندي مالاً كثيرًا، وهو دون ظنّك فيه، حطته بالتقتير، وأعددته للدهر العثور، ولست -والله- أعطيك منه درهمًا فما فوقه، ورأيك في جميل إلّا أن تستحل، وأعوذ بالله! أن تمدّ يدك إليه بغير جناية منّي عليك! فإنّ الأنفس محضرة الشّح.

فخجل الناصر وأطرق يتلو قول الله تعالى: «إن يسئلكموها فيحفكم أن تبخلوا ويخرج أضغانكم» ثمّ أقبل على ابن السليم يؤنسه ويسكن جأشه، إلى أن اعتدل مجلسه، إذ قال: خفّض عليك يا محمد؛ فلا سبيل إليك!

فما تمالك ابن السليم أن خرّ إلى رجليه يقبلهما، ويقول: يا ابن الخلائف! إلى هنا انتهيت من برّي! وجعل يدعو له، ويعظّم شكره.

الناصر: ليتني أخرج كفافًا من شأني معك الليلة؛ تأنيسًا بإخافة وإلطافًا بجفوة، ثمّ أمر له بكسوة، وانقلب إلى أهله.

فلمّا مضت أيّام.. أرسل ابن السليم إلى الناصر بمئة ألف دينار؛ فقبلها الناصر، وشكر فضله، ثمّ وزّعها على الناس تخفيفًا عنهم، وعوّض ابن السليم بكبير الولايات، وصحبته منه النعمة العريضة.

وقد كان الناصر لا ينام ولا يهدأ ولا يركن لراحة، خاصة في أيّام القحط، وكان يراها أشدّ الأيام عليه وعلى شعبه؛ فهو المسؤول أمام الله عن الجائع والفقير والمسكين وابن السبيل، لذا اجتهد كثيرًا في التخفيف عن الناس وشاركهم قحطهم؛ فارتدى أخشن الثياب وراح يصلّي لله ويدعو ألّا يُهلك الأندلس بذنوب الناصر!

ثمّ أمر الناس بالخروج لصلاة الاستسقاء، وأرسل إلى خطيب المسجد الجامع بالحضرة بالاستسقاء، فأرسل رسولاً من عنده يدعو القاضي (منذر بن سعيد) بإمامة الناس في صلاة الاستسقاء، فقال منذر للرسول: ليت شعري .. ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا؟

الرسول: ما رأينا قطّ أخشع منه في يومنا هذا؛ إنّه منتبذ حائر منفرد بنفسه، لابس أخسّ الثياب، مفترش التراب، وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنوبه، وهو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تُعَذِّب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين؟! لن يفوتك شيء مني...

تهلّل وجه القاضي منذر عندما سمع قول الرسول، وقال: يا غلام، احمل المطر معك؛ فقد أذن الله تعالى بالسقيا، إذا خشع جبّار الأرض، فقد رحم جبّار السماء... وكان كما قال، فلم ينصرف الناس إلّا عن السقيا.

وارتفع القحط وحلّت النعمة، وعاد الناصر سيرته الأولى في الغزو واستطاع أن يقضي على ثورة الجيليقي في بطليوس وثورة عبد الرحمن بن سعيد في باجة، ولكن ما كاد أن يقضي عليهم، حتّى ظهر له خطر العبيديين (الفاطميين) في شواطئ الأندلس الجنوبية مرة أخرى، وخشي الناصر أن يحدث اتفاق بين الثوار والفاطميين، ولهذا قرَّرَ- وبعد تفكير- أن يغزو العدوة ويضمّها إلى ملكه، إذ قال لرجاله:

لن نكون في مأمن وعدوة المغرب في يد أعدائنا العبيديين.

موسى بن محمد بن حدير: فماذا ترى يا سيدي؟

الناصر: يجب أن نُخضع العدوة لنأمن شرورهم ونقطع الصلة بينهم وبين المارقين الخارجين علينا، فلا يتصل بعضهم ببعض ...إنّ أمن وسلامة الأندلس متوقّف على أمن وسلامة عدوة المغرب، لهذا يجب تحصينها، ثمّ استطرد قائلًا: أرسل من يأتني بأحمد بن محمد بن إلياس.

الحاجب: أمرك سيدي.

خرج الحاجب من حضرة الخليفة، الذي ما انفك يفكّر في الأمر ويقول في نفسه: إنّ المغرب هو قاعدة الهجوم على الأندلس وخطّ دفاعها الأول أيضًا؛ لذا لا بد من تأمينه، فمن يملك بحر الزقاق يملك الأندلس والمغرب، لذا وجب تأمين هذا البحر.

لم يطل الوقت كثيرًا، حتّى كان أمير البحر (أحمد بن محمد بن إلياس) يقف أمام الناصر ويقدّم له التحية.

أشار الناصر إلى ابن الياس فجلس على يمينه، ثمّ قال: أخبرني يا ابن إلياس عن حال الأسطول.

أمير البحر: لقد وصل الأسطول يا سيدي الى درجة لم يصل لها أسطولٌ إسلامي من قبل، لا أقول هنا في الأندلس، بل في كلّ العالم الإسلامي شرقه وغربه.

هزّ الناصر رأسه في رضا وقال في حماسة: ربّما قد حان الوقت لنختبر قوة الأسطول الأندلسي... ثمّ نهض من مجلسه وتحرّك صوب أمير البحر الذي هب واقفًا، ثمّ قال: اخرج إلى أسطولك ورجالك وخذ معك سعيد بن يونس بن سعديل وائتني بمفاتيح سبتة.

أمير البحر: سيجد مولاي منّا ما يرضيه، فكم نتوق وجندي لأن نقوم بما يجب علينا حيال الخلافة والخليفة يا سيدي.

الناصر: سرْ على بركة الله.

وهكذا سيّر عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولاً قويًا يتكوّن من مئة وعشرين سفينة، ما بين حربية وناقلة، وسبعة آلاف رجل، منهم خمسة آلاف من البحارة وألف من الحشم، وانضمّ إليه عدّة من وجوه المرية وبجانة تطوعًا في مراكبهم، فخرج هذا الأسطول من الجزيرة الخضراء حتّى جاز الزقاق، واستولى على سبتة من يد ولاتها البربر بني عصام حلفاء الفاطميين... ومن سبتة أرسل أمير البحر رسالة إلى صاحب طنجة (أبي العيش الحسني) وطلب منه أن ينزل لأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر عنها لتكمل له بذلك السيطرة على رأس العدوة.

فأبى أبو العيش، فحاصره الأسطول وضيّق عليه حتّى أذعن، وأجاب الناصر إلى ما طلب، وانتقل مع إخوته وبني عمه من الأدارسة إلى مدينة البصرة وثغر (أصيلا) تحت طاعة الناصر.

ولمّا رأى زعماء البربر من الأدارسة وزناتة قوة الأندلسيين بادروا إلى طاعة الناصر ومهادنته، فامتدت دعوته إلى فاس، وبعث إليه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول في طاعته، فأجابه عبد الرحمن إلى رغبته، وأمدّه بالأموال والهدايا، وقوِيَ أمره في المغرب.

(٢)

بوابة الشمس

على ربوة مرتفعة بالقرب من نهر التاجة العظيم وفي قصر طليطلة، كان ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث غارقًا في تفكيره، بينما يلفّ الصمت أرجاء المكان من حوله، حتّى إذا مرّ الوقت دخل عليه أحد فرسانه وقبّل الأرض بين يديه، فابتدره ثعلبة سائلًا: هل أجابنا إلى ما نطمح إليه؟

ابتسم الفارس وقال: نعم أجاب، بل ورحّب جدًا يا سيدي، ووعد بإرسال جيش يكون هو على رأسه.

أخذ ثعلبة نفسًا عميقًا، واسترخى على كرسيه قبل أن يعتدل مرة أخرى ويقول للفارس: الآن نطرد رسل الناصر ولا نخشى شيئًا.

الفارس: ألا نتريث قليلًا يا سيدي؟

ثعلبة: ولمَ الانتظار وقد تمّ الأمر، إلّا إن كنت لا تثق بكلام راميرو!

الفارس ناصحًا: كلّي ثقة فيه أيّها الأمير، ولكن قصدت ألّا نبادر إلى معاداة الناصر، فقد كان يكفي منع الجبايات عنه، فلا نقيم له الحجة علينا.

ثعلبة: لقد مللت من مداراته.. كما أنّني أخشى إن نحن تركنا هؤلاء الفقهاء بيننا، أن يتأثّر بهم العامة فيخرجوا علينا... لقد استمعت إلى حديث بعضهم وإنّه -والله- لكلام يأسر القلوب.

الفارس: فماذا يا سيدي لو ابتدَرنا الناصرُ ولمّا يأتي مدد ليون بعد؟

قهقه ثعلبة وقال: في أسوار طليطلة ومناعتها ما يرد أعتى الجيوش، ولو كان جيش الناصر فطب خاطرًا.

وهكذا نبذ أهل طليطلة الطاعة وفارقوا الجماعة معتمدين على مناعة أسوارهم ووعودٍ قدّمها لهم ملك ليون الذي ما إن اعتلى العرش حتّى راح يبحث عن إرهاق المسلمين وحربهم، وكان يرى أنّ العمل على إذكاء عوامل الفتنة في المملكة الإسلامية هو خير سبيل لتبديد قوى المسلمين؛ لذا شجع راميرو بدسائسه ووعوده زعماء طليطلة على التمادي في غيهم...

وما إن علم عبد الرحمن بخبر طليطلة وطردهم رسله حتّى كاد أن يتميّز غيظًا، خاصة بعدما علم باتصالهم بملك ليون عدو المسلمين الأول في شبه الجزيرة، وخشي إن هو تأخّر عنهم أن يجتمع عليه جيش ليون وجيش طليطلة، لذا قرر أن يسارع في الفصل بينهم، فأمر وزيره (سعيد بن المنذر) بأن يسبقه بقطعة من الجيش إلى مدينة طليطلة، وأن يضرب الحصار عليها حتّى يلحق به الناصر بجيوشه وصنوف حشمه، فخرج إليها الوزير، حتّى نزل بساحتها، وأخذ في محاصرتها بأبلغ عزم وأتمّ حزم انتظارًا لقدوم الناصر.

وبعد أن أكمل الناصر أهبته، خرج من قرطبة وسار صوب مدينة طليطلة وأغزى مع نفسه ولي عهده (الحكم المستنصر بالله ومنذرًا ابنه)؛ وتخلّف في القصر (ابنه عبد العزيز) حتّى إذا وصل

إلى محلة الغدر وحصن مورة الغدر الذي اتخذه أهل طليطلة شجًا على المسلمين ومسترحًا للمفسدين، ضرب حوله الحصار، فما لبث صاحبه أن استسلم وقدّم الطاعة، فأمر الناصر بضبطه، ثمّ نهض بجيوشه المؤيدة وعزيمته الماضية، حتّى احتلّ محلة جرنكش بقرب طليطلة وهنا وافاه قائده سعيد بن المنذر.

ومن فوق صهوة جواده نظر الناصر من محلته هذه على سهلة طليطلة ونهرها، وأجنتها وكرومها، وراح يفكّر في أمر طليطلة ومنعتها وقوّة أسوارها، وبعد تفكير... قال: يا ابن المنذر لا تأخذك بطليطلة رأفة أو شفقة، وعليك بمحيط المدينة، فاقطع ثمراتهم، وخرّب قراهم، وانتسف نعمهم، وحطّم زروعهم.

سعيد بن المنذر: أمرك سيدي.

الناصر: واعمد إلى جبل جرنكش وابتني لك ولجندك مدينة تحميكم البرد والحرّ، ثمّ انقل الأسواق إليها.

سعيد بن المنذر: فماذا نسميها يا سيدي؟

الناصر: ليكن اسمها مدينة (الفتح) تيمنًا بفتحنا طليطلة - إن شاء الله - وإيّاك أن تترك حرب طليطلة ساعة من نهار يا ابن المنذر.

سعيد: لن يجد مولانا الخليفة منّا إلّا ما يرضاه.

وكان قد مرّ على وجود الناصر في أحواز طليطلة قرابة الشهرين، فلمّا شعر بطول الحصار لم يفضّل البعد كثيرًا عن الحاضرة فقفل عن مدينة طليطلة، وما إن وصل إلى قرطبة حتّى أمدّ جنده بالخيل

والعتاد وأمدّهم بالسلاح، وأكدّ بصائرهم في الجدّ والعزم والاستبلاغ في نكاية المفسدين المغترين من أهلها.

أما راميرو فما كاد أن يصل إليه خبر عودة الناصر حتّى جدّ في الخروج إلى طليطلة وهو يُمني نفسه بنصر ساحق، إذ سيقع الجيش المحاصر بينه وبين أهل طليطلة، لذا جدّ في الطلب وسار لإنجاد طليطلة -وهو لا يشك لحظة في نجاح مسعاه- حتّى إذا وصل إلى حصن مجريط (مدريد) استولى عليه؛ ليؤمن ظهره، ثمّ تقدّم صوب طليطلة.

ما إن علم سعيد بن المنذر بخروج راميرو إليه حتّى بادر بإرسال الرسل إلى قرطبة طلبًا للنجدة، وكان الخبر قد وصل إلى قرطبة بمجرد خروج راميرو واحتلاله مجريط (مدريد)، فجهّز الناصر جيشه على عجل ونفر إليهم الوزير أحمد بن محمد بن حدير من قرطبة في جملة من الحشم ومن خفّ من المسلمين، فلمّا بلغ راميرو خروجه توقّف عن حركته، وقَرَّ في بلاده، فبلغ القائد أحمد بن محمد بن حدير طليطلة، ونازلها مع القوّاد المرتبين فيها.

وقد كانت طليطلة بموقعها القريب من ليون وبحصانة أسوارها تؤرق الناصر، لذا لم يرَ بُدًّا من محاصرتها بنفسه حتّى يقنع أهلها أن لا مناص لهم ولا مفرّ لهم إلّا الطاعة ولزوم الجماعة، فخرج بجيشه من قرطبة مرة أخرى، واصطحب معه ولي عهده الحكم، وكان أهل طليطلة لمّا أخذهم الحصار، واشتدّ عليهم التضييق، ولازمهم القواد، قد استجاشوا بالمشركين، واستنجدوا بهم، ورجوا نصرهم لهم؛ فلم يغنوا عنهم فتيلًا، ولا كشفوا عنهم عذابًا، ولا جلبوا إليهم إلّا خزيًا

وهوانًا، فلمّا يئس أهل طليطلة أن ينصرهم أحد من بأس الله الذي عاجلهم، وانتقامه الذي طاولهم، عاذوا بصفح أمير المؤمنين، وسألوه تأمينهم، وضرعوا إليه في اغتفار ذنوبهم، وقد كان بَدر إليه ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث مقدّمها، وتلقّاه قبل نزوله بها، معترفًا بجهله، ومستقيلًا من زلّته؛ فعفا عنه الناصر وعاد عليه بفضله، ثمّ أمن أهل طليطلة، وخرجوا إلى العسكر، ونالوا المرافق فيه، وابتاعوا المعايش التي طال ما أجهدهم عدمها، ومنعهم الحصار منها؛ فعرفوا غبطة ما صاروا إليه من الأمن بعد الخوف، والسعة إثر الضيق، والانبساط بعد طول الانقباض...

ثمّ ركب الناصر إلى مدينة طليطلة في اليوم الثاني من نزوله بمحلته عليها ودخلها، وجال في أقطارها، فرأى من حصانتها وشرف قاعدتها، وانتظام الأجبل داخل مدينتها، وامتناعها من كلّ الجهات بواديها ووعرها، وطيب هوائها وجوهرها، وكثرة البشر بها، ما أكثر له من شكر الله -عزّ وجل- على ما منحه فيها، وسهل له منها، وعلم أنّه لولا ما أخذ به من الجدّ والعزم في أمرها لما ملكت مع حصانتها ومنعتها مع اتساعها وانفساح أقطارها، ولما اعتاده أهلها من مداخلة المشركين وموالاتهم والتطاول على الخلفاء بهم، فكم أعيت الملوك، وامتنعت من العساكر، وانصرفت عنها الصوائف بغير نجاح، ولكنّ فضل الله -عزّ وجل- الذي أعطاه أمير المؤمنين وصنعه له وتأييده إيّاه، أجرى افتتاحها على يديه، ثمّ دبّ فيها بناء محكمًا متقنًا؛ ليكون مستقرًا للقواد الملازمين فيها، وزمامًا على ساكنيها، وأرتب على البنيان بها دريّ بن عبد الرحمن قائده، وملأها رجالًا وعدّة وسلاحًا، ثمّ أمر بهدم ما وجب هدمه في المدينة، وتردَّدَ عليها ثمانية

أيّام حتّى أكمل فيها ما دبّره، وهذّب ما أراده... وفتحت أسوس البنيان الذي أمر به واطمأنت بأهل المدينة الدار، وفتحوا الحوانيت، وانتشروا في الأسواق وانبسطوا في أفنيتهم وأبواب مساجدهم آمنين.

(٣)

يا عبد الرحمن يا منصور!

ما كاد راميرو أن يعود إلى ليون ويدخل قصره، حتّى دخل عليه أحد الفرسان مذعورًا، وهو لا يكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه من التعب، وقال: مولاي الملك أدرك (أوسمة) فقد هاجمها المسلمون.

نهض راميرو من مكانه وقد تبدَّلَت ملامح وجهه وهو لا يكاد يصدق ما يحدث، ولسان حاله يقول: أهؤلاء الذين كنّا نعدهم في عداد الموتى؟! ثمّ صرخ في حراسه وقادته الموجودين حوله وقال: هيّا ..لا يجب أن تسقط المدينة في أيديهم؛ فنفقد بذلك أحد أهم حصوننا الأمامية.

ومن فوره ارتدى ملابس حربه، وجمع جيشه على عجل وسار به إلى مدينة أوسمة (وخشمة) حتّى إذا وصلها بادر إلى حرب المسلمين المحاصرين، وكانوا في قلّة من العدد، فردّهم عنها واحتلها.

أمّا فرنان غونثالث الذي كان يرافق راميرو في هذه الغزوة، فقد راح يجمع الأسرى من المسلمين، وكانوا أقلّ من عشرين أسيرًا، وقال للملك: سيدي الملك يجب أن يُقتل هؤلاء ويمثّل بهم حتّى يكونوا عبرة

لمن يعتبر، فلا يفكّر مسلم بعدهم في حربنا قبل أن يفكّر ألف مرّة في مصيره.

راميرو: لكن أخشى أن نثير بذلك غضب صاحب قرطبة.

فرنان: بل ما سنفعله سيلقى الرهبة في قلبه يا سيدي، ويعلم أنّنا لن نتهاون معه أو مع جيشه.

تردَّدَ راميرو قبل أن يوافق على قتل الأسرى والتمثيل بهم، ولكنّه وافق في النهاية، وأصدر فرنان أوامره لرجاله فقاموا بتوثيق الأسرى ومن ثَمّ رشقوهم بالسهام وسط ضحكات فرنان الذي كان يقول لهم: أين خليفتكم المزعوم.. يحميكم من سيوفنا إن استطاع ؟!

ما إن وصلت الأنباء إلى الناصر في قرطبة، حتّى احمر وجهه وانتفخت عنقه فبرزت عروقه كأشجار الخريف، ثمّ ضرب بيده على كرسي عرشه وقال: لست ابن محمد ولست حفيد الداخل إن لم أحمهم بسيفي وأرُدّ لكم الصاع صاعين، ثمّ نظر إلى حاجبه وقال: يا ابن حدير لتخرج بنفسك من الساعة، فلا تَعُدْ قبل أن تطمئن بنفسك على استعدادات الجيش.

ابن حدير: أمرك يا أمير المؤمنين.

خرج الحاجب من القصر ونهض الناصر من مكانه، وهو يكاد أن يستشيط غضبًا، وهو يقول: غزوناهم مرّات عديدة، وانتصرنا عليهم المرة تلو الأخرى، فما قتلنا أسيرًا وما ذبحنا مستأمنًا ولا قتلنا أعزل من السلاح لم يحاربنا، فلماذا يفعلوا؟ لماذا؟ أوَقَدْ ظنّ اللعين أن قد مات خليفة المسلمين؟!

مرّ يومان.. وفي الثالث كان الجيش قد أتمّ استعداده، وظهر الناصر على ضفاف نهر الوادي الكبير مرتديًا ملابس حربه متشحًا بسيفه ممتطيًا جواده الأشقر، ومعه ولي عهده الحكم والقائد عبد الحميد بن بسيل، بينما خرجت جموع الشعب القرطبي تشاهد الجيش الخليفي وتدعو له بالنصر، وهم يصيحون يا عبد الرحمن يا منصور يا عبد الرحمن يا منصور... وكان الناصر يرفع يده للشعب وأعلام العقاب المصورة ترفرف فوق رأسه، وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها تلك الراية الأمويّة الجديدة، ولمّا اكتملت الأهبة حاول ابن بسيل أن يخرج هو بالجيش مقللًا من أمر الليونيين، فقال للأمير:

يا أمير المؤمنين، إنّهم أهون من أن تخرج لهم بنفسك، فأوكلني بالأمر، وأنا آتيك بالفتح إن شاء الله.

الناصر: لن يخرج لأوسمة غيري يا ابن بسيل، وإلّا فلست أميرًا للمؤمنين، فلا تراجعني حتّى أراجعك.

ابن بسيل: أمرك يا أمير المؤمنين.

وكان الناصر يريد مفاجأة العدو، لذا لم يخبر أحدًا من رجاله بوجهته، غير ابنه الحكم وقائده عبد الحميد بن بسيل، وأشاع بين الجند أنّه خارج لتأديب (محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة) وذلك لما أبداه التجيبي صاحب سرقسطة من أعراض الخلاف، والتوقف عن اللحاق به، فتحوّل نحو أراضيه ممّا يلي غرب الثغر الأعلى، واحتلّ حصن (ماومده) من حصونه، ثمّ تقدّم إلى حصن روطة اليهود على مقربة من سرقسطة، وكان به (يحيى بن

هاشم)، فافتتحه قسرًا، ثمّ سار إلى سرقسطة، وطوّقها ببعض قواته، وبعث قوات أخرى إلى تطيلة وطرسونة.

ومن خارج أسوار سرقسطة، وبعد أن تأكّد الناصر أنّ خطته قد نجحت، وأنّ الجميع قد توهّم أنّ الحرب لتأديب سرقسطة، قرَّرَ أن يتحوّل بقواته إلى غزو أراضي النصارى، وكان أقربها إليه أراضي نبرّة (نافارا).

تحرّك الناصر صوب محلة (قلهرة) وقرَّرَ أن يعسكر بجيشه فيها، وما إن ضرب المعسكر حتّى وفدت عليه رسل الملكة تيودا (طوطة) ابنة شنير ملكة نافارا، التي قامت بالأمر بعد وفاة زوجها سانشو ملك نافارا وصية على ولدها غارسية، فاستقبل الناصر الرسل في خيمته، فقال الرسول: مولاي الملك، قد أرسلتنا الملكة (طوطة) ترجو أن تقبل منها عهد الصداقة والسلم.

الناصر: ولماذا لم تأتِ إلينا بنفسها؟

الرسول: بل خرجت يا سيدي في إثرنا، وعمّا قريب توافيك لتنزل على إرادتك.

الناصر: لا بأس.. على أن تقبل جميع شروطنا.

لم تمرّ ساعات حتّى وفدت الملكة (طوطة) عليه في وجوه مملكتها وقواميسها وأساقفتها، فاستقبلها الناصر ومن حوله جيوشه الكثيفة، العظيمة الأهبة، فأكرم منزلتها، وقد كان الناصر يعلم أنّها (عمته) فكان برغم العداء يراعي تلك العمومة.

الناصر: أهلًا بملكة نافارا.

طوطة: وأهلًا بك يا خليفة المسلمين.

الناصر: قد جاء رسولك يعرض علينا الصلح والحلف معك.

طوطة: وإنّي لأرجو أن تقبل منّا يا سيدي.

الناصر: نقبل إن رضيتم شروطنا.

طوطة: وما تلك الشروط؟

الناصر: أن تتعهدي بالطاعة، والابتعاد عن محالفة أيّ ملك أو أمير نصراني، وأن تكفّي الأذى عن المسلمين، وأن تقدّمي العون لقوّاد الثغر الأعلى في محاربة كلّ من خرج على الطاعة.

طوطة: نقبل كلّ ذلك.

الناصر: وأخيرًا أن تخلي سبيل وجوه بني ذي النون الذين هم في سجونك.

طوطة: نفعل أيّها الملك.

أشار الناصر إلى كاتبه، فكتب بذلك كتابًا، وأشهد عليه من حضر مع طوطة من القساوسة والرهبان، وبعد أن تمّ ذلك.. أقرّ الناصر من جانبه ولدها غارسية ملكًا على بنبلونة وأعمالها (بلاد البشكنس)، وانصرفت مع رجالها مزوّدة بالهدايا والعطايا الفاخرة.

وقد أراد الناصر من خلف تلك المعاهدة أن يتفرّغ لقتال ليون وصاحبها راميرو، وأن يضمن حياد نافارا وجيشها، لذا لم يمكث الناصر كثيرًا في قلهرة، وخرج منها بجيشه قاصدًا أراضي ألبة والقلاع، وتوغّل فيها، ففرّ النصارى من السهول، واعتصموا بالجبال، وكان أوَّل ما استولى عليه من حصون العدو(حصن المنار)، وهو من

أعظم حصون ألبة، فدمّره المسلمون، ودمّروا حدائقه، ولم تبق منها قائمة... وتردَّدَ المسلمون بعد ذلك في مختلف الأنحاء، وهم يدمّرون في طريقهم كلّ شيء، حتّى وصلوا إلى حصن أنة، فهدموه، وأتلفوا حدائقه ومصانعه، واجتاح الناصر كذلك سائر بقاع ألبة، ثمّ نزل على قلونية وكان قد دخل شهر رمضان، وصام الناصر وجيشه، واستشعر الناصر تلك الأيّام المباركة، ولم يرد أن يرجع عن الغزو لرمضان بل قرَّرَ المسير حتّى يلتقي راميرو ويؤدّبه.

عسكر الناصر في (قلونية)، وفي داخل خيمته تقدّم صوبه عبد الحميد بن بسيل، فقال: كأنّ اللعين يخشى اللقاء يا سيدي.

الناصر: أعلم ذلك، لذا يجب علينا أن نحمله على مغادرة قلاعه والاشتباك معنا في معركة فاصلة.

الحكم: لي رأيٌ يا سيدي.

الناصر: ما هو؟

الحكم: لقد تحصّن اللعين في (قلعة مزورتة) القريبة منّا، فلو أرسلت يا سيدي قطعة من الجيش تكون مهمتها إنزال صنوف التدمير والتخريب بتلك المنطقة القريبة منه، وأن تحمل تلك الفرقة الأعلام الخلافية يا مولاي؛ فيتوهّم اللعين أنّ هذا هو كلّ الجيش فيطمع فيه، وينزل من أبراجه العالية ويلتحم بتلك الفرقة التي يجب لها أن تصمد في وجهه حتّى نُلحق بها باقي الجيش!

هزّ الناصر رأسه مبديًا موافقته على هذا الرأي بعد أن أُعجب به...

وتمّت الخطة كما رُسِمَ لها، واغترّ راميرو بعدد جيشه، وخرج من قلعته واشتبك مع المسلمين في معركة حامية، وصمدت الفرقة القرطبية، حتّى إذا ظنّ راميرو أنّ النصر حليفه ظهر له جيش الخليفة بكامل عدده وعدّته، واشتبك مع النصارى في معركة حامية، قُتل فيها عدد من أكابر الفرسان النصارى، واستشهد عدد من المسلمين، وفرّ راميرو ومَن تبقى من جيشه واعتصموا بقمم الجبال، وقد حاول المسلمون بعد ذلك استدراج النصارى إلى السهل، فلمّا عبروا وادي أوسمة حاول النصارى الهجوم، فردّهم المسلمون وقتلوا منهم جملة، ثمّ رحل المسلمون بعد ذلك إلى حصن غرماج (Gormaz) على مقربة من ليون، ورأى الناصر أنّ التقدم بعد ذلك في السهول القفرة يعرّض جيشه لمتاعب شديدة؛ فارتد بقوّاته شرقًا، وهو يعيث في أراضي قشتالة، ثمّ زحف على مدينة برغش (عاصمة قشتالة) وخرّبها، خصوصًا وأنّ فرنان غونثالث هو صاحبها، ثمّ قفل راجعًا بجيشه إلى قرطبة، وقد قطع في غزوته هذه زهاء أربعة أشهر.

أمّا راميرو، فعلى أثر الغزوة المخربة التي قام بها المسلمون في أراضيه، قد بعث رسله إلى الناصر في التماس الصلح، فبعث إليه الناصر وزيره يحيى بن يحيى بن إسحق سفيرًا، فاجتمع في ليون مع راميرو، وعقد معه شروط الصلح.. وكان الناصر يرمي بعقد هذا الصلح إلى إبعاد ملك ليون من التفاهم مع محمد بن هاشم صاحب سرقسطة ومعاونته، بَيْدَ أنّ هذا الصلح لم يدم طويلًا؛ لما كان يجيّش به راميرو من رغبة ملحة في النكث والتفاهم مع الخارجين على حكومة قرطبة...

(٤)

التجيبيون في سرقسطة

على ضفاف نهر إيبرو في مدينة سرقسطة، وفي قصره المنيف كان (محمد بن هاشم التجيبي) جالسًا في بهو السفراء غارقًا في تفكيره لا يتحرّك من مكانه ولا ينبس بكلمة، وكأنّه قُدَّ من كرسي عرشه! وقد حاصرته الهموم، وأخذته في بحرها العميق... فخيّم الصمت على المكان، وكان الليل قد أرخى سدوله؛ فزاد المكان صمتًا وكآبة مع انقطاع شعاع النور عن المكان... مرّ الوقت.. وإذا بزوجته (ثريا) تدخل عليه وهي تقول: لا ضير يا سيدي في أن تَخضع سرقسطة للخليفة الناصر، فهو ابن الخلائف من بني أميّة، ثمّ تحرّكت صوب الشموع تضيئها.

رفع محمد رأسه وقال بتكبّر: وإن كان يا ثريا، فلن أخضع له.

ثريا: إنّ لهم فضلًا كبيرًا على الأندلس وأهلها، وهم- أيضًا- من مكة ومن قريش ولهم صحبة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولهم بيعة في الأعناق لا سبيل إلى نقضها.

محمد: صلى الله على سيدنا محمد... أتعلمين يا ثريا إنّ بني تجيب -أيضًا- لهم صحبة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

مبتهجة قالت الزوجة: حقًا يا سيدي!

محمد: أجل.. فلقد أسلم بنو تجيب ووفدوا على النبي في السنة التاسعة من الهجرة الشريفة في ثلاثة عشر راكبًا، فأكرمهم رسول

الله، ولقد شارك بنو تجيب في فتح مصر، وولّى عمرو بن العاص مهمة تخطيط الفسطاط إلى (معاوية بن حديج التجيبي) وتولّى القضاء إبّان خلافة معاوية بن أبي سفيان (سُليم بن عتر التجيبي) الذي بقي قاضيًا طوال خلافة معاوية، كما كان لبني تجيب دور كبير في الأندلس، فقد شاركوا في فتح الأندلس واستقرّوا في أراغون، فأيّ فضل لبني أمية علينا حتّى ننصاع لهم ونأتمر بأوامرهم؟! ثمّ تحرّك أخيرًا، ونهض من مجلسه واقترب منها وقال: لا تخافي على زوجك، فلكلّ أمر تدبير.. والآن اتركيني واذهبي إلى مخدعك، فقد بدا لي رأيٌ أريد أن أدبّره.

قامت ثريا وهي تصطنع الابتسام وتدعو لزوجها، حتّى إذا انصرفت، أمر محمد بن هاشم من يأتيه بصاحب قلعة أيوب (مطرف بن المنذر) ... وما هي إلّا ساعات حتّى كان مطرف بين يديّ محمد.

مطرف: ما الأمر أيّها الأمير؟

محمد: لقد انتويت الخروج على صاحب قرطبة، فما قولك؟

مطرف: الآن؟!

محمد: أجل.. الآن.

مطرف: لهذا لم تبادر بالخروج إليه في حربه مع راميرو؟!

محمد: أجل.. فكيف أخرج معه اليوم لحرب رجل أرجو حلفه غدًا؟

مطرف: لكن يا سيدي، لقد عقد راميرو الصلح مع الناصر وكذلك فعلت الملكة طوطة ملكة نافارا، فإن نحن خرجنا عليه الآن نكون وحدنا في مواجهته، وهذا رجل لم يصمد له عدو يومًا فلو رجعنا واعتذرنا له عمّا بدر منّا فسيقبل ذلك منّا، ثمّ نرسل له الجباية عن العام الماضي وعن عامين تاليين، وبهذا لا تُحيط بنا نقمة الناصر.

محمد: لن أعتذر ولن أخضع لسلطانه، بل أرى أنّ الفرصة -ربّما الآن- سانحة لنا أكثر من ذي قبل.

مطرف: كيف ذلك؟

محمد: إن نحن أعلنا الحرب الآن على قرطبة، لن يتردَّدَ راميرو في التحالف معنا لمحو عار الهزائم التي مُنِيَ بها أمام الناصر، بل وستفعل طوطة ملكة نافارا فعله وتنقض عهدها مع الناصر، وبهذا تتّحد سرقسطة مع نافارا وليون ضد قرطبة!

مطرف: فماذا إن طلب راميرو ما لا نستطيع تقديمه له؟

محمد: سنطاوعه إلى أن نضرب به الناصر، فإن تخلّصنا من الناصر استدرنا له، وقد وهنت قوته؛ فيهون علينا.

مطرف: كما ترى يا مولاي.

وهكذا قرَّرَ محمد بن هاشم التجيبي الخروج على الناصر، وأرسل إلى راميرو وتعهّد له أن يعترف بطاعته، نظير معاونته إيّاه في الخروج على عبد الرحمن الناصر ومحاربته، ثمّ لم يكتف بذلك.. بل اعترف بسيادة ليون على سرقسطة وأحوازها، ولمّا رفض بعض قوّاد الحصون مجاراته في خيانته، سار إليهم راميرو وأخضعهم بالقوة،

وسلّم قلاعهم إلى الزعيم الثائر، ثمّ عقد محمد وراميرو محالفة مع طوطة ملكة نافارا، وبذا تحالف الشمال كلّه ضدّ عبد الرحمن!

(٥)

يوم من العز مجموع له الناس
يختال في عقوتيه الجود والباس

كانت الشمس تميل للغروب عندما كان الخليفة الناصر يتنزّه في حديقة قصره في قرطبة، وقد خطّ الشيب لحيته، وبدأت عليه علامات التقدم في السن وبجانبه ولي عهده (الحكم)، ولكن يتأخّر عنه بخطوة واحدة.

شبّك الناصر يديه خلف ظهره، وهو يتحرّك ويقول: أربعة وعشرون عامًا وحّدت فيها الأندلس وعدت بها إلى عهد جدّك عبد الرحمن الداخل من حيث المنعة والقوة... أربعة وعشرون عامًا قضيت فيها على الثورات والفتن وأدبت النصارى حتّى تسابقوا للتحالف معي... ثمّ فكّ يديه ووقف وقال: والآن يخرج علينا هذا الشقي الذي ما تولّى سرقسطة إلّا بأمري ورضائي، حتّى إذا تمكّن منها خرج علينا يشقّ عصا الطاعة، ثمّ لم يكتف بذلك حتّى عمد إلى أعداء دينه وقومه فتحالف معهم علينا ... قال ذلك، ثمّ نظر إلى الحكم الذي فهم معاني النظرة؛ فبادر بالقول: يجب أن نبادر إليه يا سيدي قبل أن يستفحل خطره وينضمّ إليه كلّ طامع ومغامر، وليكن هذا آخر عهد

لسرقسطة بالثورة والخروج علينا، ولو أذن أمير المؤمنين فسأكفيه أمرها.

وبينما هم كذلك، إذ بالحاجب موسى بن محمد بن حدير يتقدّم صوب الأمير وابنه، ويقول -وهو يلهث-: لقد غدر راميرو ونقض العهد يا سيدي، وتقدّم بقواته صوب مجريط فحاصرها.

الناصر: هل حازها؟

موسى: لا يا سيدي، فقد استطاعت الحامية الإسلامية بقيادة (أبي عمر بن أبي عمر) أن تصدّ هذا الهجوم، وأن تنقذ القلعة، فتراجع النصارى خشية أن يُحاط بهم.

نظر الناصر إلى الحكم وقال متحديًا: لن يؤدّب (التجيبي) غيري، فلولاه ما تجرّأ علينا (راميرو).

حزن الحكم ولم يتحدّث، فنظر له الناصر وقال بعد أن ربت على كتفه: تجهّز للخروج معي . عندها ابتهج ولي العهد وطفق يقبل يد والده...

بنظرات مرتابة وعيون مفتوحة نظر (أحمد بن إسحق القرشي) إلى أخيه أميّة بن إسحق، وقال هامسًا:

سأخرج معه في تلك الغزوة، فقد أرسل في طلبي.

أميّة: وما خطتك؟

نظر أحمد عن يمينه وعن يساره، ثمّ قال: سأخرج معه.. حتّى إذا وجدت فرصة أفشلت له قصده وكنت مع الثوار عليه؛ فيحفظها لنا صاحب ليون ويكون لنا شأن آخر.

أميّة: لكن.. ماذا لو أحاط بك وبمن معك؟

أحمد: عندها سيأتي دورك أنت.

أميّة: كيف ذلك؟ أفصح.

أحمد: تتعلَّلُ بالمرض ولا تخرج معه، حتّى إذا ابتعد عن قرطبة، اخرج بمن معك صوب الغرب وارفع هناك علم الثورة، ففي الغرب أرض خصبة تتوق للخروج على بني أميّة.

أميّة: وماذا عنك؟ فلو علم بخروجي لن يغفرها لك...

وهكذا حيكت المؤامرة، وما إن سار عبد الرحمن إلى الثغر الأعلى، حتّى خرج أميّة صوب الغرب.. وقد بيّت الغدر، أمّا عبد الرحمن فقد رأى أن يبدأ بقلعة أيوب، وكان قد امتنع بها (مطرِّف بن منذر التجيبي) المعروف بـ(أبي شويرب)، وكان راميرو قد بعث لإنجاده فرقة من فرسان ألبة والقلاع، فحاصر عبد الرحمن القلعة، وبعث يدعوه إلى الطاعة، ويؤكّد له الأمان بخطّه، لكنّ مطرف رفض أن يستجيب إلى هذه الدعوة، فهاجم عبد الرحمن القلعة، وبرز إليه مطرف وحلفاؤه، ونشبت بين الطرفين معركة شديدة، هُزم على أثرها مطرف وقُتل، فلجأ أخوه حكم بن منذر في فلوله ومن معه من فرسان ألبة إلى القصبة، وامتنعوا بها، لكنّ الهجوم استمرّ عليهم، وكثر القتل في المدافعين، حتّى اضطرّ حكم أن يطلب الأمان لنفسه ولحلفائه النصارى ليعودوا إلى بلادهم، ويلحق هو وأهله بالحضرة، فقبل الناصر ونزل حكم ومن معه من القصبة، وعفا عن النصارى المستأمنين.. وقُتِلَ الباقون.

ودخل الناصر قلعة أيوب ممتطيًا صهوة جواده الأشقر، وحوله رجاله ومعه ولي العرش، والجند يهتفون: يا عبد الرحمن يا منصور، يا عبد الرحمن يا منصور ... حتّى إذا دخلها ترجّل الناصر وراح يترحّم على بانيها ويجول في أرجائها، وبينما هو كذلك إذ تقدّم منه ولي عهده الحكم وقال: سيدي أمير المؤمنين، لي رأيٌ لو أذنت لي.

الناصر: هات ما عندك.

الحكم: يا أمير المؤمنين، إنّما استقوى علينا صاحب سرقسطة بنصارى الشمال، فلو سرنا الآن إلى ليون فسيهبّ ملكها للدفاع عنها، وبذلك يسحب قواته من سرقسطة، فيسقط من يد التجيبي وقد انفضّ ناصره ومعينه؛ فيضطرب حاله ويسقط سريعًا بين أيدينا.

نظر الناصر إلى ولي عهده وقال: نعم الرأيُ يا أبا العاص.

وفي صباح اليوم التالي سار الناصر إلى تطيلة، ثمّ سار منها إلى سرقسطة، فنزل عليها وابتنى حولها المنازل والدور بمحلته، وعهد بحصارها إلى (أحمد بن إسحق القرشي) قائد الفرسان.

وهنا استجاشت الخيانة في دم ابن إسحق، ورأى أنّ الفرصة سانحة لتنفيذ مخططه؛ فتهاون في الحصار وسمح للقوات النصرانية في الدخول إلى المدينة المحاصرة، ولكنّ الناصر كان على يقظة.. فاستدعاه وأنّبه وعزله بعد أن علم نيته وغدره...

وصل أميّة بن إسحق إلى شنترين، فاستولى عليها، وأعلن خلع الطاعة والخروج على الناصر، فوافقه معظم زعماء شنترين، ثمّ تحالف مع ملك ليون على حرب الناصر، وبسبب هذا الحلف تذمّر بعض من الزعماء ودخلوا عليه القصر وقالوا له: لقد أطعناك في

الخروج على بني أميّة لظلمهم لنا، ولكن لا نطيعك في حلفك مع ملك ليون، فهذا ممّا يغضب اللّه ورسوله، إذ كيف تضع يدك في يد طاغية لا يراعي في مسلم إلّا ولا ذمة؟!

أميّة: لكنّكم قد بايعتم وصارت لي بيعة في أعناقكم.

ردّ عليه أحد الزعماء: لا طاعة وقد ألحقت العار بنا... إذ سيُقال: استعان زعماء شنترين بطاغية على إخوانهم المسلمين!

أميّة: أتخرجون عليّ؟

الزعماء: كما خرجت أنت على بني أميّة، وكما حاربت الله ورسوله.

ضحك أميّة ضحكة سُمِع صداها في أرجاء القصر، ثمّ قال: أيّها الحراس، اقبضوا عليهم حتّى يأتي خليفتهم المزعوم يخلّصهم من يديّ.

انقضّ الحراس على الزعماء وطوّقوهم وساقوهم إلى سجن القصر، إلّا واحدًا منهم نجح في الفرار، ليلجأ لعشيرته، ثمّ خرج في الناس يقول لهم: إنّ أميّة بن إسحق قد وضع يده في يد النصارى، يريد بهم قتال المسلمين، فهاج شعب شنترين، وقالوا: كيف يحالف عدو الله ملك ليون؟ وراحوا يتذكّرون كيف قتل أردونيو ومن قبله ألفونس الثالث المسلمين وكيف مثّل راميرو نفسه بمسلمي أوسمة.. ومن ثَمّ انضموا إلى الزعيم الثائر الذي حاربَ بهم أميّة بن إسحق، واستطاع أن يطرده من شنترين، فالتجأ الأخير إلى حليفه راميرو الذي وجدَ فيه صيدًا ثمينًا وفرصة كبيرة لا تُفوَّت...

(٦)

أحكم الناصر حصاره على سرقسطة، ثمّ أمر القائد أحمد بن محمد بن إلياس، وكان مقيمًا في بطليوس أن يغزو أرض العدو، فسار إلى أراضي ليون واشتبك مع الجلالقة في معركة، هُزم فيها الجلالقة، وقُتل منهم عدد جمّ، ولا سيما من أهل سمورة، كما أمر الناصر القائد عبد الحميد بن بسيل، أن ينضمّ في قواته إلى أحمد بن محمد بن إلياس، وأن يسيرا معًا إلى غزو ليون، فصدعا بالأمر، ووصلا بقواتهما إلى أرض النصارى وعاثا في جنباتها.

أمّا في داخل سرقسطة.. فقد كانت الأقوات تنفد بسرعة، إذ لم يتوقّع محمد بن هاشم أن يستمرّ الناصر في حصاره طيلة هذه الأشهر اعتمادًا على نصرة ملك ليون له، كما انتشرت الدعوات داخل سرقسطة تقول: كيف نتحالف مع راميرو ونعادي أمير المؤمنين وفي أعناقنا بيعة له؟

ولم تكن تلك الأصوات بخافية عن (التجيبي) الذي بدأ يفقد عقله، وقد حاصرته الأحزان وخاف سوء العاقبة، فاضطّرب حاله وتبدّلت أحواله وما عاد يتحدّث إلى أحد، فدخلت عليه زوجته (ثريا) تخفِّفُ عنه وهي تقول: ما زال هناك متسع من الوقت، فاطلب الأمان لنفسك ولقومك.

محمد بن هاشم: أوتظنين أنّه سيقبل؟

ثريا: أجل سيقبل حفاظًا على المدينة وأهلها، إذ لا سبيل له إليها سوى التسليم بعد أن شاهد قوّة أسوارها، والناصر رجل حكيم فلن يرضى أن يهلك أهل سرقسطة جوعًا.

ابتسم محمد ابتسامة باهتةً، وبعد تفكير... وجد أن لا مناص من مراسلة الناصر في أمر الصلح، فكتب له بذلك واشترط لنفسه أن يقرّه الناصر على حاله.

وفي محلته خارج سرقسطة، وفد إلى الناصر رسول أمير سرقسطة، فأبدى الناصر قبوله وتسامحه، وطلب أن يخرج إليه إخوة محمد ووجوه أهل سرقسطة لعقد الصلح، وقال:

لا صلح قبل أن يخرج إخوة محمد ووجوه سرقسطة لعقد الصلح والشهادة عليه.

عاد الرسول يقصّ على محمد بن هاشم ما كان، فلم يجد بُدًّا من النزول تحت رأيِ الناصر.

وفي الخيمة الخلافية خارج أسوار سرقسطة - وبينما يجلس أمير المؤمنين وحوله رجاله وولي عهده- إذ بمن يخبره بوصول وفد سرقسطة إليه... فقال للحارس: اقبضوا عليهم جميعًا وضعوهم في الأصفاد، فلولاهم ما خرج علينا التجيبي، ولو أنّهم عدلوا ما كانوا معه علينا.

وفي لحظات أحيط بوفد سرقسطة ليسدِّدَ الناصر بهذا ضربة مميتة إلى المدينة الثائرة... أمّا محمد بن هاشم فما كاد أن يعلم بما حدث حتى سُقط في يده، وشعر بفداحة هذه الضربة التي حرمته من كبار معاونيه، ولكنّه ومع ذلك.. فقد استمرّ صامدًا ممتنعًا

بأسواره، ورسل الناصر تتردَّدُ إليه بالإعذار والإنذار دون جدوى... وأخيرًا بعث إليه الناصر وزيره ومولاه (محمد بن عبد الملك بن أبي عبدة)؛ فاطمأن الثائر إليه وأذعن إلى التوبة والإنابة وطلب الأمان والصلح -وكان ذلك خلال عيد الأضحى- فاستجاب الناصر إلى طلب محمد بن هاشم، وعقد له الأمان بأوثق عقد، وشهد الملأ من أهل العسكر وأهل الثغور.. وهكذا سقطت سرقسطة وسائر الحصون المجاورة لها في يد الناصر، وكذلك سقط في يده حصن روطة أمنع حصونها في الغرب، وبذا انهارت ثورة التجيبيين في الشمال، وكانت من أخطر الثورات التي واجهها الناصر؛ لأنّها كانت مركزًا لتجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة، من الخوارج والأمراء النصارى، أمّا عفو الناصر عن محمد بن هاشم، ومنحه الأمان له، واستصناعه بالرغم من فداحة جرمه، فيرجع إلى ما كان يتمتّع به محمد من مقدرة إدارية فائقة، ولما كان لبني هاشم في الشمال من مركزٍ قويٍّ مؤثر، ولما كان لهم من العصبة والأنصار.

ودخل الناصر بجيشه مدينة سرقسطة وفقًا للسلم المعقود، وشهد منعتها وحصانة أسوارها، فأمر بهدم الأسوار حتّى لا تعود منعتها؛ فتشجع الخوارج على الثورة، وشحنها برجاله، ونظر في مصالحها، فساد بها الهدوء والأمن، وبعث الناصر أثناء مقامه بسرقسطة قوة من جيشه بقيادة (نجدة بن حسين الصقلبي) لتقوم ببعض الغزوات في أرض العدو، وأمر محمد بن هاشم أن يرافقه في أصحابه امتحانًا لوفائه، فصدع بالأمر...

وسار المسلمون - بالرغم من اشتداد البرد وانهمار الثلوج - صوب ناحية شنت إشتيبن، وتفرّقوا إلى ثلاث فرق، أخذت كلّ فرقة منها

بشنّ الغارات في قطاع معين، ثمّ اجتمعت عند حصن شنت إشتيبن، وهنا حاول النصارى اعتراض المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة هُزم فيها النصارى، وتوغّل المسلمون بعد ذلك في أراضي ألبة، وانتسفوا الزروع وخرّبوا الكنائس والديارات، ثمّ عادوا مثقلين بالغنائم إلى سرقسطة.

وكان الناصر قد استتمّ خلال ذلك النظر في شؤون الثغر وحفظ أطرافه، وتزويده بالحماة والمقاتلة، وكلّ ما يضمن سلامته، ثمّ خرج بجيشه من سرقسطة قافلًا إلى الحضرة.

وما إن وصل الخليفة إلى قرطبة.. حتّى جاء إليه قائد الشرطة واستأذن الدخول عليه.

رئيس الشرطة: سيدي أمير المؤمنين، لقد ألقينا القبض على الناكث بعهده الخائن لأمير المؤمنين (أحمد بن إسحق) وعند تفتيشه وجدنا معه هذه الرسالة، ثمّ تقدّم إلى أمير المؤمنين وأعطاه الرسالة.

قام الناصر بفتحها، ومن ثمّ صاح بصوت عال: قائد الفرسان في جيشي لا يكتفي بعدم طاعتي حتّى أرسل إلى الفاطميين في العدوة يدلّهم على عورات الأندلس يريد لهم أن يدخلوها.

بهت الحضور! واستمرّ الناصر في حديثه.. وما إن أنهاه، حتّى نظر إلى رئيس الشرطة وقال: أقيموا فيه حكم الله ...

(٧)

كان الناصر يجلس في بهو السفراء، وبالقرب منه يجلس ولي عهده الحكم، عندما دخل عليه أحد الفتيان الصقالبة واقترب منه هامسًا وقال: مولاي أمير المؤمنين، مولاتي (فاطمة بنت المنذر بن محمد تلحّ في طلبك) ثمّ أشار له الناصر فانصرف، بينما راح الناصر يقول في نفسه: أيّ أمر هام دعاك لأن تفعلي يا فاطمة؟ ثمّ نهض من مكانه فنهض الحكم وقال: لعلّه خيرًا يا أمير المؤمنين.

الناصر: انتظرني ريثما أعود.

الحكم: أمرك يا أمير المؤمنين.

انطلق الناصر حتّى دخل جناح زوجته الأميرة (فاطمة بنت المنذر) فوجدها طريحة الفراش لا تستطيع الحركة وقد أنهكتها الحمى، فاقترب منها الناصر وقال: لا بأس عليك يا فاطمة.

فاطمة: لا بأس بعد اليوم يا مولاي.

الناصر: لماذا لم تخبريني من قبل بمرضك؟

فاطمة: ما أردت أن أشغلك عن أمور المسلمين بأمري.

الناصر: أنت زوجي فكيف تقولين ذلك؟ وكيف لا تخبريني بمرضك؟

فاطمة: ما أردت أن تنشغل بي عن الغزو.

قبّل الناصر يد زوجته وقال: سألتمس لك كلّ الأطباء وسأبحث لك عن كلّ قادر على شفائك، ثمّ همّ بالخروج لطلب الأطباء، فأمسكت فاطمة بيده وقالت:

إذا حان الأجل يا عبد الرحمن يبطل الطبّ، ثمّ قالت: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ».

اغرورقت عينا الناصر بالدموع وهو يقول: «صدق الله العظيم».

قدّم الناصر لفاطمة كوب ماء، فارتشفت منه رشفة صغيرة، ثمّ أمسكت بيده وقالت له مستجدية: لا تترك يديّ حتّى أرتوي منك، اسقني قُربًا بقدر ما أسقيتني غيابًا.

اقترب عبد الرحمن أكثر فأكثر من فاطمة ووضع رأسها في حجره، ثمّ بدأ يتلو عليها آيات من القرآن وهو يمسح على شعرها ويقبّل يدها ويحضنها.

فاطمة بصوت متعب وبابتسامة منهكة: لقد ملك هواك فؤادي بأسره مذ كنت صغيرة، فما أزهى فؤادي وأنت فيه، ثمّ أكملت بنبرة حزينة: أعلم أنّي لم أكن يومًا الأثيرة لديك، لكنّك كنت ليَ الحياة كلّها وأجمل ما فيها، وما ضرَّني لو انتظرتك العمر بأكمله حتّى لو أهلكني حبّك... حبّي لك كان كزهر البنفسج الذي فاح عبيره في حياتي كلّها، كرذاذ المطر الذي أنعش أيامي، كنور الشمس الذي أضاء لي دروب الحياة، لقد كنت بداخلي ثابتًا في قلبي رغم انشغالك وقلّة الكلام واللقاء، ما ألححت في طلبك يومًا، ولكن أنا الآن على أعتاب الفراق، وأريد أن تكون لحظاتي الأخيرة معك في آخر عهدي بالدنيا.

عبد الرحمن بصوت مخنوق: أنت لست زوجي وأمّ ولدي فحسب، أنت ابنة عمي وبضعة مني يا فاطمة، ثمّ قبل جبينها وحضنها أكثر فأكثر.

فاطمة ببهجة قالت: أحقًا؟ أومأ عبد الرحمن برأسه والدموع تسيل من عينيه.

فاطمة: يا أمير المؤمنين، هذا صندوق جواهري (أشارت إليه) به الكثير والكثير من الأموال، خذه يا عبد الرحمن.. فافتدِ به أسرى المسلمين.

عبد الرحمن: لطالما كنت نديّة الكفِّ يا أموية.

أرادت فاطمة أن تردّ على كلامه، لكنّها لم تعد تقوى، فقال لها عبد الرحمن: لا بأس عليك يا فاطمة، لا تنهكي نفسك... وساد الصمت والسكينة المكان، إلّا من صوت أنفاس فاطمة التي بدأت تثقل وتتسارع أكثر فأكثر، وأخذ العرق يتصببّ من جبينها أكثر فأكثر، وكانت فاطمة في حجر عبد الرحمن تنظر صوب النافذة إلى السماء، إلى شيء فقط هي تستطيع رؤيته، ثمّ لفظت الشهادة وأسلمت الروح لبارئها بكلّ سكينة، وعين عبد الرحمن تذرف الدموع وهو لا يصدّق أنّ زوجته الأميرة قد فارقت الحياة.

خرج الناصر حزينًا مهمومًا من جناح زوجته، فوجد الحكم يقترب منه ويقول: إنّ لله ما أعطى وله ما أخذ يا سيدي.

الناصر: ونعم بالله، ثمّ استطرد وقال: أرسل من الساعة يا حكم إلى نافارا وليون واستطلع إن كان هناك أسرى لنفتديهم؟

الحكم مستغربًا: أفي مثل هذا الوقت يا سيدي؟

الناصر: إنّها وصية فاطمة بنت المنذر، وهي واجبة النفاذ فلا تتأخّر.

الحكم: أمرك سيدي.

أرسل الحكم يبحث عن أسير يفتديه وطلب ذلك في بلاد الإفرنج فلم يجد من يفتديه، فما كان من الحكم إلّا أن قال في نفسه: هكذا تكون دولة العدل يا أبي، إذ يكون الفرد فيها أغلى ما فيها، وهكذا هي أندلس الناصر، يُنفق من مال الدولة لعلاج المرضى ويبني المستشفيات، ومعاهد العلم ويشجّع على القراءة، ويسارع في إنقاذ جنده إن وقع فرد منهم في الأسر ويفتديهم بالغالي والثمين، فلا غرو أن يُعز الأسير في دولتك يا أبتِ...

(٨)

كانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار، وأضحت تفوق بغداد منافستها في المشرق بهاء وفخامة.. وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر- وهو مقام الملك- قصرًا جديدًا أسماه (دار الروضة)، جلب إليه الماء من فوق الجبل، واستدعى المهندسين والبنّائين من كلّ فجّ، وأنشأ في ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة، ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة،

وسكانها الخمسمائة ألف، تضيق بما يتطلبه مُلك عظيم كـ(مُلك الناصر)، من استكمال الفخامة الملوكية، والقصور والميادين والرياض الشاسعة، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل، حيث أنشأ الرصافة في ظاهرها لتكون له منزلًا ومتنزهًا ملوكيًا. وقد كان بناء القواعد الملوكية دائمًا سنة العروش القويّة الممتازة، فلمّا بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه، وسَحْقِ أعدائه في الداخل والخارج، عُني بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ... وحدث أن قالت له جاريته (الزهراء) - وهي الأثيرة لديه-: اشتهيت لو بنيت لي مدينة تسميها باسمي، وتكون خاصّة لي.

الناصر: مدينة باسمك يا زهراء!

الزهراء (بغنج) وهل يجد الخليفة اسمًا أجمل من اسمي يطلقه عليها؟

ابتسم الناصر وقال: لا يا زهراء، فلا أجمل من اسمك إلّا رسمك وعينيك.

الزهراء: أخجلتني يا سيدي.

الناصر: سأخلّد اسمك في التاريخ يا زهراء.. وكما شيّد أبو جعفر المنصور بغداد، سأشيّد أنا الزهراء، ولن أبالي إن قال القائل أطلق اسم جاريته على مدينته.

متنهّدة قالت الزهراء: وكما شيّد الداخل الرصافة يشيد حفيده وأقرب الناس شبهًا به الزهراء.

وهكذا اختُطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة، على قيد خمسة أميال أو ستة منها، في سفح جبل يسمّى (جبل العروس)، وعهد الناصر إلى ولده وولي عهده الحكم بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة، وحشد لها أمهر المهندسين والصّنّاع والفنانين من سائر الأنحاء، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية، وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردي من ألمرية وريّه، ومن قرطاجنة إفريقية وتونس، ومن الشام وقسطنطينية، وجلب إليها من سواري الرخام أربعة آلاف وثلاثمائة وأربع وعشرين سارية، وكان يشتغل في بنائها كلّ يوم من العمال والفاعلة (عشرة آلاف رجل)، ومن الدواب (ألف وخمسمائة)، ويعدّ لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة في اليوم...

وقُدّرت النفقة على بنائها بـ(ثلاثمائة ألف دينار كلّ عام)، وابتنى الناصر في حاضرته الجديدة قصرًا منيف الذرى، لم يدّخر وسعًا في تنميقه وزخرفته، حتّى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال، تحفّ به رياض وجنان ساحرة، وأنشأ فيه مجلسًا ملوكيًا جليلاً، سمّي بـ(قصر الخلافة)، صُنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب، وفي كلّ جانب من جوانبه ثمانية أبواب، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصّع بالذهب والجوهر، وزُيّنت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة، وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة، وزوّد الناصر مقامه في قصر الزهراء -وهو الجناح الشرقي المعروف بالمؤنس- بأنفس التحف والذخائر...

(٩)

كان أميّة بن إسحق يشعر أنّ المكان لم يعد يسعه، فراح يجوب المكان جيئة وذهابًا، وقد ارتسمت علامات الحيرة مخلوطة بالغضب على محيّاه، وفجأة صرخ قائلًا: ألا من طريقة لإطفاء النار التي تشتعل في صدري؟! ثمّ انطلق خارجًا من الباب.. حتّى دخل على راميرو ملك ليون وقال له:

إلى متى سنظلّ هكذا يا ملك ليون؟ أما آن لنا أن نتحرّك ليبرأ هذا الجرح في صدري.

رفع راميرو رأسه وقال: أعلم حقدك على الناصر، ولكن لم يحن الوقت بعد أيّها الأمير.

أميّة وقد نفد صبره: فمتى إذًا؟ متى أرى الهزيمة في عينيه؟ هذا إن لم أره قتيلًا ... فلن تنطفئ هذه النار التي في صدري، قبل أن تغوص يديّ في الدماء.

رمق راميرو أميّة بنظرة ذات معنى، ثمّ قال بخبث: إن نحن تسرَّعنا في الخروج سنهزم لا محالة، وأنا لا أريد أن أضيف إلى انتصاراته المزيد ولهزائمي منه المزيد.

أميّة: لن تُهزم يا ملك ليون ومعك أمية بن إسحق!

بهدوء قال راميرو: دعني أتروّ في الأمر.

أميّة وقد نفد صبره: أرجو ألّا يطول ذلك.. فقد بدأ صبري في النفاد. ثمّ استأذن وخرج فتحوّلت أنظار راميرو لفرنان غونثالث وقال راميرو مرتابًا: أتراه حقًا صادقًا فيما يقول؟

فرنان: لا أراه إلّا كذلك يا مولاي، فهذا رجل قد أكل الحقد عقله وقلبه فلم يعد يرى إلا ثأره، لهذا يجب عليك يا سيدي أن تحسن استغلال ذلك! مع أخذ الحيطة والحذر يا سيدي.

هزّ راميرو رأسه وقال: ورغم ذلك، فلا بدّ من عقد الأحلاف وعدم الاعتماد على رجل موتور في هذه الحرب مهما كلّف الأمر.

فرنان: ليكن يا سيدي.

راميرو: أرسل إلى ملكة نافارا أخبرها بنيتنا ولتخبرها أنّني أطلب الحلف معها.

فرنان: لكن يا سيدي، بين الملكة طوطة وخليفة قرطبة عهود لم يجفّ حبرها بعد!

قهقه راميرو وقال: إنّما تُصنع هذه العهود لكسب الوقت فقط.. لا للالتزام بها.

هزّ فرنان رأسه وابتسم ابتسامة خفيفة قال بعدها: أمرك سيدي.

استرخى راميرو على كرسيه ونظر إلى الأعلى وقد لمعت عينه، وشعر وكأنّ الحرب قد قامت والنصر البعيد قد اقترب...

(١٠)

كانت السماء صافية والشمس قد افترشت حديقة القصر، عندما كان الخليفة يجتمع مع قادته ووزرائه وقد بدا الغضب على وجه الخليفة، وهو يقول:

لقد نقض راميرو العهود والمواثيق ولمّا يجفّ حبرها بعد؟

الحكم: هؤلاء قوم لا عهد لهم ولا ذمة يا أمير المؤمنين.

نهض الخليفة فنهض من حوله، ثمّ قال: لقد أعيتني ليون وما حولها ولا أجد لها شفاء إلّا بتأديبها وسحقها.

الحكم: لكن يا سيدي، لا نكاد نعود عنهم حتّى ينهضوا ويحاربوننا من جديد، وكأنّ شيئًا لم يكن.

تحرّك الناصر خطوات للأمام ووقف في مواجهة ابنه وقال: لذا فقد عزمت يا أبا العاص على الخروج لهم بنفسي في جيش لم يروه من قبل.

الحكم: إذًا سأرافق أمير المؤمنين.

الناصر: بل ستمكث هنا في قرطبة تدبّر أمورها وتحفظ جنوبها، فما زالت قوات العبيديين تتربّص بنا، ثمّ تحرّك صوب القائد (أحمد بن محمد بن إلياس) وقال له: ستخرج في بعض قواتك إلى جهة الغرب تكون بين أهله، تحميهم أثناء قيامنا بالغزو، وأنت يا أبا العاص، أرسل من فورك إلى أهل الثغور ليكونوا رديفًا لنا في غزوتنا تلك.

الحكم: سأفعل يا سيدي.

الناصر: ولا تنس آل الطويل وسيدهم (فرتون بن محمد الطويل) فهو ذو قوة وبأس وعصبة.

الحكم: ماذا عن سرقسطة يا أمير المؤمنين؟

الناصر: لا أحسب أنّ محمدًا بن هاشم سيتأخر في اللحاق بنا، فقد أظهر الرجل التوبة والندم.

وهكذا قررّ الناصر سحق ليون، وما إن حلّ الصيف حتّى تأهّب الجيش الأندلسي لأعظم غزواته، وخرج الناصر، وكانت قواته ترفع أعلام العقاب المصوّرة، إذ كان أول من استعملها وجعل القائد (نجدة الصقلبي) على مقدّمة جيشه، ومن خلفه رؤوس القبائل العربية، ووصل تعداد الجيش قرابة الـ ١٠٠ ألف مقاتل خرج بهم صوب ليون...

لم تتردَّدَ الملكة (طوطة) في قبول الحلف مع راميرو، ولم تفكّر ولو للحظات في أمر المعاهدة المعقودة، وكأنّ المعاهدات حيكت من جانب واحد! وما إن استعدّت حتّى خرجت على رأس جيشها وتوجّهت إلى ليون، حتّى إذا وصلت كان راميرو وجيشه في استقبالها، إذ لم يرد راميرو لجيش نافارا أن يبقى طويلًا في ليون حتّى لا يتسرّب الخبر ويصل إلى الناصر، وما إن وصلت طوطة والتقت راميرو وسط الوديان حتّى قالت - بعد أن سلّمت عليه-:

طوطة: أين هذا العربي الذي تقول عنه أنّه خير من جيش؟!

راميرو: لم أُرد أن يكون عربي في استقبالك أيتها الملكة، فهو وإن كان يخدمنا فهو دون أن يكون معنا الآن.

طوطة: لكن كيف وثقت فيه يا ملك ليون؟

راميرو: لم يكن الناصر بحاجة إلى أن يرسل لنا من يخدعنا.. ناهيك عن قتل الناصر أخا الرجل، فجاء هنا يطلب ثأره بعد أن ضاقت عليه السبل.

طوطة: وهل من دليل على إخلاصه؟

راميرو: أمّا هذا فأتركه لفرنان غونثالث، فهو من رافق أميّة في عمله وهو في النهاية من يملك اليقين.

فرنان: لقد استطاع يا سيدتي خلال هذه الفترة الوجيزة أن يراسل (فرتون بن محمد الطويل) واتفق معه على الخيانة، ووعده بأن يحكم أحد المدن تحت رعاية ملك ليون، كما راسل رؤوس القبائل العربية، واستثار فيهم النعرات القبلية.

طوطة (باستهجان): حقًا؟ كيف فعل؟

فرنان: أرسل لهم وقال: كيف رضيتم أن تكونوا تبعًا لنجدة الصقلبي؟ هل وصلت بالعرب المهانة أن يقودهم خصيّ من خصيانهم ويكونوا له تبعًا؟ أمّا أنا فالموت عندي خير من أن أتبع صقلبيًا لا يملك نفسه.

طوطة: إنّه حلم من أحلامي أن تعود النعرات الطائفية بين المسلمين في هذه الجزيرة؛ فيقتلون بعضهم البعض قبل أن نقتلهم... ما أخبث ما فعل!

قهقه راميرو وقال: غير أنّه لصالحنا.

طوطة: وإن كان لصالحنا.. فهذا رجل أحمق.

فرنان: الحرب خدعة يا سيدتي.

طوطة: لا خلاف على ذلك، ولكني تعجّبت أن يخون رجلٌ الناصرَ!

(١١)

فعلت رسائل أميّة فعلها في رؤوس القبائل العربية المنضمة إلى جيش الناصر، وتركتهم يسبحون في حيرة لا شاطئ لها، ورغم رفضهم للخيانة، إلّا أن التأفُّف بدأ يخرج منهم وبدأ بعضهم يقول لبعض: لقد صدق أميّة في قوله، إذ كيف للناصر أن يسفِّهَنا إلى هذه الدرجة، ونحن قوام جيشه، ومنّا قرابته ومنا القرشيون مثله؟

ثانٍ: إنّه يفعل مثل ما فعل جدّه الداخل، حينما كسر القيسية باليمانية، ثمّ استدار على اليمانية فكسرهم بالمولدين والصقلبيين، أم نسيتم أنّ الداخل - أيضًا - جعل مولاه بدر الرومي قائد جيشه؟

ثالث: هل يعقل أن يتكرَّرَ الأمر؟ فإن كان... فكيف لنا أن نسمح بذلك؟

الأول: خفّض من صوتك يا رجل، لا يسمعنّك أحدهم؛ فيطير خبرك عند الناصر.

الثالث: أنا لم أقصد شيئًا، ولكن ما كان له أن يفعل.

ثانٍ: والله ما عادت لي عزيمة على القتال، ولولا مكاني اليوم لعدت من حيث أتيت، فلا أنصره اليوم وقومي، لينكّل بي وبهم بعد ذلك بالصقالبة.

الأول: أمّا العزيمة فلست وحدك، فقد خارت عزائمنا جميعًا، وأمّا القتال فلا مفرّ منه، فإنّ عدنا قرطبة لا نخرج تحت إمرة عبد أبدًا.

استقرّ راميرو الثاني والملكة طوطة على أن يعسكروا عند سيمانقة كونهم يعرفون جغرافية المكان جيدًا، فأقيم المعسكر واجتمع راميرو مع طوطة وفرنان وأميّة بن إسحق، وتشاور الجميع حول الخطة المقترحة والخطوة القادمة، فقال فرنان: ننتظرهم هنا يا سيدي، فنكون بذلك قد أرحنا جندنا وخيولنا، ناهيك عن اختيارنا أرض المعركة، وقد خبرناها وجهلها المسلمون، حتّى إذا تقدّم الناصر بجيشه كان لنا فضل الراحة عليه؛ فيسهل علينا هزيمته وقد أنهكه وجيشه التعب والترحال.

طوطة: نعم الرأي يا فرنان، حقًا لم نفقد غونثالو وأنت معنا.

فرنان: إنما أنا خادمكم أيتها الملكة.

تحمحم أميّة وقال: نعم الرأي أيّها الكونت، غير أنّ لي رأيًا لو أردتم الاستماع إليه.. فأنا كما تعلمون كنت قائدًا للناصر منذ زمن، وأعلم جيدًا كيف يفكّر.

راميرو: هات ما عندك أيّها الأمير.

أميّة: لن يكون الناصر في حاجة لإراحة جنده عند القدوم علينا، فهو قطعًا استراح وجنده غير مرة في الطريق، ناهيكم عن كونه لن يتقدّم صوبنا إلّا وقد استعدّ جيدًا للمعركة، حتى لا يؤخذ على حين غرّة.

طوطة: فما الرأي إذًا؟

أميّة: المبادرة يا سيدتي ... المبادرة التي لن يتوقعها الناصر ولن يعمل حسابها.

فرنان: أتعني أن نتحرّك ونهاجم الناصر ولمّا يقيم معسكره بعد!

أميّة: لا أيّها الكونت، فحتّى هذه سيحتاط لها الناصر، ولكن نبادر إلى صاحب سرقسطة قبل أن يجتمع مع الناصر ونهزمه، ونحول بينه وبين الاجتماع بالناصر؛ فيختل أمر الناصر وتبور خططه، فلا يجد إلّا أن يتقدّم صوبنا إنقاذًا لصاحب سرقسطة، وقد اختلّ تفكيره واضطربت أحواله؛ فيهون أمره علينا، وقد اجتمعنا وتفرّق جنده.

هزّت طوطة رأسها إعجابًا بحديث ابن أميّة، كما أبدى راميرو إعجابه كذلك بالخطة، وقرَّرَ الملِكان الأخذ بما قاله أميّة.

تأهّب النصارى للقاء، واعترضوا طريق صاحب سرقسطة، حتّى إذا عبر التجيبي نهر شنت مانكش (سيمانقة)، ارتدّ العدو بقواته وراء النهر، ونشبت بين الفريقين معركة هُزم فيها النصارى، واستطاع المسلمون في البداية أن يردّوا النصارى عن أماكنهم، وأن يفرّقوا جموعهم، ولكنّهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين، وسقط محمد بن هاشم عن فرسه خلال القتال فأسر، وهُزم المسلمون على باب شنت مانكش هزيمة شديدة، وقُتل منهم كثيرون

وارتدّوا في تراجعهم إلى خندق عميق تهاووا فيه؛ فتردّى فيه منهم خلق كثير.. وما إن علم الناصر بالفاجعة حتّى تقدّم مضطرًا بقواته، وترك محلته، فاستولى العدو على محلة السلطان وسرادقه وآلاته السلطانية، وفيها مصحفه الخاص ودرعه الأثير لديه، بعد أن تراجع عنها القادة العرب، وكأنّ الحرب لا تعنيهم، وكأنّ الناصر ليس خليفتهم، وكأنّ الهزيمة ستحوق به وحده، وأظهروا النفاق لأضغان احتملوها على السلطان؛ فقبعوا للصفوف وسارعوا في الهرب، وكان أسبقهم إلى ذلك وأكشفهم لما في نفسه الخائن (فرتون بن محمد الطويل)، ثمّ استؤنف القتال في اليوم التالي... وقد تضخّمت حشود النصارى بما ورد إليهم من الأمداد (من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع، وأهل قشتيلة إلى مشركي قلمرية، وكلّ صنف من أصناف العجم معهم)، واضطرمت المعركة بين الفريقين، وانتهت هذه المعركة الثانية بهزيمة النصارى وقتل عدد من أعلامهم، وارتدّ المسلمون إلى خطوطهم ظافرين... وفي اليوم التالي بادر النصارى بالهجوم، فلقيهم المسلمون بعنف وشدة، واحتدم القتال، وسقط (عظيم من عظماء النصارى)؛ فاستداروا حوله، وقد لحقتهم الهزيمة، وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين، والاحتلال بساحتهم، وانحياز طاغيتهم في أعلى شاهق، يرجو النجاة بنفسه، فأمر بالرحيل.

وسار الناصر- بعد ذلك- صوب نهر دويرة، في اتجاه حصن شنت منكش، وهو يهدم الحصون، وينتسف الزروع في طريقه، وكان الناصر، يزمع السير شرقًا بحذاء دويرة، حتّى حصن شنت إشتيبن، ولكنّه عدل عن ذلك، وأزمع السير إلى حصن أنتيشة.

ذلك أنّ الناصر.. أشرف في سيره على خنادق ومهاوٍ تتقاذفه، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون، وقدموا إليها، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم، واستؤنف القتال مرة أخرى... وأبدى رؤساء العشائر العربية في القتال فتورًا، وتراجعوا أمام النصارى، ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون، ذلك أنّ النصارى طاردوهم وألحّوا في قتالهم؛ فارتدّ المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربي، حتّى محلة صغيرة في جنوبي مدينة شلمنقة تسمى ألانديجا (الخندق)، ثمّ وقفوا وكرّوا على النصارى بفتور وتخاذل، وهجم النصارى عليهم بجرأة وشدّة، فهُزِمَ المسلمون هزيمة شديدة، وأمعن النصارى فيهم قتلًا وأسرًا؛ فساد الخلل في الجيش الإسلامي، ومزّقت منه فرق برمتها، وقتل قائده (نجدة الصقلبي)، وكانت محنة كبيرة، فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ساعات من النهار، حتّى تقدّم أكثرهم، وجاز الخندق، إلّا من ضعفت دابته، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها، وأصبح لأمير المؤمنين جيوشه، وانتظمت جموعه، وسلّم الله رجاله، وأمير المؤمنين يشكر لله تعالى عظيم نعمه، ويقف على تصرف محنته، يستسهل ما اختصّ به في حب طاعته، يتضرّع إلى الله تعالى في التقبل لقوله وفعله...

ولم يحاول راميرو أن يستغلّ الوضع بمطاردة المسلمين، إذ كان وما زال جيش الناصر- رغم تراجعه وهلاك الكثير منه- يستطيع هزيمة الليونيين لو تماسك.

أمّا الناصر -ورغم تراجعه سالمًا - فقد آلمه وأحزنه ما شاهده من خيانة فرتون وأميّة ورؤوس القبائل العربية، وقد علم أنّهم ما خذلوه؛ إلّا لأنّه جعل الصقلبي عليهم، فقد نسوا هؤلاء أنّه لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلّا بالتقوى.. وهكذا فعلت الجاهلية فعلها، واستيقظت النعرات الطائفية، وكانت كارثة كبرى نجّى الله الناصر منها.

ولمّا لم يكن الناصر بالرجل الضعيف الذي يستكين أو يندب حظّه، لذا فما إن ترك المعركة حتّى كان قد قرَّرَ... وجمع أسباب الهزيمة، فلم يكد يبتعد عن ساحة القتال حتّى بعث خلف (فرتون) برسول استطاع القبض عليه، فوثق وحمل إلى قرطبة، وهنالك صلب على باب السُّدة يوم وصول الناصر من غزواته، كذلك قرَّرَ الناصر أن يبطش بأولئك الخونة المتهاونين، فأمر قبيل وصوله إلى قرطبة، أن تقام المصالب على ضفة نهرها، وما كاد يصل إلى قرطبة، حتّى قبض على نحو ثلاثمائة من الفرسان، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم: هذا جزاء من غشّ الإسلام، وكاد بأهله، وأخلّ بمصاف الجهاد .

ثمّ لم يدّخر عبد الرحمن منذ عودته إلى قرطبة جهدًا في تنظيم الجيش وإصلاحه، وتطهيره من العوامل الخطيرة التي أدّت إلى هذه الكارثة، كذلك فقد سعى عبد الرحمن إلى افتداء محمد بن هاشم، فأفرج عنه النصارى، وغمره الناصر بعطفه، فأسبغ عليه لقب الوزارة، وجعله قائدًا للثغر، وعاد إلى سرقسطة، وكان يزور قرطبة من آن لآخر، واستمرّ واليًا على سرقسطة حتّى توفّاه الله...

(١٣)

الحرب الأهلية

عاد راميرو الثاني (ملك ليون) إلى ليون والخيلاء تملؤه، وحوله قادته وكبار جنده وكان في استقباله جلّ أهل ليون، وهم يرفعون الصلبان، بينما أجراس الكنائس تدقّ تعبيرًا عن هذا النصر الكبير، كما عادت الملكة طوطة إلى نافارا بعد أن شاركت في أهم معارك حياتها، وأقيمت الأفراح في ليون، فلأوَّلِ مرّة ينتصر النصارى على مسلمي الأندلس في معركة مباشرة منذ الفتح.. فما بالهم والندّ هو الناصر؟!

وما إن دخل قصره حتّى توافدت إليه الجموع تهنِّئه والفرسان تقبّل الأرض بين يديه، وهو يهدي إليهم الكور والثغور ويوزّع عليهم القلاع والحصون، وفرنان غونثالث ينتظر دوره ويمني نفسه بحكم ألبة والقلاع (قشتالة) حكمًا مستقلًا.

تنهّد فرنان وأخذ نفسًا عميقًا، واستطرد في نفسه: بل ربّما يعطيني أكبر من قشتالة بعدما أبليت معه ما أبليت أنا وجندي، أمّا أميّة بن إسحق، فجلس في القصر كالمنبوذ، لا يتحدّث إلى أحد ولا يحدّثه أحد، وحال لسان أهل القصر وزوّاره يقول: لقد انتهى دورك أيّها العربي.. فما الذي جاء بك الآن؟ إنّه انتصارنا وهزيمتكم ..فلمَ لا تذهب إلى بلادك؟

شعر أميّة بحرج مجلسه، ولكنّه تحامل على نفسه حتّى لا يظنّ أحد به الظنون، أو أنّه ندم أو انزعج ممّا حدث، ولكن رغم محاولاته

لم يتحمّل طويلًا، فقام إلى راميرو وقدّم له التحية وهنّأه بالنصر مرة أخرى، فما كان من راميرو إلّا أن سلّم عليه ورفع يده في إشارة إلى تقبيل أميّة يد الملك، ولكنّ أميّة تجاهل الأمر، وسط دهشة الحضور وحقدهم على هذا العربيّ اللعين.

انتهى الحفل وذهب كلّ فارس بقلعة أو حصن أو قرية يحكمها، ما عدا (فرنان غونثالث)، فلم يعره الملك اهتمامًا، ولم يقدّم له ولو قرية صغيرة يحكمها نظير ما فعل وقدّم، وقد كان راميرو يكره أهل قشتالة ولا يأمنهم ويخشى من طموحات وتطلعات فرنان غونثالث.

وقد كان لتقسيم الغنائم بهذا الشكل أثر سيئ في نفس فرنان، الذي وجد أنّ حقه قد هُضم، ففكّر في الانتقام لنفسه وجنده، وانتهز فرصة خروج راميرو إلى جيليقية لتأديب بعض الخارجين عليه، واتجه إلى دير ساهاجون حيث يقيم الملك السابق (ألفونس الرابع بعدما تنازل عن الحكم لأخيه راميرو بعد وفاة زوجته التي كان يهيم بها حبًا، إذ تملّكه اليأس؛ فدخل سلك الرهبان)

التقى فرنان بالملك السابق ألفونس وقال له: إنّ للرهبان حياة يا سيدي وللملوك غيرها.

ألفونس: لقد مللت الملك يا فرنان بعد وفاة زوجتي، وأخي راميرو رجل شجاع وهو خير منّي.

(بخبث) قال فرنان: لكنّ شعب ليون وجيليقية لا يزال يتذكّر الملك الرحيم (ألفونس) الذي كان بهم رحيمًا، ويقولون: إنّه جدير بالملك، فمن أخلص هكذا لزوجته سيكون أشدّ إخلاصًا لشعبه!

ألفونس: ذلك أمر قد انتهى يا فرنان، فأين أنا وأين الملك الآن، وحتّى لو أردت العودة وترك الرهبانية.. هل سيتنازل لي أخي راميرو بهكذا بساطة؟

فرنان: قطعًا لن يفعل يا سيدي.

ألفونس: إذًا دعني لرهبانية اخترتها بيدي، ولم يجبرني عليها أحد.

فرنان: سيدي خلفي جند قشتالة، وقد هالهم الظلم الذي تعرّضوا له، فقد سُلبوا حقّهم المادي والمعنوي، حاربوا لينال الجائزة غيرهم، وهم مستعدون يا سيدي أن يكونوا عونًا لك، شريطة أن يكون لهم نصيب من الملك.

ألفونس: مممممم .. تريد منّي الخروج على أخي لتنال نصيبك من الملك.

فرنان: في رعايتك وتحت رايتك يا سيدي، فأنا يدك التي تبطش بها.

هزّ ألفونس رأسه وقال لفرنان: دعني أفكّر للغد.

فرنان: أخشى يا سيدي أنّ الوقت لن يكون في صالحنا حال تأخرنا، فأخوك الملك الآن في جيليقية، ولن نجد وقتًا أنسب من هذا...

ألفونس: عرج عليّ غدًا يا فرنان.

سلّم فرنان بالأمر وقال: أمرك سيدي.

لاقت دعوة فرنان هوىً في نفس ألفونسو الذي كان قد عاف الرهبانية وحياتها واشتاق لحياة الملوك، ولكنّه كان يعلم أنّه من العار

أن يترك الرهبانية بعدما سلك طريقها، أمّا وقد جاءه فرنان بهذا القول فليتركها، فمن ذا الذي سيحاسب الملك إن تمّ له الأمر؟ وقد شجع ألفونس على ذلك أنّ أبناء عمّه فرويلة قد أرسلوا له مبايعينه في حالة خروجه على راميرو الثاني، لذا وفي اليوم الثاني.. ما إن دخل فرنان الدير لزيارة سيده، حتّى وجده قد لبس لباس الحرب، فابتسم فرنان وابتهج بذلك، وقد علم أنّ الملك قد انصاع لأمره.

تمّ وضع الخطة بين الرجلين، وكانت تقتضي أن يجمع فرنان جند قشتالة الموالين له، ويدخل بهم ليون وعلى رأسهم الملك ألفونس الرابع الذي سيبادر مواليه للالتحاق به، حتّى إذا تفطّن راميرو بالأمر تكون المدينة قد سقطت في أيديهم.

وبالفعل تحرّك فرنان بقواته -كما الخطة الموضوعة- وسار بجنده في شوارع ليون ونادى المنادي أنّ الملك ألفونس قد عاد لملكه وأنّ راميرو ليس إلا مؤتمنًا على هذا الملك، أما وقد عاد الملك الحقيقي، فقد وجب على راميرو أن يردّ وديعته ويبايع أخاه.

وبسبب خلو المدينة من جند راميرو؛ فقد نجح فرنان وألفونس في دخول القصر والجلوس على العرش، وهكذا عاد ألفونس الرابع للحكم يؤازره فيه الكونت فرنان وأبناء عمّه الراحل فرويلة.

أمّا راميرو.. فما إن وصلته الأخبار- وهو في طريقه إلى جيليقية- حتّى لوى عنان فرسه وعاد من فوره إلى ليون التي أغلقت دونه أبوابها، فاضطرّ إلى ضرب الحصار عليها، ثمّ أرسل من فوره إلى الرهبان يقول لهم: كيف لرجل ترك زينة الحياة وترهبن أن يعود إليها بعد أن عافها؟ وقد كان ترك الرهبانية في نظر الرهبان عارًا

كبيرًا، فأثاروا عليه دعاية شديدة، وحرّضوا الشعب عليه، والحقيقة أنّ ألفونس (أميرٌ) أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك، وأشدّ شغفًا بالمقدس منه بميدان الحرب.

حاول فرنان غونثالث أن يشدّ من عزيمة ألفونس ولكن دون فائدة، فقد أسقط في يده ولم تفلح محاولات فرنان، فهُزم ألفونس ودخل راميرو ليون، فقبض على جند قشتالة وعلى فرنان وأخيه ألفونس وعلى أبناء عمّه الملك فرويلة وزجّهم جميعًا في السجن، حتّى يفرغ ويعرف كلّ أطراف المؤامرة، ثمّ حكم راميرو بسمل عين أخيه، وسمل كذلك أعين أبناء عمّه الثلاثة الذين اشتركوا في الثورة عليه، وزجّ فرنان غونثالث في السجن...

وبذلك تخلّص راميرو من ثورة كادت تقضي عليه وهو في إبّان مجده وقوته.

لكنّ ذلك لم يَرُقْ لأهل قشتالة الذين أحبوا فرنان وحسبوه زعيمًا قوميًا لهم، لذا فقد جمعوا جموعهم واستمرّوا في الثورة والقتال، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون، فخشي راميرو العاقبة، وأطلق سراح فرنان غونثالث بشروط .. وهي: أن يقسم يمين الطاعة لملك ليون، وأن يتنازل عن كلّ أملاكه، وأن يزوّج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر.

وقد قبل فرنان غونثالث هذه الشروط...

الفصل السادس

إن العلم يا سيدي يبني الأمم،

أما الأمم الجاهلة فتنقرض وتكون تابعة لا متبوعة، مقادة لا قائدة، مستهلكة لا منتجة، ومولانا الناصر لا يعرف غير أن يكون في القمة!

في جبال السييرا مورينا (جبل الشارات)، حيث تكثر الغابات والأشجار، وتعيش الطيور النادرة والحيوانات المفترسة، اتّخذ بعض قطّاع الطرق من تلك الجبال مأوىً لهم، يغيرون منه على قوافل التجارة المارة بين قرطبة وباقي مدن الأندلس... وبينما اللصوص يتسامرون فيما بينهم، إذ فجأة صاح أحدهم -وكان يترقّب الطريق من بعيد- وقال: إنّها بلا فرسان تحميها يا سيدي.

هبّ القائد من فوره وتحرّك صوب صاحب الصوت ونظر إلى حيث يُشير.. تابعه ودقّقَ النظر، ثمّ ابتسم ابتسامة كبيرة.. واستدار ناظرًا إلى باقي أفراد عصابته الجالسين على الصخور، وقال بخباثة: إنّه صيد ثمين.

لصٌّ ثانٍ: ربّما لم يسمع قائدهم بما حلّ بالخليفة.

القائد: هذا ليس شأننا، فقد كان يجب عليهم أن يستطلعوا الأخبار قبل خروجهم (أسباب تعسهم كانت أسباب سعادتنا).

لصٌّ ثالث: أخشى يا سيدي أنّ الناصر ما زال بقوته، وأخشى ما أخشى أن يبطش بنا.

قهقه القائد وقال: دع الناصر في قصره، فليس مثله من يخرج بعد ما كان، والآن ليمتطي كلّ منكم جواده، يجب أن تكون القافلة وما تحمل ملكًا لنا، على ألّا تقتلوا منهم أحدًا ما لم يقاتلوكم.

امتطى الجميع خيولهم وتحرّكوا وبسرعة كبيرة أحاطوا بالقافلة، فخرج لهم صاحبها وقال:

أما علمتم أنّ أمير المؤمنين توعّد من يقطع الطريق على الناس؟

بسخرية واضحة قال قائد اللصوص: علمنا ولكن لا كلمة له علينا، وإن كان هو أمير قرطبة فأنا أمير الشارات.

اعتدل الناصر على كرسيّ عرشه -وبصوت مرتفع ووجه غاضب- قال: أين درّي؟ أرسلوا في طلبه الآن.

الحكم: لقد أرسلنا له يا أمير المؤمنين، ولمّا يأتي بعد.

الناصر: الويل له ولكلّ متقاعس لا يؤدّي عمله في هذه البلاد.

صمت الناصر؛ فساد الصمت المكان، لم يقطعه سوى دخول درّي، الذي انحنى وقبّل يد أمير المؤمنين الذي قال: ماذا فعلت يا صاحب الشرطة؟

درّي: لم آتِ إليك يا سيدي إلّا بعد أن ألقيت باللصوص في غيابات السجن منتظرًا أمرك فيهم، ولهذا تأخّرت عليك.

بدأ الغضب يفارق الناصر، والهدوء يعود لوجهه، ثمّ قال: كم عددهم؟

درّي: يزيد على العشرة يا سيدي.

الناصر (مؤنبًا قائد حرسه): عشرة أشقياء يروّعون المسلمين الآمنين في بلادهم، عشرة أشقياء لم يفعلوا ما فعلوا إلّا لغفلتك ورجالك يا درّي.

نكّس درّي رأسه – وقد ظهرت عليه علامات الخوف– وقال: أرجو عفوك يا أمير المؤمنين.

الناصر: اعلم أنّك مسؤول أمامي عن أمن وأمان العباد، فإن تضرَّرَ أحدهم أو رُوِّع، فستلقى منّي أشد العذاب.

درّي: السمع والطاعة لأمير المؤمنين.

الناصر: أمّا هؤلاء الأشقياء.. فقد سبق القول عليهم، فأقيموا عليهم حدّ الحرابة، وليعلم الجميع أنّ من يروّع المسلمين الآمنين سيكون هكذا مصيره، ولتُقِم الحدّ بنفسك في مشهد من الناس.

درّي: أمرك يا أمير المؤمنين...

(٢)

على مشارف مدينة (طلبيرة) وقف يوسف وهو يمسك بيده رسن الحصان وبجانبه الشيخ (أبو محمد) فقال له: لقد كفّيتم ووفّيتم يا سيدي، وجميلك هذا طوق في عنقي، فلم أشعر بغربة بينكم، فكنتم خير أهل لي.

الشيخ: ألا تراجع نفسك يا ولدي؟ تظلّ معنا، تسكن في دارك وتزرع ما ترك أبوك.

التفت يوسف يمينه إلى حيث مزارع طلبيرة ودار أبيه وقال: لم يعد لي هنا غير الذكريات المؤلمة، ولكن من يدري.. فلعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمرًا.

الشيخ: إلى أين يا ولدي؟

يوسف: إلى قرطبة حيث موطن الحلّ والعقد، قاعدة الأندلس، وأُمّ مدائنها، مُنتهى الغاية، ومركز الراية، وأمّ القرى، وقرارة أهل الفضل والتُّقَى، ووطن أُولي العلم والنُّهى، وقلب الإقليم، وينبوعَ مُتَفَجّر العلوم، وقبّة الإسلاَم، وحضرة الإمام الناصر، ودار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر دُرَرِ القرائح.

الشيخ: صدقت يا ولدي، ولو أنّ بي قوة لصحبتك، فقرطبة أهلها أعيان البلاد، وسراة الناس في حسن المأكل والملابس والمراكب وعلو الهمّة، وبها أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وأجِلاّء الغزاة وأمجاد الحروب.

هوى يوسف على يد الشيخ يقبّلها، فأبى الشيخ ذلك واحتضنه بقوة... بعدها ركب يوسف فرسًا - أهداها إليه الشيخ أبو محمد- وسار باتجاه قرطبة - وهو يقطع الوديان والقفار- حتّى وصل قرطبة، فباع فرسه واشترى ببعض من ثمنها غرفة يعيش فيها، وفي الصباح خرج وذهب إلى سوق قرطبة يبحث فيها عن عمل يتقوّت منه، ولكن ما إن دخل الأسواق حتّى زاغت بصره وفتح فاهه من روعة ما رأى، إذ شاهد أسواق المدينة مرتبة ترتيبًا حسنًا، بحيث وجد لكلّ أهل

حرفة سوقًا خاصة بهم، تخصصّت ببيع سلعة معينة من السلع التجارية، فهذا سوق للعطارين تباع فيه التوابل والعقاقير والأصبغة وماء الورد والمسك، وهناك سوق للصوّافين، وسوق خاص بالطعام والشراب، وسوق للفاكهة والخضار، وسوق للأسماك واللحوم، وسوق أخرى للكتب والمكتبات ووووو...إلخ

سار يوسف بين تلك الأسواق مندهشًا ممّا يرى، فقد عاش في برغش سنوات عمره ولم يكن يعلم أنّ في الدنيا أمورًا مثل هذه، شوارع مبلّطة جميلة تُضاء بالليل، وقنوات للمياه لضمانة وصول الماء الكافي، لا للسقي فقط، بل لتوزيعه في المدن على البيوت، وكان للبريد سرب من الخيل السريعة تبردّه في جميع الطرق المهمّة في المملكة.

نظر يوسف إلى قرطبة وتذكّر برغش التي لم توجد فيها قنوات لصرف المياه القذرة؛ فكانت المياه المنتنة النجسة تجري في طول الشوارع غير المبلطة، أو تجتمع فيتكون منها حياض، أمّا في قرطبة، فكانت الشوارع مبلّطة منوّرة، قد سوّيت فيها مجاري المياه أحسن تسوية. وكانت الشوارع مجهّزة أحسن تجهيز بالشرطة؛ لبَثّ الأمان بين الناس.

لقد شعر يوسف الذي عاش في قشتالة كلّ عمره أنّه أمام أعجوبة الزمن، فكان في قرطبة وحدها تسعمائة حمام عام، وكانت الحمامات الخاصة كثيرة في كل مكان، بينما لم يكن في كل برغش حمام واحد، وكان أشراف برغش ورؤساء الإقطاع منهمكين في الرذائل إلى حدّ يحجم الإنسان عن وصفه... ثمّ نظر الى قصر قرطبة فوجده آية في الجمال، بينما كان الحشيش يغطّي أرض قصور الأمراء في برغش، وكان الناس والكلاب ينجّسون المحلات إلى حد يعجز عنه

الوصف، ولم يكن لأحد منهم منديل في جيبه، وفي ذلك الوقت لم تكن الحدائق تخطر ببال أحد من أهل الممالك النصرانية، ولكن في قرطبة كان الناس في جميع الطبقات يبذلون الجهود والأموال في تجميل حدائقهم العطرة البهيّة، وكانت الفستقيات تترقرق مياهها في صحون الدور والقصور والأماكن العامة، أمّا صحن الجامع الكبير في قرطبة.. فكان فيه حوضان جميلان من المرمر يزينان الصحن، حيث كان كلّ مصَلٍّ يتوضّأ قبل أن يدخل المسجد.

تحرّك يوسف حتّى وصل إلى سوق الوراقين والمكتبات، فوجده عامرًا بالكتب والنسّاخين والناس، فوقف يطالع أسماء الكتب ويتفحّصها ويتعجّب من كلّ هذه الكتب.. ولسان حاله يقول: كيف وأين كتُب هذا؟ أطال يوسف المقام بين الكتب، حتّى لاحظه عمرون فتقدّم تجاهه وقال:

هل تبحث عن كتاب بعينه؟

يوسف: لا لا.

عمرون: فهل من مساعدة أستطيع أن أقدّمها لك.

(بصوت متردِّد) قال يوسف: الحقيقة يا سيدي أنّني لست من أهل قرطبة، وهذا أولّ عهدي بها، وقد تعجّبت ممّا رأيت، فمن ذا الذي يجول بخاطره كلّ هذه الكتب وهذه المدينة العجيبة؟!

عمرون: هذه قرطبة عاصمة مولانا الناصر، فحقّ لها أن تتميّز عن غيرها، غير أنّ إشبيلية وطليطلة وغيرهم من مدن الأندلس بهم مثل ما ترى.. فلمَ العجب؟

يوسف: صدقت يا سيدي، ثمّ همّ بالانصراف، وهمّ عمرون كذلك بدخول مكتبته، غير أنّه لاحظ توقف يوسف مرة أخرى، فنظر له وقال:

عمرون: هل من خطب؟

يوسف: هل أجد عندك عملًا يا سيدي؟

صمت عمرون قليلًا، ثمّ قال: هل لك خبرة في نسخ الكتب.

يوسف: لا يا سيدي.

عمرون: فهل تفقه ما فيها.

نظر يوسف لأسفل وقال: لا يا سيدي.

عمرون: فكيف تريد أن تعمل هنا؟! اذهب فابحث لك عن عمل يناسبك.

استدار يوسف وتحرّك مغادرًا مكتبة عمرون الذي شعر بأنّه أهان يوسف أكثر ممّا ينبغي، وقال في نفسه: كان يكفي أن أعتذر له وأقول عندي من العمّال ما يكفيني، قاتل الله الشيطان، لقد كسرت قلبه، ثمّ نهض عمرون وصاح بصوت عالٍ: أنت... أنت

توقّف يوسف واستدار، بينما أكمل عمرون وقال: تعال.

يوسف: ما الأمر يا سيدي؟

ربت عمرون على كتف يوسف وقال: ستتعلّم وتعمل معي، فإنّي بحاجة إليك.

(٣)

جلس الناصر لدين الله وعلى يمينه ولده وولي عهده الحكم وحاجبه موسى بن محمد بن حدير وكاتبه حسداي بن إسحق الإسرائيلي، والحكم ممسكًا بورقة يقرأ منها ويقول:

الحكم: إنّها رسالة من (شنير بن منفريد) صاحب برشلونة يا أمير المؤمنين، يطلب فيها ودّك وعقد السلم معك.

الناصر: سنجيبه إلى ما طلب، فنحول بذلك بينه وبين نافارا.

الحكم: كما ترى يا أمير المؤمنين.

نظر الناصر إلى كاتبه حسداي بن إسحق وقال: اخرج إليه يا حسداي، فإن قبل شروطنا قبلنا عهده.

حسداي: وما تلك الشروط يا أمير المؤمنين؟

الناصر: اكتب إليه ..أن يتخلى عن إمداد جميع النصارى الذين ليسوا في سلم الناصر، وأن يلتزم طاعته، وأن يحلّ المصاهرة التي بينه وبين غارسية بن شانجه صاحب بنبلونة (نبرّة)، فإن قبل تلك الشروط فهذا أمري إلى قادة الأسطول وعمّال السواحل بتحامي أعماله ومسالمة أهل بلاده.

حسداي: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين.

الحكم: وهذه رسالة من صاحب (جيرندة) يطلب تأمين تجّار أراضيه الذين يجوبون ربوع الأندلس.

الناصر: أجيبوه إلى طلبه، شريطة أن يلتزم طاعتنا ويحكم بإمرتنا.

موسى بن محمد: أمرك يا أمير المؤمنين.

الحكم: وهذا ملك الإفرنج (لويس الرابع) قد أرسل الوفود يا سيدي، يريد عقد الصداقة والسلم مع الأندلس، وهذا صاحب ليون (راميرو) يرجو قبول السلم يا مولاي الخليفة.

الناصر: من كان يظنّ أن يرسل لنا (راميرو) برسالة كتلك في هذا الوقت؟!

الحكم: لا غرو يا أمير المؤمنين، فهو- ورغم ما كان في سيمانقة- يعلم علم اليقين أن لا استقرار لملكه إلّا برضا أمير المؤمنين.

الناصر: هذا وقد وصلتنا الأخبار بما يجري في ليون من حروب أهلية، وقد علم (راميرو) أننّا لن نسكت عنه، فأراد أن يسترضينا بذلك؛ ليتفرغ لأعدائه الداخليين الخارجين عليه.

الحكم: هل نردّه يا أمير المؤمنين؟

الناصر: بل أجيبوه.. بشرط أن يتخلّى عن مجموعة من الحصون والقلاع لنا، وأن يسالم من نسالم ويحارب من نحارب...

وهكذا تواردت السفارات على قرطبة تطلب ودّها وصداقتها، وانبهر الرسل والسفراء بقرطبة وما فيها، حتّى إنّ مرافق سفير فرنسا (بلاد الفرنجة) لمّا عاين حال قرطبة ومعاهدها ومدارسها وسماحة أهلها وحكومتها، طلب من الخليفة الإذن له بأن يتلقّى العلاج

ﮯﻓ بيمارستان قرطبة، فوافق الخليفة على ذلك ودخل الفرنسي البيمارستان للعلاج، وأوصى السفير العائد إلى باريس أن يخبر أمّه أنّه بقي ﮯﻓ قرطبة للعلاج، ثمّ حمّل السفير رسالة لأمّه قال فيها: أمّاه أنا هنا ﮯﻓ أحسن حال، فلا ترسلي لي نقودًا أتعيّش منها، بل أنفقي على نفسك وإخوتي، فأنا هنا لا أحتاج إلى النقود مطلقًا؛ لأن المعالجة ﮯﻓ هذا (المستشفى الإسلامي) مجانية !! بل إنّ المستشفى يدفع إلى كلّ مريض - تماثل للشفاء- مبلغ خمسة دنانير، وملابس جديدة حين يغادر المستشفى؛ كي لا يضطر إلى العمل ﮯﻓ فترة النقاهة!!

والدي العزيز: لو تفضّلت وجئت لزيارتي فسوف تجدني ﮯﻓ قسم الجراحة ومعالجة المفاصل، وسوف تشاهد بجانب غرفتي مكتبة، وصالونًا للمطالعة والمحاضرات، حيث يجتمع الأطباء فيه يوميًا للاستماع إلى محاضرات الأساتذة.

أمّا قسم الأمراض النسائية فيقع ﮯﻓ الجانب الثاني من ساحة المستشفى، ولا يُسمح للرجال أن يدخلوا إليه...

وﮯﻓ الجهة اليمنى من الساحة تجد صالونًا كبيرًا مخصصًا للمرضى الذين تماثلوا للشفاء، حيث يقضون فيه فترة النقاهة، ويحتوي الصالون على مكتبة خاصة.

والدي العزيز: إنّ كلّ نقطة وكلّ مكان ﮯﻓ هذا المستشفى غاية ﮯﻓ النظافة.. فالفراش والوسادة التي تنام عليها مغلّفة بقماش دمشقيّ أبيض، أمّا الأغطية فمصنوعة من المخمل الناعم اللطيف.

وجميع غرف المستشفى مزوّدة بالماء النقي الذي يصل إليها بواسطة أنابيب خاصة! وفي كلّ غرفة مدفأة لأيام الشتاء.

أمّا الطعام فهو من لحم الدجاج والخضار، حتّى أنّ بعض المرضى لا يريدون مغادرة المستشفى طَمَعًا بالطعام اللذيذ!

أبي العزيز ورغم سعادتي بما أنا فيه.. إلّا أنَّنِي قد حزنت يا أبي لحالنا في باريس.. فبيمارستان باريس كما تعلم أرضيته مرصوفة بالطابوق، وقد فُرشت بالحشائش اليابسة، حيث كان المرضى يرقدون عليها الواحد جنب الآخر بشكل معكوس، ولم يكن هناك نظام أو أصول.

ما زلت أتذكّر يا أبي مشهد الأطفال وهم ينامون بين الشيوخ، والنساء بين الرجال، ويلتصقون ببعض من كثرة المرضى وضيق الردهات، وكان صوت صراخهم من الألم إضافة إلى الجوع، إذ لا يوجد في المستشفى من الطعام ما يكفي لإطعامهم.

ما زلت يا أبى أتذكّر (مستشفى باريس) وهو مملوء بالذباب والحشرات، تنبعث من أروقته روائح كريهة، حتّى أنّه كان يتعذر على طبيب المستشفى أن يدخل إلى قاعة المرضى من شدّة الروائح النتنة؛ لذلك كان يحمل معه إسفنجة مرطبة بالخل يضعها عند أنفه بين الحين والآخر، وكانت جثث الموتى تظلّ في مكانها حوالي ٢٤ ساعة فتتعفّن بين بقية المرضى الأحياء.

(٤)

وفد القسطنطينية

على الساحل الشرقي للأندلس وعلى حافة بحر الشام - حيث مدينة ألمرية أشهر مراسي الأندلس في عهد الناصر- كانت ترابط وحدات الأسطول الأمويّ.. تحرس جنوب البلاد وتدافع عنه ضدّ الغزوات، كما كان الأسطول الأمويّ يبسط يده على معظم البحر المتوسّط، وعلى شواطئ ألمرية كانت دار بناء السفن ومرابط للجيش، وكان الجند ينتشرون هنا وهناك، بعضهم يتدرّب وبعضهم يركب البحر، بينما يعمل العمّال في صناعة السفن، ووسط الرايات الأمويّة المزينة بالعقاب، ظهرت سفينة تحمل أعلامًا ورايات للدولة البيزنطية.

نظر أحد الجند المكلفين بالمراقبة إلى السفينة، ومن ثَمّ أطلق النداء وقال: سفينة تحمل أعلام القسطنطينية قادمة إلينا!

استعدّ الجند للاشتباك وإغراق السفينة القادمة، غير أنّ المراقب صاح مرّة أخرى وقال: إنّها تحمل رايات السفراء!! عندها أعاد كلّ جندي سلاحه إلى غمده، بينما امتطى أحد الفرسان صهوة جواده وانطلق من فوره إلى قصر والي (ألمرية) يخبره بالأمر، حتّى إذا دخل عليه قال: سيدي.. سفينة تحمل رايات القسطنطينية قادمة إلينا، وعمّا قريب ترسو في (ألمرية).

هبّ الوالي من مكانه - وقد تبدل حاله- وقال بلهجة حائرة: سفينة واحدة فقط؟ كيف لهم أن يفعلوا؟

الفارس: إنّها تحمل أعلام السفارة يا سيدي.

تنفّس الوالي الصعداء قبل أن يعود إلى كرسيه، ويقول: ظننت أنّها سفن إغارة وغزو... ثمّ استرخى على كرسيه للحظات، اعتدل بعدها وقال:

أيّها الفارس.. اقطع ظهر فرسك حتّى تصل قرطبة وتبلغ الخليفة أنّ سفارة من القسطنطينية قادمة إليه.

الفارس: أمرك سيدي.

انطلق الفارس صوب قرطبة، بينما نهض الوالي وتحرّك -وخلفه جنده- ليلتقي السفير البيزنطي، حتّى إذا تمّ اللقاء نزل السفير ورفاقه في ضيافة والي (ألمرية)، وبعد أيّام وصل من قرطبة وفد الخلافة لاستقبال السفير، وهكذا كانت العادة دائمًا، ثمّ انطلق الوفد من (ألمرية) صوب العاصمة الأمويّة، وكانت مهمّة الوفد الخلافي هي مرافقة السفير إلى قرطبة، كما كان لهذا الوفد مهمّة أخرى، وهي محاولة معرفة ما تتضمّنه الرسالة، وأيضًا عدم تمكين السفير من معرفة الطريق من الساحل إلى العاصمة، فيختارون له الطرق الوعرة المتعبة.

كانت الشمس تجدّ في الرحيل.. عندما كان الناصر وولي عهده يتجولان في حديقة قصر الزهراء الغنّاء، وعلى بعد خطوات منهما، كان يسير الحاجب موسى بن محمد بن حدير.

الناصر: لقد أرسل لنا صاحب القسطنطينية سفارة ستصلنا خلال أيّام، لذا أريدك يا أبا العاص أن تقوم بنفسك وتهتمّ لأمر تلك السفارة.

الحكم: أمرك يا أمير المؤمنين.

استمرّ الخليفة في السير- حتّى إذا اقترب من شجرة برتقال واستظلّ تحتها- قال الحكم:

العفو يا أمير المؤمنين، ولكنّي أتساءل عن ماهية تلك السفارة، وأهدافها؟ فقد خُيل إليَّ أنّ صاحب القسطنطينية إنّما يرمي من خلفها لحلف معنا ضدّ بغداد، اقتداء بما فعله من قبل الإمبراطور البيزنطي (ثيوفيلوس) حينما أرسل إلى جدّي عبد الرحمن الداخل سفارة محمّلة بالهدايا، وكان الهدف منها إقامة حلف بين قرطبة والقسطنطينية في وجه الدولة العباسية، حيث أرادوا استغلال العداوة الخالدة بيننا وبين بني العباس.

الناصر: لا أظنّ أنّ صاحب القسطنطينية سيكررّ خطأ أجداده معنا؛ فهو أحصف من ذلك، وإلّا سيكون ردّنا عليه مثل ردّ جدّك الداخل على جدّه... لن نتحالف على بغداد ولن نُعين عليها أبدًا مهما بلغت العداوة بيننا وبينها، فهم وإن كانوا أعداءنا إلّا أنّهم مسلمون مثلنا، فلا نكون أبدًا عونًا عليهم، ولا نكون أوَّل من تحالف مع الكفار ضدّ إخوانه المسلمين.

ابتسم الحكم وشعر بالرضا .. فقال بفخر: هذا عهدنا بك يا أمير المؤمنين.

ابتسم الخليفة للحكم، وتحرك إلى الأمام قبل أن يقول: أين ابن حدير؟

موسى: رهن إشارتك يا أمير المؤمنين.

الناصر: أرسِلْ إلى علماء وفقهاء قرطبة، أريدهم اليوم في مجلسي ولا تنسَ أبا علي القالي وافد العراق وضيف الخليفة.

موسى: أمرك يا أمير المؤمنين.

في مساء هذا اليوم، وفي بهو السفراء في القصر الخلافي المؤنس بالزهراء اجتمع الناصر مع فقهاء قرطبة، وكان من ضمن الحضور أبو علي القالي والمنذر بن سعيد البلوطي وغيرهم من فقهاء المدينة، فتحدّث لهم الناصر وقال:

لقد أرسَلَ إلينا صاحب القسطنطينية (قسطنطين السابع) بسفارة ستقدم إلينا خلال أيام، وما أظنّه قد أرسل إلينا إلّا لطلب صداقتنا، وقد أمرت أن يخطب الأعلام في ذلك الحفل، وأن يعظّموا من شأن الإسلام والخلافة، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزاز كلمته وذلة أعدائه، فاستعدّوا لهذا اليوم وأعدّوا.

وهكذا تمّ الترتيب لاستقبال السفارة البيزنطية، وقد كان الناصر يسعى من خلال ذلك إلى إظهار تفوق الإسلام على غيره، وعلى إظهار نعمة هذا الدين وقوّة أهله.

ولمّا وصلت السفارة إلى مقربة من قرطبة، كانت هناك مجموعات من الجند مرتبة ترتيبًا عسكريًا، تستقبله الواحدة تلو الأخرى، ثمّ خرج أحد كبار رجالات الدولة المقربين من الخليفة فاستقبل السفير، ورحّب به، ودخل معه إلى قرطبة، وما زال مسايرًا له، حتّى أنزله في دار سبق إعدادها لنزوله، وتمّ ترتيب مجموعة من ذوي الخبرة بالضيافة لخدمته، ومجموعة أخرى لتمنع العامة والخاصة من

الاختلاط به؛ خشية أن يتوصّل إلى معرفة ما يضرّ بالدولة الأموية، وذلك من خلال استمالته لأحدهم.

ما إن دخل السفير البيزنطي إلى قصر الحكم (قصر الضيافة)، حتّى انبهر بجماله وروعته وظلّ مشدوهًا ينظر هنا وهناك ويتلمّس الجدران بيديه، وهو لا يكاد يصدّق ما يرى من روعته وحسن نظامه، ثمّ نظر إلى رفيقه وقال: ما كنت أعلم أنّ هناك مدينة أعظم من القسطنطينية.

كان توماس - أيضًا- ينظر في أرجاء القصر، قبل أن يردّ على السفير ويقول: لا أكاد أصدّق عيني من روعة ما أشاهد! لقد صنع هؤلاء العرب حضارة سيذكرها التاريخ.

رومانوس: أجل يا توماس، لكن ألم تلاحظ أمرًا مهمًّا وعجيبًا؟

توماس: ما هو؟! فكلّ ما شاهدته إلى الآن يثير الإعجاب والفضول.

رومانوس: لم أقصد فخامة قرطبة ودورها وحسن تنظيمها، ولكن هذين الذين كانا في استقبالنا (ياسر وتمام).

توماس: لم ألحظ فيهما ما يثير الانتباه!

رومانوس: بلى ...أنّهما ليسا من العرب.

توماس: أجل أجل.. ليسا عربيين، ولكن ما الغريب في ذلك؟

رومانوس: لقد استطاع خليفة الأندلس أن يوحّد شعبه خلفه، ولم يميّز بينهم، وإلّا فكيف لفتيَين ليسا عربيين أن يصلا لتلك المنزلة الرفيعة؟!

توماس: ربّما كان هذا سرّ تفوقهم.

رومانوس: وهذا ما عنيته يا توماس، فليست وظيفتنا هنا أن نقدّم الهدايا ونطلب الصداقة ولكن لدراسة أحوال البلاد وسرّ تفوقها ونقاط قوتها وضعفها، وهذا عمل كلّ سفير حاذق!

بعد أيّام من وصولهم، خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبال السفير، وجلس في بهو المجلس الزاهر، وكان يومًا مشهودًا من أيّام الأندلس...

ركبت الجند بالسلاح في أكمل شكل، وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وحفل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولي عهده الحكم، وجلس باقي أولاده يمينًا وشمالًا، ورتّب الوزراء في مراتبهم، وغصّ المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كلّ ضرب، ودخل سفراء ملك الروم، فبهرهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان؛ فألجمهم ذلك من الحديث لبضع لحظات.. فتكلّم الناصر وقال: لا بأس عليكما فتبسطا.

رومانوس: سيدي الملك، نحن رسل الإمبراطور أرمانيوس (قسطنطين السابع) وقد أرسلنا طلبًا للصداقة، كما كانت دومًا صداقتنا معكم، فأنتم ملوك الغرب وسادته، ونحن كما تعلم يا سيدي من نحن.

الناصر: قد قبلنا ما جئتم به.

رومانوس: سيدي.. لقد علم مولاي أرمانيوس بشغفكم للكتب والعلم؛ لذا لم يجد هدية تليق بجلالتكم أعظم من الكتب، فأرسل

معنا سفرَين جليلَين من كتب الأقدمين، أحدهما نسخة مصوّرة أبدع تصوير من كتاب (ديسقوريدس) عن الحشائش، مكتوبة بلغة مؤلّفها أي: (باليونانية)، والثاني نسخة من تاريخ أورسيوس (هروسيس) مكتوبة باللاتينية، وهو المتضمّن لتاريخ العالم القديم، وأقاصيص الملوك السابقين.

الناصر: لقد أحسن الإمبراطور اختيار سفرائه، كما أحسن اختيار هديته...

رومانوس (مبتسمًا): وهاك كتابه لك يا سيدي.

قدّم رومانوس كتاب القيصر (قسطنطين السابع)، وقد كُتب في ورق ذي لون سماوي باللغة اليونانية، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة، التي فيها وصف لهدايا الإمبراطور، وعلى الكتاب طابع ذهبي، على إحدى وجهيه صورة للمسيح، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين، مصنوعة من الزجاج الملوّن البديع.

أمسك الناصر الكتاب وأعطاه الناصر للمترجم، الذي فتح الكتاب وقال:

يقول الكتاب: إلى العظيم المستحق للفخر، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة، الحاكم على العرب بالأندلس - أطال الله بقاءه- لقد علمنا حبّك للكتب والعلم، وهي غاية العظماء من الملوك؛ لذا لم نجد خيرًا من هذين الكتابين هدية نرجو أن تتقبّلها من صديقك الإمبراطور، غير أنّ كتاب (ديسقوريدس) لا تجني فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية!

هزّ الناصر رأسه وقال للسفيرين: فلتطلبوا من الإمبراطور أن يرسل إلينا من يترجم هذين إلى لغتنا العربية؛ ليستفيد منها الجميع.

رومانوس وتوماس في نفس واحد: أمرك سيدي.

وهنا أشار الناصر للفقهاء الحضور أن يتحدّثوا، فاستعدّ بعض الخطباء لذلك، ولكن بهرهم هول المجلس؛ فوجموا وأرتج عليهم القول، حتّى اللغوي الكبير أبو علي القالي وافد العراق لم يستطع أن يتحدّث، إذ ما كاد يبدأ خطابه حتّى بُهت وتلعثم.. ثمّ صمت؛ فعندئذ نهض الفقيه (منذر بن سعيد البلوطي) دون استعداد ولا سابق توقع، وارتجل خطابًا بليغًا قال فيه:

وإنّي أذكّركم بأيّام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لمّت شعثكم، وأمّنت صربكم ورفعت قوتكم، بعد أن كنتم قليلًا فكثّركم، ومستضعفين فنصركم، ولّاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم، أيّام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتّى صرتم في مثل حديقة البعير من ضيق الحال، ونكد العيش والتقتير؛ فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء...

أناشدكم الله -معشر الملأ- ألم تكن الدماء مسفكة فحقنها، والسبل مخوفة فأمّنها، والأموال منتهبة فأحرزها وحصّنها؟، ألم تكن البلاد خرابًا فعمّرها، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها...؟

ثمّ قال: فأصبحتم بنعمة الله إخوانًا، وبِلَمِّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانًا، حتّى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم

بخلافته أبواب الخير والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كلّ فجٍ عميق وبلدٍ سحيق.

ثمّ قال: فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم، فإن من نزع يدًا من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة، و«ذلك هو الخسران المبين»...

وقد علمتم أنّ في التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظًا للأموال وحقنًا للدماء وصلاحًا للخاصة والدهماء، وأن بقوام الطاعة تُقام الحدود وتُوفى العهود ... فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنّه تبارك وتعالى يقول «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم»، وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين، الساعين في شقّ عصاكم وتفريق ملأكم، الآخذين في مخاذلة دينكم وتوهين دعوة نبيكم...

ثمّ أعقبه بقصيدة قال فيها:

مقالي كحدّ السيف وسط المحافل

فرقت به ما بين حقّ وباطل

بقلب ذكيّ ترتمي جمراته

كبارق رعد عند رعش الأنامل

فما دحضت رجلي ولا زلّ مقولي

ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل

وقد حدّقت حولي عيون أخالها
كمثل سهام أثبتت في المقاتل
لخير إمام كان أو هو كائن
لمقتبل أو في العصور الأوائل
ترى الناس أفواجًا يؤمون بابه
وكلّهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه
مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالمًا أقصى حياة مؤملًا
فأنت رجاء الكلّ حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب
إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

(٥)

أمام مكتبته في سوق الورّاقين، وقف عمرون مع صديقه خالد يتحاوران ويتجاذبان أطراف الحديث، فقال خالد:

خالد: لقد غدت قرطبة مهوىً للسفراء من كلّ الدول، فسفارة تذهب لتأتي غيرها.

عمرون: بلى، فما كدنا نودّع سفارة قسطنطين حتّى وفدت علينا رسل ملك الصقالبة (الملك بيتر).

خالد: وأيضًا سفارة ملك فرنسا (لويس الرابع) الذي جاء في طلب الصداقة والمودة، فأجابهم مولانا الناصر إلى ما طلبوا.

عمرون: وسفارة ملك بلغاريا.

خالد: وسفارة البابا في روما.

عمرون: وأيضا سفارة ملك جرمانيا (أوتو) التي سمعنا أنّها في الطريق إلى قرطبة.

خالد: لقد أصبح مولانا الناصر كعبة الملوك؛ فتباروا في طلب صداقته، وحقّ لهم أن يفعلوا.

عمرون: وحقّ لنا أن نتفاخر بين الأمم أن خليفتنا هو عبد الرحمن الناصر، وأن بلادنا هي الأندلس.

وبينما يتحدّث الرجلان.. إذ نظر خالد إلى يوسف فوجده حزينًا منكبًا على وجهه، ينسخ الكتب، فقال له: كيف حال صاحب طلبيرة؟

عمرون: مم.. أتقصد يوسف؟ لقد تطور كثيرًا، وعمّا قريب سيصبح أفضل ناسخ عندي.

خالد: حقاً!

عمرون: أجل.. فقد أحبّ الكتب وأحبّ قرطبة.

خالد: فإن كان، فلماذا أراه دائمًا حزينًا؟

عمرون: تلك قصة طويلة يا صديقي.

خالد: قصة، أيّة قصة؟

بدأ عمرون يقصّ لخالد قصّة يوسف، حتّى إذا انتهى منها قال خالد: هل لي أن أحدّثه؟

عمرون: على الرحب والسعة.

تحرّك خالد صوب يوسف وسّلم عليه قائلًا: كيف حال صديقنا الطلبيري؟

يوسف: بخير يا سيدي.

خالد: اسمع يا يوسف، فإنّي - والله- يهمّني أمرك، « فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص»، فلا يجب عليك يا صديقي أن تجلس هنا بينما (سميّة) تقبع في قاع دير في مدينة برغش.

يوسف: تقبع بإرادتها سيدي، حتّى تنصّرها كان بإرادتها.

خالد: كن منصفًا يا ولدي، وحكّم عقلك، فلو أرادت سميّة أن تدخل المسيحية -حقًا وصدقًا- لفعلت، ولأصبحت بأفضل حال عند فرنان غونثالث.

يوسف: لكنّها فعلت، ولم تكتف بذلك.. حتّى ترهبنت ودخلت الدير.

خالد: وهذا أكبر دليل على خطأ حكمك عليها.

يوسف: كيف ذلك؟

خالد: لقد رأت الفتاة - حسب حديثك عنها- أنّها مأخوذة لا محالة بعد وفاة زوجة غونثالث، فلم تجد من ينقذها من فرنان إلّا التظاهر

بالتنصر، ولكن ذلك التنصر ما كان ليمنعه عنها، فترهبنت الفتاة لتكون في حمى الدير والرهبان وتنقذ نفسها وتحفظ شرفها خيفة أن يدنّسه فرنان، ومن يدري يا بني، فكثير يُخفي إسلامه مخافة الموت، ولو قدّر لهم القدوم إلى هنا لأعلنوا إسلامهم، ولتفاجأت بهم وبإسلامهم!

صمت يوسف لوهلة - وكأنّه يتدارك شيئًا فاته- ثمّ تبدّلت ملامح وجهه وقال: أحقًا تكون قد فعلت لتنقذ نفسها؟

بابتسامة كبيرة قال خالد: أجل يا ولدي، فمن يدخل الإسلام قلبه لن يتركه أبدًا، فالنفوس الطيبة تحبّ الطيب يا ولدي.

تنهّد يوسف وقال: ولكن.. حتّى وإن كان يا سيدي ما تقوله حقًا، فكيف السبيل إليها وقد حيل بيني وبينها وبين بلاد المسلمين؟

خالد: بل هناك سبيل.

يوسف: ما هو؟

خالد: قصر الزهراء.

ردَّدَ يوسف الكلمة، وكأنّه هابها وقال: أتعني الخليفة؟

خالد: بلى.

يوسف: وهل يهتمّ الخليفة بأمر كهذا.

خالد: كما يهتمّ بكلّ أمر، فهو كالأب للصغير والأخ للكبير... لقد أصلح الناصر دنيانا، بتدبير أمورنا وإصلاح شؤوننا، وحوله ثلّة من العلماء يصلحون دِيْننا وينصحون خليفتنا ... ثمّ ربّت على

كتف يوسف، وقال عليك بدار الخلافة، وإلّا فأنت مسؤول عن ضياع سميّة...

(٦)

كان الكونت فرنان غونثالث -بالرغم من معاهدة الصلح بينه وبين راميرو- لا ينفكّ يحرّض شعب مدينة برغش ضدّ ليون، ويغذّي في شعبه النزعة القومية، إذ إنّ غالبية شعب برغش من (البشكنس)، وهم غير أهل ليون الذين معظمهم من (الجلالقة).

وكان يعمل سرًا على توطيد مركزه، وضمّ كونتات قشتالة كلّها تحت لوائه؛ ليجعل منها وحدة سياسية، أو بالأحرى إمارة مستقلة، يغدو عرشها من بعده وراثيًا في أسرته.

استمرّ الصلح الصوري بين فرنان وراميرو حتّى توفّي الثاني، وجلس ابنه الأكبر أردونيو على العرش، وقدم إليه كونتات ليون مهنئين، لكن كونت برغش (فرنان غونثالث) لم يقدّم التهنئة ولم يبارك جلوس أردونيو على العرش!

وقد كان أردونيو ينظر إلى فرنان نظرةً ذات ريبة، ويعلم تطلعاته للاستقلال عن ليون، ولكنّه كان دائمًا ما يتذكّر أن زوجته أوراكا (ابنة فرنان) ستكون بمثابة الضامن لعدم خروج أبيها على زوجها.

انتهى حفل التنصيب الذي حضره كلّ الأمراء والكونتات والقساوسة، وما إن انتهى حتّى تحدّث أردونيو مع زوجته، وقال -

وهو يخلع عن رأسه تاج العرش-: لقد جاءت الوفود من كلّ أرجاء ليون وجيليقية يقدّمون الطاعة والتهنئة، غير أنّ أباك الذي كان من المفترض أن يكون أوّل الساعين لتهنئتي وتهنئة ابنته التي أصبحت ملكة لم يأت؟!

أوراكا: علّه يأتيك غدًا أو بعد غد، فنحن لا ندري حال الرجل.

أردونيو: أرجو ألّا يصدق حدسي.

أوراكا: دع عنك ذلك، فما هي إلّا وساوس الشيطان.

أردونيو: لقد علمت أنّ أباك يريد الانفصال عنّا بقشتالة، فذاك حلمه القديم يوم أن عاون عمّي ضدّ أبي.

أوراكا: لا أظنّه يفعل يا حبيبي، فقد صارت ابنته ملكة ليون، وخروجه عليك يعني خروجه عليَّ وقطع ما بيني وبينه من رحم! والآن دعك من كلّ هذا، ولنحتفل اليوم بجلوسك على عرش ليون يا ملك ليون...

وفي الوقت الذي كان أردونيو يحتفل بتنصيب نفسه ملكًا، كان أخوه غير الشقيق (سانشو) يعمل في الخفاء لإزاحته عن عرشه، فقام بمراسلة جدّته (طوطة) ملكة نافارا وخاله الملك (غارسية) ملك نافارا، يطلب عونهما لخلع أخيه، كما قام بمراسلة الكونت الثائر(فرنان غونثالث) وطلب مساعدته في ذلك قائلًا له: لك أن تعاونني وأردّ لك ما سلبه والدي الملك (راميرو) من أملاك، وأجعلك ملكًا على قشتالة تحكمها وبنيك لا ينازعك فيها أحد، ولك أن تعاون زوج ابنتك (أردونيو) الذي تزوجها رغمًا عنك، ويرى فيك تابعًا له،

ووقتها ستكون أنت وهو، وسأكون أنا ومن يواليني من جند، إضافة إلى جيش نافارا، إذ إنك تعلم أنّ جدّتي الملكة (طوطة) لن تتأخّر عن مساندتي، ولك أن تختار!

استقبل الكونت رسالة سانشو وفرح بها، ورأى فيها تغذية هذا الصراع، ممّا يؤدّي إلى إضعاف مملكة ليون التي إن دامت قويّة ستتبدَّد أحلامه بالاستقلال، كما رأى أنّ (أردونيو) كأبيه، ومن ثمّ لا طائل من معاونته، فتحوّل بذلك إلى دعم أخيه (سانشو) متناسيًا أنّ ابنته (أوراكا) هي زوجة (أردونيو)، الذي ما إن علم بما يحدث، حتّى جمع جنده وقال لهم -وهو يرتدي لباس الحرب-:

أنا الابن الأكبر والوريث الشرعي لهذا الملك، وقد أراد سانشو أن يأخذه منكم بالقوة، مستعينًا بجند نافارا وجدّته طوطة، فهل ستجعلون لأهل نافارا الكلمة العليا هنا أم تكون لكم كلمة أخرى؟!

ألهب أردونيو بهذه الكلمات جنده؛ فهّب كلّ واحد منهم يفديه بنفسه، ورأوا في نصرته نصرًا لليون فأقسموا على نصرته.

وانتقامًا من الكونت فرنان، فقد طلّق أردونيو ابنته أوراكا وقال لها: إن تحاربنا أنا وهو، فإن انتصرَ كنت أنت ابنة المنتصر وتمّ تطليقك رغمًا عنّي، وإن انتصرتُ أنا كنت زوجة الملك .. لا، هذا لن يكون.. وسأنتصر يا أوراكا، ولكنّك لن تكوني الملكة، وكيف آمن على نفسي معك وأنا عدو أبيك؟! ثمّ طردها خارج ليون.

استعدّ الجانبان للقتال، فحشد أردونيو جيش ليون وحشد سانشو جيش نافارا وجند قشتالة ومواليه من الليونيين، ودارت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحدّ من قوات سانشو ونافارا وقشتالة، ولكن

أردونيو هزم أعداءه، وأخضع سائر الخارجين عليه، واستقرّ في العرش، وفرّ سانشو إلى نافارا ومعه الكونت فرنان...

(٧)

جلست الزهراء في قصر الزهراء ونظرت إلى المدينة العجيبة وحسنها في حجر الجبل الأسود (جبل العروس) وهي تتعجّب ممّا ترى، ثمّ تعاود النظر، فلم تدر حتّى دخل عليها الخليفة وجلس بجوارها وقال لها:

الناصر: ما بال زهرائي منشغلة البال؟

الزهراء: لا أنشغل عنك يا أمير المؤمنين.

الناصر: فإلى ماذا تنظرين؟

الزهراء: انظر يا سيدي (أشارت بيدها).

الناصر: إنّه جبل العروس.

الزهراء: أجل يا سيِّدي، ولكن ماذا عن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي؟

الناصر: الزهراء، المدينة في حضن جبل العروس أسود الصخور... من الغد سآمر بقطع شجرهِ وغرسهِ تينًا ولوزًا؛ لتصح لك الرؤى، فلا يعود ذلك الزنجي أبدًا.

الزهراء: لا أدري ماذا أقول لك يا سيدي.

الناصر: لا تقولي شيئًا، فهذه المدينة سميّت باسمك، فحقّ لها أن تكون أجمل المدن اسمًا ورسمًا حتّى تكون شبيهتك...

في ضوء أعمدة قرطبة وعلى طرقها المبلّطة الجميلة، وبعد انقضاء ثُلثي الليل، وبعد فراغ شوارع قرطبة من المارة، خرج يوسف الطلبيري من داره متوجهًا صوب المسجد الجامع، يناجي فيه ربّه، وعند باب المسجد وجد يوسف القاضي (منذر بن سعيد البلوطي)، فتعجّب وجوده وحيدًا في مثل هذا الوقت من الليل، فتقدّم صوبه وقال له - بأدب وبصوت منخفض-:

- السلام عليكم ورحمة الله.

منذر: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا بنيّ.

يوسف: سيدي.. إنّك لتغرر بخروجك، وأنت أعظم الحكام، وفي الناس المحكوم عليه والرقيق الدين.

منذر: يا ولدي وأنّى لي بمثل هذه المنزلة؟ وأنّى لي بالشهادة؟ ما أخرج تعرضًا للغرر، بل أخرج متوكلًا على الله، إذ أنا في ذمته، فاعلم أنّ قدره لا محيد عنه، ولا وزر دونه.

يوسف: حفظك الله سيدي القاضي. ثمّ قبّل يوسف يده فقال له منذر:

وأنت ما الذي أخرجك في هذا الوقت؟

يوسف: لي حاجة فخرجت لها.

منذر: وهل هذا وقت انقضاء الحاجات؟

يوسف: أجل يا سيدي، ألم يكن للمسلم في ثلث الليل الأخير دعوة مستجابة؟

منذر: بلى يا ولدي، ثمّ ربّت على كتفه وقال له: بارك الله فيك.

يوسف: سيدي، ألا تدعو الله لي؟

منذر: جعل الله لك سبيلًا لما تريد في مرضاته.

ثمّ دخل منذر المسجد وخلفه يوسف، واعتكف الاثنان حتّى صلاة الفجر، فلمّا قُضيت الصلاة توجّه يوسف إلى منذر مرة أخرى وقال له: سيدي ... أشعر أنّ الله قد استجاب دعائي إذ رأيتك اليوم، فهل لي أن أفصح لك عما بداخلي؟

منذر: قل يا ولدي.

بدأ يوسف يقصّ على منذر القصة كاملة... ومنذر يستمع إليه.. حتّى إذا انتهى منها نهض منذر وقال له: سيجعل الله بعد عسر يسرًا، فلا تيأس من روح الله، واحرص على الدعاء، فإنّ الله يحبّ من يلحّ عليه.

ثمّ انطلق منذر إلى قصر الزهراء، حتّى إذا دخله واستأذن على الخليفة ودخل عليه، فوجد عنده ابنه الحكم، فسلّم وجلس وراح ينظر هنا وهناك؛ فهاله ما رأى، إذ كانت أوّل مرة يدخل فيها

قصر الزهراء بعد اكتماله، حتّى إذا رفع رأسه وجد قبّة من الذهب والفضة، حتّى إذا لم يتمّ المنذر المشاهدة دخل الأعيان والوزراء، وقد لاحظ الناصر نظرات الحضور ونظرات منذر بن سعيد، فقال له:

هل رأيت أو سمعت أنّ أحدًا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا؟

أقبلت دموع القاضي تتحدّر، ثمّ قال: والله ما ظننت -يا أمير المؤمنين- أنّ الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، أن أنزلك منازل الكفار.

(باستهجان شديد) قال الناصر: لمَ تقول هذا؟

المنذر: يقول الله عز وجل: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ × وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ × وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ» (الزخرف/ ٣٣- ٣٥)

فنكّس الناصر رأسه طويلًا، ثمّ قال: جزاك الله عنّا خيرًا وعن المسلمين، الذي قلت هو الحق، وأمر بنقض سقف القبّة.

وانفضّ المجلس إلّا من الحكم والمنذر، فشعر الناصر أنّ أمرًا قد شغل المنذر وأبقاه، فقال له:

الناصر: لا يطيل القاضي السكوت إلّا لأمر أهمّه.

منذر: أجل يا أمير المؤمنين، ثمّ قصّ عليه قصة الفتاة المحتجزة في دير برغش.

الناصر:» لَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا «

منذر: «وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته يا مولاي»... اللّهم بلّغت... ثمّ نهض منذر واستأذن الخليفة، فأذن له، فخرج من القصر، بينما ذهب نظر الخليفة إلى الحكم وقال: هذا رجل لا تأخذه في الله لومة لائم، وما منعته حاجته عندي أن يقول لي ما قال، وما جرؤ غيره على القول.

الحكم: أجل يا أمير المؤمنين.

الناصر: أين ابن حدير.

دخل ابن حدير وقال: أمرك يا أمير المؤمنين.

الناصر: أدخلْ عليَّ رسولَ صاحب ليون.

ابن حدير: أمرك يا أمير المؤمنين، قالها .. ثمّ خرج.

الحكم: ماذا لو كان طلبهم الصلح يا سيدي؟

الناصر: إن كنّا سنغنم منهم بالصلح ما يغنينا عن الحرب، فمرحبًا بالصلح.

دخل ابن حدير وقال للخليفة: الرسول ينتظر عند بابك يا أمير المؤمنين.

أشار الناصر بيده فدخل الرسول وتقدّم صوب الناصر، فقبّل يده ومن ثمّ أعطاه الرسالة، وتراجع وهو ينظر إلى الأرض، فما كان من الناصر إلّا أن أعطى الرسالة لولي العهد الذي فتحها وقال: إنّهم يريدون الصلح يا سيدي، ثمّ طوى الرسالة واستطرد قائلًا: يريدون الصلح بعد أن اشتعلت الأرض من تحت أقدام مليكهم! فخرج عليه أخوه وصاحب برغش ونبلاء ليون.

نظر الناصر إلى السفير الذي نكّس رأسه وقال: لا بأس أن نقبل منكم الصلح ونعقد معكم العهد، شريطة أن يتعهّد (أردونيو) بإصلاح بعض القلاع الواقعة على الحدود، وأن يهدم البعض الآخر.

همَّ السفير أن يتحدّث، فأشار له الناصر، فصمت.. بينما قال الناصر: وأن يطلق كلّ الأسرى المسلمين لديه، وأن يرسل لنا (راهبة) تمّ حبسها في دير برغش فهي من أب وأمّ مسلمين، ولن ينعقد الصلح ما لم ترسلوا تلك الفتاة لنا، فإن رضيتم بشروطنا عقدنا السلم معكم، وإلّا فالحرب حتّى يحكم الله بيننا «وهو خير الحاكمين».

السفير: لكن يا سيدي، لا نجبر أحدًا على دخول الدير! فوجودها إذًا دليلٌ على دخولها بمرادها ورغبتها.

الناصر: يجب أن أتبيّن ذلك بنفسي.

لم يجد السفير مناصًا من إجابة الناصر، فانحنى وخرج من القصر بعد أن حمل شروط أمير المؤمنين إلى ليون...

(٨)

سفارة أوتو (المسلمون في صقلية)

في جنوب إيطاليا رست سفينة صغيرة عليها عشرون بحارًا من المسلمين، في خليج جريمو (سان تروبيه) ونزل بحّارتها إلى الشاطئ ولجؤوا إلى غابة كثيفة تظلها الجبال، ثمّ هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها، ولمّا رأوا منعة معقلهم من البر والبحر، عوَّلوا

على الاستقرار فيه، ودعوا إخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم، وأرسلوا في طلب العون والتأييد من حكومات الأندلس والمغرب، فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل... ولم تمض أعوام قلائل، حتّى استقرّوا في ذلك المكان، وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون، أمنعها وأشهرها حصن (فراكسنتم).

ولمّا كثُر جمعهم، واشتدّ ساعدهم، أخذوا في الإغارة على الأنحاء المجاورة، وأصبحوا قوة يُخشى بأسُها... وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم - بعضهم على بعض- فلبّوا الدعوة وانتزعوا من بعض السادة أراضيهم، وأعلنوا أنفسهم سادة في الأنحاء المغلوبة، ثم اتّخذ المستعمرون المسلمون خطوة أخرى، فتقدّموا نحو جبال الألب غربًا وشمالاً، واخترقوا مفاوز دوفينه، وعبروا (مون سني) أهم ممرّات الألب الفرنسية، واستولوا على دير نوفاليس الشهير الواقع في وادي (سيس) على حدود بييمون، وفرّ الأحبار إلى مختلف الأنحاء، وأغاروا على القرى والضياع المجاورة، وأسِر بعضهم وأُخذوا إلى تورينو بإيطاليا، وسُجنوا في ديرها، ولكنّهم استطاعوا أن يحطّموا أغلالهم، وأضرموا النار في الدير وفي المدينة، وفرّوا عائدين إلى زملائهم، واشتدّ بأس المسلمين في تلك الأنحاء، واحتلّوا معظم ممرّات الألب، وسيطروا بذلك على الطرق الواصلة بين فرنسا وإيطاليا، ثمّ انحدروا من آكام الألب إلى سهول بييمون، وأغاروا على بعض مناطقها.

وانتشر المسلمون بعد ذلك في جميع الأنحاء المجاورة، واجتاحوا كلّ ما في طريقهم من البسائط، وهاجموا مرسيليا، وانضمّ إليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء، وهجر السادة

والأغنياء حصونهم وقصورهم، والتجؤوا إلى الداخل خشية القتل والأسر، وأغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا، وكان يمرّ بها كلّ عام ألوف من الحجاج الذين يقصدون إلى رومة، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور.

ثمّ اتّخذ هؤلاء المسلمون خطوة جديدة في سبيل التقدم إلى أواسط أوروبا، فدفعوا بغزواتهم إلى بييمون ومونفراتو، ووصلوا إلى حدود ليجوريا على شاطئ خليج جنوة، كما غزو مدينة (آكي) من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهي على مقربة من تورينو).

كما غزا المسلمون منطقة (فاليه) في جنوب سويسرة، وغزوا في الوقت نفسه منطقة (تارانتيز) من أعمال سافوا الوسطى، ثمّ اتّخذوا منطقة (فاليه) قاعدة للإغارة على الأراضي المجاورة في سويسرا وإيطاليا، ونفذوا منها إلى أواسط سويسرا، ثمّ إلى (جريزون) في شرق سويسرا، ووصلوا في غزواتهم إلى بحيرة جنيف، وجاوزوا إلى (مفاوز جورا) الواقعة في شمالها.

كما غزا العرب (فريجوس) وكانت من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية، وغزوا-أيضًا- ثغر طولون، ونفذ المسلمون -أيضًا- إلى منطقة نيس ذاتها، وأخيرًا نفذ المسلمون إلى قلب ولاية دوفينه، وغزوا جرينوبل وافتتحوها، وافتتحوا واديها الخصيب (جريزيفودان) الذي يجري فيه نهر الإيزر فرع الرون، وفرّ (أسقف جرينوبل) وزملاؤه إلى الشمال حاملين رفات قديسيهم.

وهكذا انتشرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية في بروفانس وسافوا وبييمون وسويسرا، وبسط المسلمون سيادتهم على ممرات

جبال الألب وعلى الحدود بن غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسرا، وبلغوا في تقدمهم في غاليس مدينة جرينوبل، وافتتحوا في سويسرا ولاية (فاليه ومفاوزجورا) المتاخمة لبرجونية، وافتتحوا في إيطاليا الشمالية، ولاية (ليجوريا)، وكانت معاقلهم في بروفانس، ولا سيما حصن (فراكسنيه) قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم، واتبعوا هذه الخطة نفسها في سهول بييمون، فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية؛ لتكون مركز غزواتهم في بلاد اللونبارد وفي سويسرا...

(٩)

كان الإمبراطور أوتو الأول يجلس في قصره الكبير (بجرمانيا)، وبالقرب منه يجلس يوحنا الجورزيني، عندما دخل عليه أحد الحرس قائلًا:

وصل رسول من البابا (يوحنا الثاني عشر)، وهو يطلب المثول بين يديك يا سيدي.

أشار أوتو إلى الحارس الذي خرج، ليعود بعد قليل وخلفه رجل متوسط العمر، يرتدي زيّ القسيسين ومعه رسالة، حتّى إذا دخل على الإمبراطور قال: التحية لإمبراطور الإمبراطورية الجرمانية المقدسة.

أوتو: مرحبًا برسول روما.

الرسول: مرحبًا بك سيدي، لقد جئت إليك أيّها الإمبراطور لكونك أعظم ملوك الكاثوليك والمدافع الأوّل عنهم.

أوتو: نحن فداء للصليب أيّها الأب الطيب.

الرسول: وهذا ما نعرفه عنك يا ابن المسيحية البار.

أوتو: فما الأمر إذًا يا أبانا؟

الرسول: لقد أرسلني البابا بعد أن وصلت إليه استغاثات متتالية من بلاد (المجر، وجنوب إيطاليا، وسويسرا)، بعد أن أنهك تلك البلاد الغزاةُ المسلمون وقضّوا مضاجع السكان فيها وهزموا الأمراء المحليين في غير موقعة، حتّى دانت لهم بعض المدن وأصبحوا يتحكّمون في طريق التجارة بعد أن سيطروا على ممرّات جبال الألب، ووصلت الصفاقة بهم أن قاموا بفرض الضرائب الباهظة على كلّ من يزور روما من أتباع المسيح.

أوتو: إنّه لأمر محزن، وربّما حان الوقت للبابا أن يعلم لماذا أريد توحيد الإمبراطورية وضمّ تلك الإمارات الصغيرة لي.. فتلك الإمارات العاجزة عن الدفاع عن نفسها، كيف لها أن تتمتّع بحكم ذاتي، ويسمّى حاكمها ملكًا أو أميرًا؟ لكن لا بأس فلكلّ شيء أوّل.

الرسول: سيدي، إنّ البابا يطلب منك - بحكم مكانتك المقدسة -أن تتحرّك وتقضي على تلك الشراذم التي لا تنفكّ تهاجم ديارنا وتخرجهم إلى ديارهم أو تقتلهم.

أوتو: لكن البابا يعلم أنّ تلك المناطق بعيدة عن دولتي، وقد طلبت منه مرارًا أن أضمّها بالقوة لتاج إمبراطوريتي حفاظًا عليها فرفض،

فما الذي يجعلني أنقذها الآن.. وأنهك جيشي في حروب لن تعود عليّ بشيء؟

الرسول: قربهم من دولتك يا سيدي ... فهم وإن كانوا اليوم بعيدين عنك، لكنّهم لن يظلّوا هكذا طويلاً، وإن لم تردعهم اليوم سيدقّون غدًا حدود مملكتك.

أوتو: حسنًا أيّها الأب الطيّب، سنتدخّل في الأمر، ولكن ليس خوفًا وخشية على حدود بلادي من هؤلاء، ولكن حفظًا لماء وجه كلّ أوروبا.

ابتسم الأب أخيرًا وشعر بنجاح مسعاه، ثمّ استأذن الملك بالانصراف، فأذن له، بينما نظر أوتو إلى (يوحنا الجورزيني) وقال: ما رأيك فيما سمعت يا يوحنا؟

يوحنا: لقد صدقوك يا مولاي، فما زالت غارات هؤلاء العرب تقترب من حدودنا أكثر فأكثر، وأخشى يا سيدي أن ننشغل عنهم؛ فنحاط بهم أو ينتقصوا من شأن الإمبراطورية بتجرّئهم عليها!

صمت أوتو وفكر في الأمر مليًا، فوجد أنّ مصلحته تقتضي التصديّ لتلك الغارات وتلك الإمارات الإسلامية القابعة في قلب أوروبا...وهي فرصة؛ ليؤكد من خلالها للجميع أنّه راعي المسيحية الأوّل وأنّه الوحيد القادر على حماية شعوبها، وبذلك يجد تأييدًا شعبيًا، ولكن وفي نفس الوقت لم يرد أن يُرهق جيشه بحروب في قمم الجبال، أجادها العرب وخبروها أكثر من جيشه... وبعد صمت وتفكير قال أوتو: سنبذل جهودنا لدى عبد الرحمن الناصر -عاهل الأندلس وزعيم الإسلام الروحي والزمني- فهو وبكلّ تأكيد من

يمدّهم بالمال والسلاح والرجال، ولولا عونه لما تجرّأت تلك الشراذم على أن يفعلوا ما فعلوا.

يوحنا: أجل يا سيدي، فكلّ عيوننا تخبرنا باهتمام خليفة الأندلس بتلك الإمارات، ومدّ يد العون لها سواء بالمال أو الرجال.

أوتو: لذا ستخرج إليه بنفسك وتحمل رسالتي إليه، وتلتمس إليه أن يعاون بنصحه ونفوذه على قمع هذا العدوان.

يوحنا باستهجان: أنا يا سيدي!

أوتو: لقد علمنا حبّ صاحب قرطبة للعلم وتقديمه للعلماء؛ لذا سيكون وجودك على رأس الوفد ذا معنىً، وستجد في قرطبة آذانًا تسمع لك.

(١٠)

كان عمرون الوراق يتحرّك في أزقّة قرطبة، وهو يتذكّر سالف الأيام... وقد انحنى ظهره وابيضّ شعره ولحيته، وثقلت حركته، حتّى إنه لم يعد يتحرّك بدون عصاة يتوكّأ عليها... مرت بذاكرته الكثير من الأحداث... آه يا عمرون.. من كان يظنّ أن يصبح الكتاب أغلى سلعة عند القرطبيين خاصة والأندلسيين عامة؟ حتّى صرت يا عمرون من علية القوم، وصار القرطبيون يعرفونك ويبحثون عندك عمّا يريدون... ثمّ تنهّد وقال: لولا أنّ الخليفة أنشأ المكتبة الأمويّة وفتحها للعامة ينهلون منها لكانت مكتبة عمرون هي أكبر مكاتب الأندلس،

لكن يجب ألّا تنسى -يا صديقي- أنّ هذه النهضة الكبيرة قد أحدثها الخليفة العظيم عندما جعل شغله الشاغل تأمين دولته وتعليم شعبه، فصار الأندلسي البسيط يقرض الشعر وصارت المرأة تعمل في نسخ الكتب، بل وصار النسّاخون والورّاقون والشعراء والمؤلفون هم الطبقة العليا في هذه الدولة الفريدة... لله درك يا صاحب الزهراء!

ظل عمرون يحدّث نفسه، حتّى إذا وصل إلى دكّان كتبه، جلس يطالع العمل والنسخ وتوافر الكتب والناس رائحة وغادية على مكتبته... مرّ الوقت.. والتفت عمرون إلى داخل المكتبة وقال: ألم يأت اليوم أيضًا؟

ردّ عليه أحد الغلمان العاملين بالنسخ وقال: نعم يا سيدي لم يأت.

عمرون: قد كان وعدني أن يعود اليوم للعمل، فما الذي منعه؟ ... يا غلام عرّج على دار يوسف واسأل عنه، فلعل شيئًا ما منعه.

الغلام: أمرك سيدي...

كان يوسف يجلس في بهو منزله الكائن في الربض الشرقي من قرطبة، وقد ابتهج وجهه وتبدّلت ملامحه، وذهب ذلك الحزن عن محيّاه، وبجواره سميّة وقد أمسك بيدها، وهو يقول: يجب أن أعود للعمل يا حبيبتي، فقد مرّ الأسبوع المتفق عليه.

سميّة: ما زلت في شوق لك، وأسبوع واحد لا يكفي.

يوسف: الدهر كلّه لن يكفي والشوق لن ينقضي، ولكنّه العمل والواجبات الملقاة على عاتقنا.

سميّة: ما زلت أشعر بالوحشة يا يوسف، وأخاف أن أنام فأصحو لأجد نفسي في برغش وديرها الموحش... آه يا يوسف.. لقد كانت أيّامًا بائسة كئيبة، كم أتمنى أن أنساها وتُمحى من ذاكرتي... وقد كان أشدّ ما بها حيرتي عليك ولهفتي ...كنت كثيرًا ما أتساءل وأقول -وكأنّي أتحدث إليك-: هل سيعي يوسف هدف ما أفعل، أم سيظن بي الظنون ويحسبني قد تنصّرت حقًا وفعلاً؟ لقد كان هذا السؤال وحده كفيلًا بمرارة في حلقي لا تتوقف ... كنت عندما ألتقي الرهبان يظنّون أنّ شحوب وجهي إنّما هو من الرهبانية التي أحياها وأعيشها وكثرة العبادة، ولم يكونوا يعلمون أنّها شحوب حزن على فراقك يا حبيبي، وقد كان التفكير بك يزيدني حزنًا، وأنا أتساءل... ماذا فعل بك فرنان؟ وكيف تعيش بعد وفاة سيدتي مونيادونا؟

أمسك يوسف بذراعي سميّة، وقال لا بأس عليك يا حبيبتي، لا وحشة بعد اليوم ولا فراق إلّا بالموت.

وضعت سميّة يدها على فم يوسف وقالت: لا تأتِ على ذكر الموت، جعل الله يومي قبل يومك، فلمن أعيش بعدك، ثمّ استطردت وقالت: لقد كنت أعيش في قبو وظلام لا ينيره غير ذكراك وأمل في لقاك، حتّى إذا جاء من يقول لي: إنّ الملك أردونيو يريدك في ليون، تعجّبت! وسألت نفسي ماذا حدث؟ ... كانت أسئلة كثيرة تراودني ... هل سيجبرني الملك على ترك الرهبانية من أجل فرنان؟ هل اكتشفوا أمري وعلموا أنّي أخفي الإسلام؟ ماذا سيحل بي من عذاب إن هم علموا؟

كنت أستشعر الموت في كلّ حركة من الجند الذين اقتادوني من برغش إلى ليون، حتّى إذا وصلت ليون، قال لي الملك أردونيو:

سنرسلك يا سميّة إلى قرطبة، فقد حان الوقت لتعيشي بين أهلك.

توجست منه خيفة، وقلت له: أنتم أهلي يا جلالة الملك، والدير بيتي والرهبانية حياتي.

أردونيو: إن كنت مخلصة لدينك هكذا.. فلن تعدمي الحيلة للرجوع، لكن لا مفرّ من عودتك فإمّا عودتك أو أفقد عرشي، وأنت لا ترضين ذلك، وقد عمد النبلاء إلى حربي واشترط الناصر عودتك؛ ليقبل وضع الحرب التي بيني وبينه، وأنا يا سميّة أريد هذه الهدنة بيني وبين قرطبة لأتفرغ لهؤلاء النبلاء الجبناء الخونة، فإن فرغت منهم لأعودنّ لحرب قرطبة ولأعملنّ على تحريرك منهم، فليكن خروجك إلى قرطبة عملًا تقدّمينه من أجل ليون وكنيستها وديرها.

آه يا يوسف لقد كانت تلك الأيّام مريرة.

يوسف: وكيف صدّقك الملك؟

سميّة: لم يكن أمامه غير ذلك، فأنا دخلت الدير راغبة غير راهبة، وكذا كلّ أهل الدير، إذ كانوا يرون الإخلاص رمزًا لي.

يوسف: أتعلمين يا سمية لو أنّ خبرك أو خبرنا نما إلى الخليفة مبكرًا، لما مكثنا كلّ هذه الأعوام في الأسر ولما عشنا كلّ هذا الهوان!

سميّة: علمت ذلك حال عودتي، إذ كان الجند يتهامسون ويقولون: لمّا لم يجد صاحب قرطبة أسيرًا يفتديه، ذهب يستردّ بضاعته القديمة حتّى بعد دخولها الدير والمسيحية... لقد كان الجند -لما حدث- غاضبين ... كانوا يرون أنّي راهبة مسيحية، فكيف يضحي بي أردونيو؟!

قبّل يوسف يد سميّة وجبينها وقال لها: لقد ظلمتك كثيرًا يا سميّة فاغفري لي.

سميّة: بل اغفر أنت لي يا يوسف ما فعلت، فقد كنت أنا على يقين وأنت على شكّ، كنت أنا على يقين أنّني مسلمة وأعلم ما أفعل، وأنت في حيرة وشكّ من كلّ أمري، فاغفر لي أنت وسامحني.

(١١)

امتطى يوحنا الجورزيني صهوة جواده، وتحرّك مخترقًا الأنهار والوديان والمفاوز، حاملًا الهدايا والأعلام الدالة على الإمبراطورية الجرمانية، ثمّ عبر بلاد الغال ومنها اخترق البرينيه حتّى وصل بلاد البشكنس، ثمّ اتّجه جنوبًا صوب العاصمة الأمويّة قرطبة، وكما حدث مع سفارة القسطنطينية.. فقد حدث الأمر نفسه مع سفارة جرمانيا، إذ بادر التجيبيون في سرقسطة بإبلاغ الخليفة بأمر السفارة، فأرسل الخليفة وفدًا من قرطبة ليصطحب السفير إلى قرطبة، وأمر بأن يُستقبل يوحنا بحفاوة بالغة إكرامًا لعلمه ومعرفته، إذ كان يوحنا من أكابر العلماء وأقطاب البحث والمناظرة.

ورتّب لتلك الزيارة ولي العهد ومولاه جعفر المصحفي، وتمّ إنزال يوحنا ووفده وما يحملون من هدايا في أحد أجنحة القصر؛ استعدادًا للقاء الناصر، ومنع يوحنا من لقاء الخاص والعام حفاظًا على أسرار الدولة.

مرّت أيّام على وصول يوحنا إلى قرطبة، وبدأ الضجر عليه والحيرة تحاصره، وراح يتساءل عن سرّ تأخره عن لقاء الخليفة، ولكن ما من مجيب له، حتّى إذا حضر الفتى (ياسر)- وكان من كبار الصقالبة والقائم على أمر قصر الضيافة - اشتكى له يوحنا من تأخّره عن لقاء الخليفة، إذ قال: مرّت ثلاث ليال ولم نلتقِ الخليفة، وإنّي لم آتِ إلى هنا لأمكث في هذا القصر!

الفتى ياسر: ربّما تلتقيه قريبًا يا سيدي.

رمق يوحنا الفتى ياسر بنظرات ذات معنى، ثمّ قال له: أصقلبي أنت؟

ياسر: أجل من بلاد اللمبارد.

يوحنا: قل لي يا ياسر.. كيف حوّل مولاك الأندلس إلى ما أرى؟

ياسر: بالعدل والحزم ووصل الليل بالنهار.

يوحنا: لقد رأينا في قرطبة ما أذهلنا يا ياسر، فالكتب منتشرة هنا وهناك، فكيف لمليكك أن يسمح للعامة أن يتعلّموا؟

ياسر: وما الضير أن يتعلّم العامة يا سيدي؟

يوحنا: لو تعلمت العامة زادت مطالبها وعرفت حقوقها - ما لها وما عليها- ورأت بالعلم ما لن تراه بالجهل، وصعب مع ذلك سياستها وقيادتها.

ياسر: هذا عندكم يا سيدي، أمّا نحن- المسلمين- فالتعليم عندنا أمر ضروريّ للغاية، ففيه تتحقّقُ المنفعة والأجر في الدارين الأولى والآخرة، كما يُسهم العلم في رفع قيمة المؤمن وشأنه عند الله

-سبحانه وتعالى- وعند العباد، فنحن نجلّ العالم أكثر من غيره، وكذا طالب العلم، حتّى إنّ الخليفة -حفظه الله- يرعى طالب العلم دون غيره، ويهتمّ بالعلماء دون غيرهم.. إنّ انتشار التعليم في بلادنا يعدّ تكريمًا من الله - سبحانه وتعالى- لنا، وبه يرتفع شأننا فوق الأمم. كما يُعدّ إهمال التعليم وضياعه من علامات قرب يوم القيامة، ولك أن تعلم -يا سيدي- أنّ أمير المؤمنين لحريص على ذلك، حتّى إنّه أمر لأولاد الفقراء بمن يعتني بهم، ويعلّمهم دون مقابل.

فتح يوحنا فاه ممّا سمع، ثمّ قال بصوت خفيض: لكنّهم إن تعلموا حاسبوه؟

ياسر: وإن جهلوا يا سيدي حاسبه ربّ العالمين! إنّ العلم يا سيدي يبني الأمم، أمّا الأمم الجاهلة فتنقرض وتكون تابعة لا متبوعة، مقادة لا قائدة، مستهلكة لا منتجة، ومولانا الناصر لا يعرف غير أن يكون في القمة.

هزّ يوحنا رأسه ودخل في صمت رهيب وكأنّ أمورًا كثيرة كان يجهلها.. ثمّ تعجب كيف لهذا الفتى الصقلبي أن يتحدث هكذا وكيف لملك أن يكون جلّ همّه شعبه لا نزواته؟!

تبدّل الناصر وتغيّر على يوحنا ولم يبادر باستقباله، خاصة وقد وقف على موضوع رسالته ووفده، إذ دخل عليه ولي عهده الحكم وقال: يا أمير المؤمنين لقد نما إلى أسماعنا أنّ يوحنا الجورزيني سفير إمبراطور جرمانيا، إنّما هو هنا لأجل بعض المسائل الدينية المتعلّقة بتعقيبك -يا أمير المؤمنين- على دين النصرانية من قبل.

الناصر: ماذا؟! هل جنّ هو ومليكه؟ لا بأس ...أغلقوا عليه باب

القصر لا يبارحه ولا يخرج منه، حتّى نتيقن أنّه لم يبدّل رسالة سيده إلينا، فإن لم يبدّلها -وكانت تتعلق بالمسائل الدينية- فليقضين حياته دون باب القصر، فليس الدين عندنا محلًا للنقاش، وإن كانت غير ذلك قبلنا منه والتقيناه.

الحكم: أمرك يا أمير المؤمنين.

وبينما يتحدّث الناصر مع الحكم، إذ بالفتى (ياسر) يدخل ويقبّل الأرض بين يدي أمير المؤمنين ويقول: سيدي لقد أتيتك من عند يوحنا الجورزيني، وهو يلحّ في طلب لقائك.

(بغضب) قال الناصر: لقد سبق أن أرسلنا رسولًا أسقفًا إلى أوتو فاعتقله مدى ثلاثة أعوام، فأبلغ يوحنا أنّني سأعتقله أضعاف هذه المدّة؛ لأنّي أرفع مقامًا من ملك النصرانية.

ياسر: كما ترى يا أمير المؤمنين.

انطلق ياسر خارجًا من بهو السفراء، بينما قرّ الناصر أن يرسل إلى ملك الجرمان رسولًا آخر يستوثق من عواطفه ونيّاته نحوه، وأن يبقي يوحنا معتقلًا حتّى يعود السفير، واختير لهذه السفارة - كالعادة- قس من رعايا الخليفة هو (ربيع الأسقف)، وكان عالمًا متمكّنًا يشغل في البلاط منصبًا مهمًا، ويَحْبوه الناصر بعطفه وتقديره؛ لعلمه وجليل خدماته، فأحضره الناصر وقال له: يا ربيع، اذهب بكتابي هذا إلى أوتو ملك جرمانيا، وأعلمه أنّ المسائل الدينية ليست محل نقاش بيننا، وأنّنا نتعاون معه في كلّ الأمور ما عدا ذلك.

ربيع: أمرك يا أمير المؤمنين.

انطلق ربيع الأسقف وقطع في رحلته عدّة شهور، عاد بعدها إلى قرطبة حاملًا معه ما يريد أمير المؤمنين، وتأكّد الخبر ووافق الإمبراطور على استبعاد المسائل الدينية من المراسلات، وبالتالي أذن الناصر ليوحنا أن يلقاه، واستقبله الناصر في قصر قرطبة في احتفال فخم، ظهرت فيه روعة البلاط الأمويّ وفخامته وعزّة الإسلام وعظمته.

ودخل يوحنا على الخليفة -وهو يجلس بين الكبراء والوزراء وبجواره ابنه الحكم- فقدّم يوحنا الهدايا للناصر وقال: سيدي الملك أشكر لكم حسن استقبالكم، وأتقدّم نيابة عن مولاي الإمبراطور ببعض الهدايا راجيًا أن تنال رضاكم.

الناصر: قد قبلنا هديتكم.

يوحنا: طال الانتظار يا سيدي.

الناصر: ولو تأكّد لنا الخبر ليئست الإطلاق، فنحن وإن كان ديننا قد أمرنا بترككم وما تعبدون، ولكن لا يغرنّكم حلمنا، فنحن فداء لهذا الدين، نعادي من يعاديه ونصادق من يهادنه ولا نقبل أبدًا أن تستهينوا به، فإيّاكم أن تفعلوا.

يوحنا: نحن نحترم هذا الدين يا سيدي... هذا الدين الذي جعل من قرطبة جوهرة الدنيا، وإنّ دينًا يدعو إلى هذا لهو دين الحقّ وإن لم يكن ديني.

الناصر: لقد أحسن الإمبراطور اختيار رسوله.

يوحنا: إنّما أنا خادمك يا سيدي، فهل قبلت عهود الصداقة؟

الناصر: قد قبلنا.

يوحنا: يا سيدي، أنت خليفة المسلمين وأعظم ملوكهم فهم رعاياك وشعبك، وأنت لهم الأب والقائد، وقد علمتَ يا سيدي ما يقوم به بعض من رعاياك، إذ يقومون بغزوات منتظمة في (غاليس وشمالي إيطاليا وسويسرا)، وهذه المدن والبلاد - يا سيدي- وإن لم تكن واقعة في حدود الإمبراطور، إلّا أنّها جزء من بلاد المسيح، لذا فقد أرسلني الملك يرجو من جلالتكم أن تعملوا على وقف تلك الهجمات والغزوات.

استرخى الناصر في جلسته وقال: كنت أتمنى أن أقدّم مساعدة لصديقنا الإمبراطور، غير أنّ تلك المستعمرات وهؤلاء المغامرين ليسوا تحت طاعتي، فلا علاقة لنا بهم ولا نتحمّل تبعية أعمالهم، ولا نستطيع التدخل في شؤونهم، أو حتّى نبذل في نصحهم، فهؤلاء لا يتبعون حكومة بعينها.

وبينما قال الناصر هذا.. ساد البشر المكان واعتلت الابتسامة والراحة وجوه الكبراء، خاصة الحكم ولي العهد، أمّا يوحنا فقد اضطرب حاله ولم يجد ما يقوله، ولكنّ الامتعاض كاد أن يظهر عليه فكتمه، ولسان حاله يقول: لم تنشط تلك المستعمرات وهؤلاء الغزاة إلّا في عهدكم. ثمّ نهض وقال:

يوحنا: ليأذن لي جلالتكم بالانصراف، فقد طال غيابي عن دياري.

الناصر: في رعاية الله، أبلغ سلامنا وتحيتنا للإمبراطور. ثمّ انصرف يوحنا بعد أن حمله الخليفة هدايا أفخم من هدايا أوتو.

ما إن خرج يوحنا، حتّى همّ الحكم بالكلام، فأشار له الناصر بيده وقال: أعلم ما تريد قوله يا حكم.

الحكم: فلماذا يا أمير المؤمنين؟

الناصر: لأنّي خليفة المسلمين، وحقّ لهؤلاء أن أحميهم، فإن عجزت عن ذلك لبعد الشقّة، فلا أقلّ من ألا أنصر عليهم.. ثمّ صمت قليلاً، قال بعدها: أنت وليّ عهدي والخليفة من بعدي، فلا يأتي يوم تطلب صداقة العدو بدم الصديق والأخ، واعلم أنّ أوتو إنّما طلب الصداقة منّا اعترافًا منه بقوة دولتنا لا محبة فينا، فهؤلاء قوم لا يعترفون بالضعيف ولا يرون حقّه، فإن جاء يوم ووضعت يدك في يد عدوك فلمصلحة الأمّة والمسلمين، واعلم أنّ الفرد هو أساس الأمّة فاحرص عليه...

الفصل السابع والأخير

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام وأعز الإسلام بنا

وفاة أردونيو وتولي سانشو الحكم

في قصره في مدينة برغش، وعلى ضوء النار الخافتة المتقدة في جوانب القصر- إذ لم تكن المصابيح الزيتية المستخدمة في قرطبة قد وصلت إلى برغش بعد- جلس فرنان غونثالث يتحدّث إلى ابنته ويقول: يجب أن تعودي ملكة إلى قصر ليون، لن يذهب جهدي سدىً.

أوراكا: كيف ذلك يا أبي.. كيف؟!

فرنان: لم أزوّجك أحدب دميمًا سيئ الخلال، حتّى تظلي هكذا! بل لتحوزي الملك به.

أوراكا: لكن يا أبي، لقد استقرّ الحكم لسانشو.. وهو حليفك القديم.

تحرّك فرنان صوب النار المتقدة على الحائط، وقال بصوت غاضب: مات أردونيو الثالث، وما إن مَلَكَ سانشو مقاليد الأمر بعده حتّى نسي وعوده لي وراح يتنصّل منها تمامًا، كما تنصّل من عهود أخيه الراحل إلى ملك قرطبة، غير أنّي لست ملك قرطبة ... ثمّ التفت صوب ابنته وقال: أين الأحمق زوجك؟ لمَ تأخر كلّ هذا؟

أوراكا: لا أدري يا أبي! فقد ذهب لبعض حاجاته.

فرنان: قبّحه الله من رجل.

وبينما يتحدثان.. إذ دخل أردونيو الأحدب فلاحظ غضب فرنان، فحاول أن يتّقي نظراته، لكن فرنان اقترب منه وقال له بسخرية: ماذا يصنع جلالة الملك؟

أردونيو: لا أفعل شيئًا.

أمسك فرنان بتلابيب أردونيو وقال: ولن تفعل شيئًا، فما أنت إلا ساقط الإرادة، منزوع الشجاعة.

أردونيو (بسخط): كيف تخاطبني بمثل هذا؟

فرنان: وأخاطبك بأكثر منه، ثمّ أطلقه.

أردونيو: هدّئ من روعك أيّها الكونت، وقل لي ماذا علي أن أصنع؟

عاد فرنان لكرسيه، وبدأ يخفّض من صوته وقال له: عاد سانشو إلى مهادنة الناصر بعد هزائمه المتلاحقة على يد غالب الناصري، بل وتنازل له عن عدد من القلاع والحصون ودفع له الغالي والنفيس، ممّا جعل النبلاء في ليون وجيليقية يستحقرونه، ويتمنّون زواله، وينتظرون رجلًا من بيت الملك يلتفّون حلوه حتّى يخلعوا سانشو.

أردونيو: لكن إن كنت أنا هذا الرجل.. فكيف وأنت حليف سانشو؟

فرنان: أنا لست حليفًا لأحد، فقد حاربت مع راميرو، ثمّ انقلبت عليه، وكذلك سانشو.. أنا حليف مصلحتي ومصلحة ابنتي.

أردونيو: والآن مصلحة ابنتك معي.

فرنان: أجل.. ولكن إن لم تجنِ مصلحتها معك، فاعلم أنّني قاتلك.

أردونيو: هوّن عليك يا والد زوجتي، فسيكون ما تريد.

فرنان: إذًا استمع واصغ إليَّ جيدًا.

تمّ وضع الخطة، وبدأ أردونيو ووالد زوجته فرنان يبثّون في العامة فشل سانشو، ويذكّرون بهزائمه المتتالية مع قرطبة، وتنازله عن الحصون والقلاع التي بذلوا فيها الغالي والثمين، وراحوا يروّجون ويقولون: ما لسانشو والمُلك؟ فهذا رجل بَدِينٌ لا يستطيع ركوب الخيل؟ فكيف لمن عجز عن امتطاء الخيل أن يقود الجند؟ ليذهب ويأكل كما يحبّ، ولكن لا يجب أن يكون مثله على عرش ليون.

زاد همس العامة، وتناقلوا تلك الكلمات واستعدّ أردونيو ومعه النبلاء من جيليقية وليون وقشتالة، ودخلوا على سانشو -وهو يأكل على مائدة أُعدّت له- فقال له فرنان: أكمل طعامك أيّها الملك.

شعر سانشو بما يدور، وكادت اللقمة أن تقف في حلقه قبل أن يقول: ألا تأكلون معي؟

أردونيو: لا نريد طعامك، ولكن نريد عرشك.

سانشو: ماذا تقول؟

فرنان: اسمع يا سانشو، لم يعد في ليون كلّها من يريدك، فها هم نبلاء ليون وجيليقية قد خلعوك، وهذا ابن عمك أردونيو هو أحقّ بالملك منك، فوالده هو ألفونس الرابع، وقد أيَّدَتْهُ العامة والخاصة.

سانشو: ألأنّه صهرك أيّها الكونت؟

فرنان: وقد كان أخوك أردونيو -أيضًا- صهري، فانقلبت عليه عندما كانت مصلحة ليون معك، أما وقد صارت مصلحتها مع غيرك،

فها أنا أقدّم مصلحة ليون مرة أخرى على مصلحتي وأخلعك... ثمّ كيف لملك بَدين مثلك لا يستطيع ركوب الخيل أن يكون ملكًا على أمّة محاربة؟! والآن

أيّها الملك.. إمّا أن ترضخ بالأمر وتكمل طعامك، وإمّا أن ترفض فنسفك دمك ويتمّ -أيضًا- لنا الأمر.

(٢)

رحل سانشو إلى جدّته الملكة (طوطة) في نافارا، وراح يشتكي لها ما حدث وهو يبكي لها حاله، ويرجوها أن تعيده ملكًا كما كان، فما كان من (طوطة) إلّا أن رقّت له، غير أنّها رأت عدم قدرتها على هزيمة ليون وقشتالة، كما رأت أن في سمنة ابن ابنتها وبدانته سببًا في خلعه، فلا أقل من أن يتخلّص هذا من وزنه وشحمه... فقالت له: كي تعود إلى ملكك.. يجب أولًا أن تتخلّص من أسباب عزلك.

سانشو (باستسلام): كيف ذلك يا جدتي؟ لقد حاولت ولكنّي فشلت.

طوطة: هذا لأنّك خائر العزيمة، ضعيف النفس، وقد صدق فرنان في قوله.

سانشو: ماذا أفعل يا جدتي؟ فقد وجدت في الطعام كلّ متعتي، حتّى النساء يا جدتي... أخشى أن أتزوّج بامرأة فتراني كما أنا؛ فتخونني مع عبدي، لذا لا أقترب منهنّ.

طوطة: من هذه التي ستقبل ببدين مثلك وإن كان الملك؟! فالنساء يا بني يردن من يدللهن ويشعرن معه بلذة الحياة ولو كان من أواسط الناس، ولا يسعين إلى من لا يشعرن معه بأنوثتهن، ولو كان الملك نفسه.

سانشو: فماذا الآن يا جدتي؟

طوطة: سأحملك على ما تكره..لاومن الآن.

سانشو: هل ستحرمينني من الطعام؟

طوطة: إن كان فيه صالحك فنعم، ولكن لن يكفي هذا... وإنّك يا بني ستحملني على أمر لا أريده أبدًا.

سانشو: ما هو يا جدّتي؟

طوطة: أن أضع يديّ في يد الناصر مرة أخرى، وقد كنت أريد الموت على أن أفعل وأذلّ نفسي بعد كلّ هذا العمر وذاك الصراع الطويل معه؛ إذ لا نملك - كما قلت لك - القوة الكافية لهزيمة أعدائك.

غارسية سانشيز (ملك نافارا تحت وصاية الملكة طوطة وخال سانشو المخلوع) غير مصدق: هل ستفعلين حقًّا يا أماه؟!

طوطة: لا حلّ غيره يا بني.

(٣)

سفارة طوطة إلى الناصر

استعدّت الزهراء لاستقبال عمّة الخليفة (الملكة طوطة) واصطفّ الحرس لاستقبالها، وقد كان الفِتيان الصقالبة زينة البلاط والحرس، ودخلت الملكة على الناصر الذي كان يجلس في قاعة عرشه وحوله الكبراء والوزراء وابنه الحكم، حتّى إذا دخلت لم يتحرّك الناصر، حتّى إذا كانت بين يديه نهض الناصر وأمسك بيدها وأجلسها بجوار وليّ العهد، ثمّ عاد إلى كرسي عرشه، فتقدّم منه غارسية سانشيز وقبّل يده، فأشار له الناصر بالجلوس، وفعل سانشو ما فعل خاله.

طوطة: أتيناك - أيّها الملك- طمعًا في عقد السلم معك.

الناصر: لا بأس، ولكن أليس هذا سانشو المخلوع؟

نظر سانشو إلى الأرض وقال بصوت خجول: بلى يا سيدي.

الناصر: أمّا مملكة نافارا فنقبل طلبها لعقد الحلف معنا، على أن تحارب معنا من نحارب وتسالم من نسالم، وسنقرّ ابنك (غارسية) ملكًا على نافارا.

ابتهج غارسية وقال: الشكر لك يا سيدي.

طوطة: وماذا عن ملك ليون؟

الناصر: وهل عاد ملكها ليعقد الحلف معي؟

طوطة: وهذا ما أتينا من أجله أيّها الملك، أن تساعده على استرداد عرشه نظير ما تريد من شروط.

الناصر: فمن الذي يضمن لنا وفاءك بالعهد؟ وقد دأبت على نقضه يا سانشو.

سانشو: أقسم لك يا سيدي أن أفعل.

طوطة: إن لم يفِ بقسمه -أيّها الملك- فأنت تملك من القوة ما يجعله يذعن لك إن أَبى أو غدر.

الناصر: حسنًا... سنعاونك يا سانشو على استرداد عرشك، وذلك مقابل تعهدّك، أن تسلّم لنا بعض الحصون الواقعة على الحدود، وأن تهدم البعض الآخر.

سانشو بحماسة: أفعل يا سيدي... أفعل.

الناصر: أين قائدنا غالب الناصري؟

غالب: طوع بنانك يا أمير المؤمنين.

الناصر: ستخرج بقطعة من جيشك؛ لتضع سانشو على عرش ليون، وبعدها تدبّر له بعض شؤونه.

غالب: أفعل يا سيدي.

طوطة: شكرًا لك أيّها الملك، غير أننّا نطمح منك في أمر آخر.

الناصر: ما هو؟

طوطة: لقد أعيتنا بدانة هذا الفتى، فلو أرسلت إلينا طبيبًا يداويه.

الناصر: لا بأس، سنرسل لكم طبيبنا الخاص (حسداي بن شبروت)، فهو أبرع أطبائنا، وهو القادر على علاج علّة حفيدك.

ابتهجت طوطة بنتائج السفارة وردّ الناصر، ونجاحها في مسعاها، وعادت إلى نافارا ومعها عهد الناصر وطبيبه الخاص الذي عكف على مداواة سانشو، كما نجح الطبيب اليهودي في مسعاه ولم تمرّ عدّة أشهر حتّى نقص وزن سانشو، واستطاع -أخيرًا- أن يمتطي جواده، ثمّ أمدّه الناصر بقائده المظفر (غالب الناصري) وبالمال والجند، فغزا ليون، وغزا النافاريون في الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق، وانتهت هذه الحرب الأهلية الجديدة بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرّة أخرى، وفرّ أردونيو إلى برغش...

(٤)

في موكب فخم.. امتطى الناصر فرسه وخرج معه وليّ عهده الحكم وثلّة من وزرائه ومعهم مجموعة من الفرسان يرتدون الأفخم من الثياب، وخرج من الزهراء قاصدًا مسجد الداخل في قرطبة، والناس يلتفون حول الموكب يدعون للناصر ويحيّونه، وهو يردّ عليهم برفع يده، حتّى إذا وصل إلى خارج المسجد ترجّل الناصر فترجّل من حوله، وراح يطالع المنارة العجيبة التي كان قد أمر ببنائها، فكانت تحفة عجيبة، تمتاز بفخامتها وارتفاعها الشاهق، وكانت مربعة الواجهات عالية البنيان، وكانت الشمس وقتها تميل للغروب، والناصر يطالع المنارة وهو مبشوش الوجه سعيد ... ثمّ نظر الناصر إلى عبد الله بن بدر -وكان من كبار مهندسي الخليفة والقائم على المباني في قرطبة وأحوازها -وقال:

الناصر: عمل رائع يا ابن بدر.

عبد الله بن بدر: إنّه بفضل توجيهاتك يا أمير المؤمنين.

كان الحكم ينظر صاعدًا بعينه في المنارة، وكأنّه يحصي شيئًا، ثمّ قال: لها أربعة عشر شبّاكًا ذات عقود.

عبد الله بن بدر: وتحتوي-أيضًا- على سلّمين.. أحدهما للصعود، والآخر للنزول يا سيدي.

الناصر: هل صنعتم التفافيح التي أمرت بها؟

عبد الله بن بدر: أجل يا أمير المؤمنين.

الناصر: حسنًا فعلتم، أريد أن يكون هذا المسجد الأمويّ لا مثيل له في الدنيا كلّها، وأن يصبح على مرّ التاريخ علامة.

وفي تلك الأثناء أشار عبد الله بن بدر إلى العمّال فتحرّكوا، وهم يحملون ثلاثة تفاحات، اثنتان منها من الذهب، والثالثة من الفضة، وبدأوا صعودًا كلّ رجلين يحملان تفاحة، حتّى إذا صعدوا وركّبوهم أعلى المنارة، أرسلت الشمس أشعتها عليها، فكادت تخطف الأبصار ببريقها.

كبّر الناس المجتمعون في قرطبة وهتفوا باسم الخليفة قائلين: يا عبد الرحمن يا منصور، يا عبد الرحمن يا منصور، فردّ لهم الخليفة التحية.

عبد الله بن بدر: سيدي الخليفة، يسرُّني في هذا اليوم السعيد أن ترى عمل خادمكم سعيد بن أيوب الخطّاط الذي نقش لوحة بما حقّقه مولانا الناصر من إنجاز.

الناصر: حقًا، أين اللوحة؟

عبد الله بن بدر: صوب باب النخيل يا سيدي.

تحرّك الخليفة إلى واجهة الجامع من الجانب الأيمن من بابه الرئيسي (باب النخيل) فإذا سعيد بن أيوب قد كتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله -أطال الله بقاءه- ببنيان هذا الوجه، وإحكام إتقانه؛ تعظيمًا لشعائر الله، ومحافظة على حرمة بيوته، التي أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه، ولمّا دعاه على ذلك من تقبّل عظيم الأجر، وجزيل الذخر، مع بقاء شرف الأثر، وحسن الذكر، فتمّ ذلك بعون الله، في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر. (عمل سعيد بن أيوب)

الحكم: إنّ هذا ليوم أعزّ الله فيه الإسلام يا سيدي.

الناصر: الحمد لله، الذي أعزّنا بالإسلام وأعزّ الإسلام بنا.

ثمّ دخل الخليفة المسجد وصلّى خلف (أحمد بن مطرف) خطيب الجامع الكبير بقرطبة، ومن ثَمّ انصرف إلى الزهراء، وقد انشغل بتزيينها وتنميقها على أحسن وأكمل وجه، وكانت لمّا تكتمل بعد... وقد كان الخليفة عبد الرحمن الناصر شغوفًا بالعمارة وإقامة المعالم وبناء الدور، واستفرغ جهده في تنميقها وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها، حتّى ترتّب على اهتمامه بذلك الأمر وإشرافه عليه بنفسه

أن تأخّر عن صلاة الجمعة ثلاثة أسابيع متوالية، فلم يصلّها مع منذر بن سعيد إمام مسجد الزهراء.

فلمّا حضر الناصر يوم الجمعة الرابعة أراد منذر أن يعظ الخليفة ويكسر غروره، ويحاسبه على إنفاقه الأموال الطائلة في التشييد والعمارة وعلى انشغاله بذلك عن الإقبال على الله، فصعد منذر المنبر، فبدأ الخطبة بقول الله تعالى: «أتبنون بكلّ ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلّكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبّارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون»، واسترسل يقول: لا تقولوا كما قال الكفار: «سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إنّ هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين»، و«قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا». ومضى يذمّ الإسراف في تشييد البناء والعناية بالزخرف بلهجة شديدة، ثمّ تلا قول الله عزّ وجلّ: «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين» - سورة التوبة.

انتهت الصلاة، وعاد المصلون إلى دورهم وعاد الخليفة إلى قصره بالزهراء وهو يكتم غيظه، فقال له الحكم: مالك يا سيدي.

الناصر (بغضب): ألا ترى إلى منذر بن سعيد، والله لقد تعمّدني بالكلام، وقد أسرف عليّ وبالغ في تقريعي، والله لا أصلّي خلفه مرة أخرى، ولأصلينّ خلف (أحمد بن مطرف) خطيب جامع قرطبة بجانب الصلاة في الزهراء.

الحكم: ما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك إذا كرهته؟

الناصر: اصمت يا حكم، أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون.. وإنّي لأستحيي من الله ألّا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكن أحرجني فأقسمت، ولوددت أن أجد سبيلًا إلى كفّارة يميني بملكي، بل يصلّي بالناس حياته وحياتنا - إن شاء الله تعالى- فما أظنّنا نعتاض عنه أبدًا..

(٥)

جلس الناصر يفكّر في أمر دولته التي شادها، حتّى أقبلت عليه ملوك الدنيا تطلب ودّه وصداقته، ثمّ تذكّر أباه وكيف قُتل، وجدّه وكيف وصّاه، وقرطبة ومعاهدها ودورها وحدائقها وأشجارها، فتاقت نفسه لركوب الخيل، وقد كان توقف عن ذلك منذ شهور، فحاول ابنه الحكم أن يثنيه عن عزمه، فقال الحكم: لو أجّلت ذلك إلى يوم غير هذا يا سيدي، فاليوم ذو طقس سيِّئ والسحب تحجب الرؤية، وفرصة هطول الأمطار اليوم عالية.

الناصر: ومنذ متى يمنعني الطقس السيئ عن ركوب الخيل يا حكم؟ فإن أردت فلتبقَ أنت هنا، وأخرج أنا وثلّة من الجند، فإن كان المطر فهو رحمة الله لأهل الأرض، وإن لم يكن فالحمد لله على فضله ونعمه.

الحكم: بل أخرج معك يا أمير المؤمنين.

تمّ إعداد موكب الخليفة، وتقدّم الناصر الموكب ممتطيًا صهوة جواده، وهو ينظر هنا وهناك والسعادة بادية على محيّاه، كما خرج معه ابنه الحكم، حتّى إذا وصل الخلاء وسط الأشجار الباسقة، أبرقت السماء وأرعدت وانسال المطر منها غزيرًا يروي تراب قرطبة، والناصر لهذه الأمطار مبتهج سعيد ينظر أمامه لشيء لا يراه غيره، وقد نشط ودبّت فيه الحركة، حتّى يظنّه من يراه أنّه شاب في العشرين من عمره، وليس الناصر الذي يبلغ من العمر سبعين عامًا، وكأنّه أراد أن يودّع قرطبة وهو على صهوة جواده.

وبعد ساعات من السير تحت الأمطار، عاد الناصر إلى الزهراء، وقد صفت روحه وارتاحت نفسه، لكن لم تمر ساعات حتّى ارتفعت حرارته، وبدأ العرق يتصبّب من جبينه وجسده، وهرع الحكم فاستدعى له الأطباء الذين التفوا حول الخليفة يطببّونه، والحكم قائم عند رأس الخليفة لا يبارحه، وكان المرض الذي وقع بالخليفة هو البرد الشديد، فاحتجب به الخليفة عن الناس، وتسرّب الخبر لكلّ الأندلس، فخشيت الجموع على الخليفة، وتحرّكت جموع منهم صوب قصر الزهراء يبكون ويتضرّعون إلى الله أن يشفي خليفتهم وسيدهم وراعيهم، وأكبّ الأطباء على علاج الناصر حتّى تحسّنت حالته، وعاد إلى الجلوس في القصر، ولكنّه أصيب بنكسة، وعاد إلى احتجابه مرة أخرى، ولبث أشهر تشتدّ به العلة حينًا، وتخفّ حينًا، حتى وافاه القدر المحتوم، في الثاني من شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر/تشرين الأول سنة ٩٦١ م). وكانت وفاته بقصر الزهراء

في الحادية والسبعين من عمره، واستطال حكمه زهاء خمسين عامًا، وهي أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام...

لقد كان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام في عصره، بل كان أعظم أمراء عصره قاطبة. ولم تصل الدولة الإسلامية في الغرب إلى ما وصلت إليه -في عصر الناصر- من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ، وكان يتمتّع بخلال باهرة قلما تجتمع في شخصية واحدة، سياسية وعسكرية وإدارية، وكان يشبه في حزمه وصرامته وبُعد نظره جدّه الأكبر عبد الرحمن الداخل، وقد ظهر لأوّل ولايته من يمن طائره، وسعادة جدّه، واتساع ملكه، وقوة سلطانه، وإقبال دولته، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكلّ جهة، وانقياد العصاة لطاعته، ممّا تعجز عن تصوره الأوهام ...

كان عبد الرحمن الناصر عالمًا أديبًا، يهوى الشعر وينظمه، ويقرّب الأدباء والشعراء، وكان في مقدمة دولته وأكثرهم حظوة لديه الفقيه (ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد)، وشاعر الدولة المروانية (منذر محمد بن عبد الرحمن).

تولّى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب، واستنفدت مواردها الثورة، فتداركها بعزمه وقوّة نفسه، واستطاع أن يسحق خصومها في الداخل والخارج في سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة، وأن يوطّد دعائمها، وأن يخضع الجزيرة لصولتها، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء.

ولم يفت الناصر منذ البداية أنّ الجيش عماد الدولة وسياج الملك، فعكف على إصلاح الجيش الذي أضناه الكفاح ضدّ الثورة، وحشد

له الجند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب، واستكثر من الأسلحة والذخائر، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودرّبته، وأمدّته بطائفة من أمهر القادة وأشدّهم بأسًا، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف، وكان إقدام الأمير على تولي القيادة بنفسه مجددًا منارة الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة. وعُني عبد الرحمن في الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه، فأنشأ له وحدات جديدة قوية، وكانت (ألمرية) عندئذ مركز الأسطول الأندلسي الرئيسي، وبها أكبر دار للصناعة.

وبلغ الأسطول في عهد الناصر زهاء مائتي سفينة مختلفة الأنواع والأحجام، وهذا عدا الأسطول المخصص لشؤون المغرب البحرية، وقد كان يضمّ -كذلك- عددًا كبيرًا من السفن... وهكذا كان أسطول الأندلس في ذلك العهد من أقوى الأساطيل يومئذ، وكان بضخامته وأهباته، يسيطر على مياه الأندلس الجنوبية والشرقية، وينازع الفاطميين سيادة الشقّ الغربي من البحر المتوسط.

وكان عهد الناصر- بالرغم من استمرار الحروب والغزوات- عهد رخاء ويسر، توطّدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة، وزاد الخراج والدخل زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة، وكثرة الأخماس والغنائم. وإن فيما احتوته الزهراء من القصور والمنشآت الباذخة، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة، لما يستوقف النظر، ويحمل على تأمّل ذلك المدى المدهش الذي بلغته الدولة الأمويّة في الأندلس في عهد الناصر من القوة والضخامة والغنى. وترك الناصر عند وفاته في بيوت الأموال ما تبلغ قيمته (خمسة آلاف مليون)

دينار. وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث: ثلث لنفقة الجيش، وثلث للبناء والمنشآت العامة، وثلث يدّخر للطوارئ...

بلغت الأندلس في عهد الناصر ذروة الرخاء والنعماء والأمن والعزة، وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة، ورخصت كلفة العيش، ونمت قرطبة نموًا عظيمًا، حتّى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف، ومنازلها أكثر من مئة ألف، وحماماتها العامة ثلاثمائة، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية وعشرين، هذا عدا المدينة الوسطى، وكان لقرطبة يومئذ سبعة أبواب: ١-القنطرة ٢-اليهود ٣-باب عامر٤-باب العطارين ٥-باب طليطلة ٦-باب عبد الجبار٧- الجود.

وكان للقصر الأموي ستّة أبواب: ١- السُّدة ٢-الجنان ٣-باب العدل ٤- الصناعة ٥-باب الملك ٦-باب الساباط (وهو في المسجد الجامع).

وازدانت قرطبة بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة، ودوت شهرتها في الآفاق، ووصلت إلى قاصية الشمال، حتّى أنّ الراهبة السكسونية (هروسوفيتا) التي اشتهرت بنظمها في أواخر القرن العاشر، أشادت في قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنّها (زينة الدنيا).

نظر الجدّ خليل إلى حفيدته فوجدها مشدوهة منتبهة مبهورة ممّا تسمع، فابتسم لها، وبصوت ضعيف قالت فاتيما: أيعقل كلّ

هذا؟ أيعقل أن تكون تلك العقلية موجودة في العصور الوسطى (عصور الظلام)؟

الجدّ: كانت عصور ظلام أوروبا، ولكنّها كانت عصور نور وعلم وتقدّم للمسلمين... (عصورًا ذهبية أندلسية) كانت الأندلس تقود فيها الدنيا للتقدّم والعلم والحضارة، فلا غرو أن تعترف إسبانيا -رغم عدائها الرهيب للإسلام - بعظمة عبد الرحمن الناصر، وتعدّه واحدًا من أعظم حكّامها عبر العصور، وفي ذلك إقرار بعظمة أجدادك، ويكفي يا بنيتي أن تعلمي أنّه في الوقت الذي كان العلم مسيطرًا على أندلس الناصر، كانت أوروبا تحارب العلم، بل حتّى بعد عصر الناصر بعصور، ومن منّا لا يعرف مذبحة الكتب التي قام بها (الأب خيمينيس) عندما جمع ملايين الكتب وأحرقها في ميدان(باب الرملة)، ذلك الميدان الذى خرجت تحتفلين فيه بسقوط دولة العلم والحضارة والرقي...

شعرت فاتيما بالخزي من فعلتها.

أكمل الجدّ: والآن يا بنيتي بعدما خبرتِ القصة، فالقرار بيدك ولك، أمّا أنا فلن أجبرك على شيء، ف«كلّ نفس بما كسبت رهينة».

نظرت فاتيما إلى الأرض للحظات، قبل أن تنهض من مكانها وتعود لغرفتها وتغلق بابها عليها، بينما ظلّ الجدّ يتمتم بكلمات غير مسموعة.

أمضت فاتيما بعد ذلك بضعة أيّام في التفكير... كانت تتصرّف فيها على سجيتها، ولم تناقش جدّها أو تأتي معه على ذكر الأمر، ولم يشأ الجدّ خليل أن يتطرّق إلى الموضوع فيسألها عن قرارها،

وما آلت إليه نفسها، وفي أحد الأيام ارتدت فاتيما ملابس الخروج وألقت التحية على جدّها، ثمّ خرجت قاصدة المكان الذي يعمل فيه بيدرو، اجتازت أزقّة البيازين العتيقة متأمّلة إيّاها وكأنّها تراها بعين مختلفة، وأكملت طريقها خارج البيازين حتّى وصلت إلى مقر الشركة التي يعمل فيها بيدرو، أمضت وقتًا في انتظاره أسفل البناء، حتّى حان موعد خروجه، وعندما شاهدها بيدرو أسرع إليها بلهفة وابتسامة عريضة، رحّب بها وأمسك بيدها وقال:

يا لها من مفاجأة سارة، ولكن لمَ أنتِ هنا؟ لمَ لم تصعدي إليّ؟ كان بالإمكان أن أغادر باكرًا لو علمت بوجودك.

فاتيما: لا عليك، لم أنتظر وقتًا طويلًا. بدت فاتيما متوترة ومشوشة بعض الشيء، فسألها بيدرو بقلق: هل أنت بخير؟ أجابته فاتيما: أجل بخير.

لم يقتنع بإجابتها، فمنظرها يدلّ على أنّ في أمرها خطبًا ما، فسألها مرة أخرى: هل كلّ شيء على ما يرام؟

فاتيما: أجل، أجل كلّ شيء عل ما يرام.

بيدرو: إذًا ما الأمر؟

فاتيما: أردت أن أحدّثك في أمر مهم.

بيدرو: إذًا، هيّا بنا إلى المطعم القريب من هنا، نتناول غداءنا وتخبريني بما تشائين.

فاتيما: لا لا، لا أريد مكانًا مزدحمًا بالناس.

بيدرو (مستغربًا): لم أفهم.

فاتيما: لنذهب إلى الحديقة القريبة من هنا.

بيدرو: كما تشائين.

مشى الاثنان حتّى وصلا إلى الحديقة، وجلسا على أحد المقاعد.

بيدرو: ها نحن هنا الآن، هاتِ ما عندك، ما الذي أهمّك إلى هذا الحد البادي على وجهك؟

فاتيما: اسمعني يا بيدرو جيدًا، لقد فكّرت كثيرًا بأمرنا، ووجدت أننّا لا نصلح كزوجين، ليس لعيب فينا، ولكن لا نستطيع الاستمرار في علاقتنا.

بيدرو (متفاجئًا ومصدومًا): ماذا، ماذا تقولين؟

فاتيما: كما سمعت يا بيدرو، وأرجوك ألّا تصعّب عليّ الموقف.

بيدرو: لكن لمَ؟ ألم نكن سويّة منذ بضعة أيام، واتفقنا على موعد زفافنا من العام القادم؟! هل رفض جدّك زواجنا؟

فاتيما: ليس لجدي علاقة بالأمر يا بيدرو، إنّه قراري. كانت فاتيما تسعى جاهدة لحبس دموعها، ولكنّها لم تعد تستطع؛ فخانتها قوتها وبدأت الدموع تترقرق في عينيها، أمسك بها بيدرو بعنف وهزّها وسألها: ما الذي جرى في الأيام السابقة؟ هل هناك شخص آخر تقدّم لخطبتك، وهو أفضل منّي؟

فاتيما (بحزن شديد وصوت متهدّج): لا يوجد من هو أفضل منك، ولكن أرجوك افهمني، لا نستطيع أن نكمل معًا.

بيدرو: من حقّي أن أفهم.

لم تكن فاتيما لتجرؤ أن تبوح له بالأمر، فبيدرو مسيحي متعصّب، وغالبًا ما سيبلغ السلطات عنها وعن جدها، وحينها ستكون عاقبتهما وخيمة على يد فرانكو ورجاله، وفي الوقت ذاته كان قلبها يتقطّع لأنّها أحبّت بيدرو كثيرًا، ولم يكن من السهل عليها أن تتنازل عن حبّها، ولكنّها العقيدة... كما قال جدّها لا يجوز لمسلمة أن تتزوّج مسيحيًا.

بدأ بيدرو يفقد أعصابه من هول الصدمة، وبدأ يذكّرها بكلامها السابق عن مستقبلهم: ألم تقولي لي أنّك تريدين أن نكبر معًا، وأن نشيب معًا؟ ألم نتعاهد أن نبقى معًا حتّى الممات؟!

كانت فاتيما تستمع إليه، وهي تبكي بصمت وبحرقة كبيرة، شعرت أنّها ستضعف أمامه وأمام كلامه، فاستجمعت قواها، ووقفت منتصبة وقالت له: نحن لا نصلح لبعض يا بيدرو، وهذا آخر كلام لدي، وأشاحت بوجهها مبتعدة عنه، ولم تنظر خلفها، حتّى لا تضعف أمام نظرات الحزن والأسى التي كانت في عينيه، ناداها بيدرو عدّة مرات، لكنّها لم تلتفت، كانت تعي جيدًا أن الالتفات إلى الوراء سيضعفها، فلم تلتفت وتابعت طريقها.

لم تكن فاتيما تعرف أين تذهب، لم تشعر بنفسها إلّا وهي واقفة أمام قصر الحمراء، دخلت القصر تتجوّل في أرجائه حزينة منكسرة، بدأت تتأمّل النقوش الجميلة والزخرفات البديعة وكأنّها تشاهدها لأوّل مرة، كانت المرة الأولى التي تُمعن النظر فيها لجمال زخرفة الخطّ العربي، لغتها التي لم تتعلّمها، ثمّ دخلت صالة الأختين، وللصدفة العجيبة شاهدت هناك الشاب العربيّ نفسه الذي أهانته في المرة السابقة، التقت نظراتهما معًا، وهمّ الشاب بالخروج عند رؤيتها تحسبًا من تكرار تصرفها السابق غير اللائق معه، لكن

نظرات فاتيما له بدت مختلفة هذه المرة، كانت نظرات أسف واعتذار كانت فاتيما مدينة له، بهمّ نظرت إليه فاتيما وقالت في نفسها:

كيف أعتذر لك عمّا بدر منّي سابقًا؟ كيف أقول لك أنّك منّي وأنّي منك، وأنّنا نحمل الدم نفسه؟ كيف أقول لك أنّ أجدادي هم من بنوا هذا القصر البديع؟

كانت فاتيما تسعى جاهدة لحبس دموعها قدر المستطاع، ثمّ ابتسمت ابتسامة لطيفة للشاب ولاحظت أنّه يحمل كراسة وقلمًا، بدا وكأنّه يدوّن شيئًا عن القصر أو يرسم شيئًا ما...

اقتربت فاتيما منه وحيته بلغتها الإسبانية، فردّ عليها بالإنجليزية التي يتقنُها، أشارت فاتيما إلى نفسها وقالت: (فاتيما)، استغرب الشاب اسمها، ثمّ لفظه بالعربية لها: (فاطمة)، ابتسمت له وقالت: أجل، فاطمة، ثمّ عرّفها على اسمه وقال: (عُمر)، كرَّرَت فاتيما الاسم وقالت: (أومار). ابتسم الاثنان لبعضهما البعض، ثمّ نظرت فاتيما في كراسة الشاب فوجدت الكتابة نفسها المحفورة على جدران الصالة، فعرفت أنّه يدوّن الأشعار المكتوبة، وكانت أبرز عبارة مدونة في كراسته هي «ولا غالب إلّا الله»، كرَّرَتها فاتيما -مرارًا وتكرارًا- بقلبها قبل لسانها، وكأنّها تعي معناها تمامًا، كانت هذه العبارة الوحيدة التي يحفظها أغلب سكان غرناطة «ولا غالب إلّا الله»

انطفأت تلك الأنوار الملوَّنة وخبت خلف كواليس الزَّمان العاثر ... قُبِرَتْ كّل كتب الأساطير... وغاصت في ظلمات البحر الوردي المسحور... غاص بّحارها.. ثّم عاد.. يحمل تلك الرواية الأندلسية..

لمعت وتوّهجت مثل لؤلؤة فتّانة.. تزّين وجوه الأعراب... الكّل يتساءل و يسأل... أين فتية الّدجى؟ أين ناصر الورى؟ أحقًا قد خرفت أوراق شبابهم! هل اندلس سيفهم في غمد خشبي مترجم؟! ذكرى أندلسنا فخر... وأيّامها رغد العيش لكّل أبجدي... ما ماتت أرض، وقادتها أنصار الحق وزرَّاع الخير ... الكل يرجو نظراتها، ويحلم بالجلوس تحت أفنان شجيراتها.. يرنو إليها كّل أناسي الأرض... يتأملون بهاء قلاعها الشامخة.. وشوارعها المزخرفة بحروف العدالة الإسلامية... الجميع في ذهول ودهشة... تأسرهم رياح الياسمين الصادقة الأبيَّة ...

لا... لا... لن تحذف من تواريخ العالَم أمجاد نصير ونصَّار وناصر القضية الأندلسية العربيَّة... لن تفطم من الصدور الشجية..

زرعتم في قلوبنا أجمل سيمفونية عربية أندلسية خالدة... ستبقى لكلِّ العصور سفينة جبلية... وقادتك منارة مرصَّعة أدبيَّة...

آندلساه...

رواي الأندلس

تمّت

بعون الله وتوفيقه

مكتبة نوميديا 169
Telegram: @Numidia_Library

ربيع الأندلس

انطفأت تلك الأنوار الملوّنة، وخبت خلف كواليس الزَّمان العاثر، كبُرت كلُّ كتب الأساطير، وغاصت في ظلمات البحر الوردي المسحور، غاص بحَّارها، ثمَّ عاد يحمل تلك الرواية الأندلسية.. لمعت وتوهّجتْ مثل لؤلؤةٍ فتّانةٍ تزيِّن وجوه الأعراب، الكلّ يتساءل ويسأل، أين فتية الدّجى؟ أين ناصرُ الورى؟ أحقًا قد خرفت أوراق شبابهم! هل أندلس سيفهم في غمد خشبي مترجم؟! ذكرى أندلسنا فخرٌ، وأيّامها رغد العيش لكلِّ أبجدي، ما ماتت أرضٌ وقادتها أنصار الحق وزُرَّاع الخير، الكل يرجو نظراتها، ويحلمُ بالجلوس تحت أفنانِ شجيراتها، يرنو إليها كلّ أناسي الأرض يتأملون بهاء قلاعها الشامخة، وشوارعها المزخرفةِ بحروف العدالة الإسلامية، الجميع في ذهولٍ ودهشة، تأسرهم رياح الياسمين الصادقة الأبيّة.

محمود ماهر

تصميم: محمود هشام

9 789779 920665

عصير الكتب